قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم
كلا لعمرى ولكن منه شيبانُ
وكَمْ أبٍ قد علا بابن ذُرا شَرَفٍ
كما عَلَتْ برسول الله عدنانُ

ومادام القوم يفتخرون بحى منهم ، فهم يلتحمون بمن يعطيهم المدد ليكونوا شيئا باقيا ومؤثرا فى الوجود ، وليس بذلك الشيء المحدود المتمثل فى أنه يطعم الطعام ، ويحمل الحمالات ويؤدى الديات ، وإنما يكون بحمل رسالة الإنسانية العالمية .

« فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا » . لأن ذكركم الله سيصلكم بالمدد منه ، ويعطيكم المعونة لتكونوا أهلا لقيادة حركة الحياة فى الأرض ، فتوطدوا فيها الأمن والسلام والرحمة والعدل ، وهذا هو ما يجب أن يكون مجالا للفخر .

وبعد ذلك يلفتنا الحق فيما يأتى إلى أن الإنسان إذا ما قضى المناسك كان أهلا لأن يضرع إلى الله ، ويسأل الله بما يجب أن يسأله ، والسؤال لله يختلف باختلاف همة السائلين ، وكانوا لا يسألون الله إلا قائلين : يارب أعطنى إبلاً ، يارب أعطنى غنماً ، يارب أعطنى بقراً ، يارب أعطنى حائطاً ـ أى بستاناً ـ ، يارب كما أعطيت أبى أعطنى .

ولم يكن فى بالهم إلا الأمور المادية ، وأراد الله أن يجعلهم يرتفعون بالمسألة لله ، وأن يُصَعِّدُوها إلى شيء أخلد وأبقى وأنفع ، ومن هنا تأتى المزية الإيمانية ، فإذا كنتم ستسألون الله متاعا من متاع الدنيا فما الفارق بينكم وبين أهل الجاهلية ؟

ذلك ما نفهمه من قول الله عز وجل فى ختام هذه الآية : « فمن الناس من يقول ربنا ءاتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق » . فالعبد حين يؤدى مناسكه لله يجد نفسه أهلا لأن يسأل الله ، ومادمت قد وجدت نفسك أهلا لأن تسأل الله فاسأل الله بخير باق ؛ لأن الإنسان إنما يُصَعِّدُ حاجته إلى المسئول على مقدار مكانة المسئول ومنزلته ؛ فقد تذهب لشخص تطلب منه عشرة قروش ، وقد تذهب لآخر أغنى من

الأول فتقول له : أعطني جنيها ، ولثالث : تطلب منه عشرة جنيهات ، إنك تطلب على قدر همة كل منهم فى الإجابة على سؤالك .

إذن مادام العباد بعد أداء المناسك فى موقف سؤال لله فليُصَعِّدُوا مسألتهم لله وليطلبوا منه النافع أبداً ، ولا ينحطوا بالسؤال إلى الأمور الدنيوية الفانية البحتة . « فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخر من خلاق » إن العبد قد لا يريد من دعائه لله إلا الدنيا ، ولا حظ ولا نصيب له فى الآخرة ، ومثل هذا الإنسان يكون ساقط الهمة ؛ لأنه طلب شيئاً فى الدنيا الفانية ، ويريد الله أن نُصَعِّد همتنا الإيمانية ، ولذلك يتبعها بقوله الحق :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾

ولماذا لم ننس الدنيا هنا ؟ لأنها هى المزرعة للآخرة . وقوله سبحانه : « آتنا فى الدنيا حسنة » اختلف فيها العلماء ؛ بعضهم ضيقها وقال : إن حسنة الدنيا هى المرأة الصالحة . وقال عن حسنة الآخرة إنها الجنة . ومنهم من قال : إن حسنة الدنيا هى العلم ؛ لأن عليه يُبْنَى العمل ، وفى حسنة الآخرة قال : إنها المغفرة ؛ لأنها أم المطالب .

ومن استعراض أقوال العلماء نجدهم يتفقون على أن حسنة الآخرة هى ما يؤدى إلى الجنة مغفرة ورحمة ، لكنهم اختلفوا فى حسنة الدنيا . أقول : لماذا لا نجعل حسنة الدنيا أعم وأشمل فنقول : يارب أعطنا كل ما يُحَسِّنُ الدنيا عندك لعبدك .

ويذيل الحق هذه الآية بقوله : « وقنا عذاب النار » وسبحانه وتعالى حين يَمْتَنُّ على عباده يمتن عليهم بأن زحزحهم عن النار وأدخلهم الجنة ، كأن مجرد الزحزحة عن

النار نعيم ، فإذا ما أدخل الجنة بعد الزحزحة عن النار فكأنه أنعم على الإنسان بنعمتين ؛ لأنه سبحانه قال :

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾

(من الآية ٧١ سورة مريم)

ومعناها أن كل إنسان سيرى النار إما وهو فى طريقه للجنة ، فيقول : الحمد لله ، الإيمان أنجانى من هذه النار وعذابها . فهو عندما يرى النار وبشاعة منظرها يحمد الله على نعمة الإسلام . التى أنجته من النار . فإذا ما دخل الجنة ورأى نعيمها يحمد الله مرة ثانية . وكذلك يرى النار مَن هو مِن أهل الأعراف أى لا فى النار ولا فى الجنة ، يقول الحق :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴾

والنصيب هو الحظ ، وأما « مما كسبوا » فنعرف من قبل أن فيه « كسب » وفيه « اكتساب » . والاكتساب فيه افتعال ، إنما الكسب هو أمر عادى ، ولذلك تجد أن الاكتساب لا يكون إلا فى الشر ؛ كأن الذى يفعل الشر يتكلف فيه ، لكن من يفعل الخير فذلك أمر طبيعى من الإنسان . والمقصود بـ « مما كسبوا » هنا هو الكسب من استيفاء أعمالهم التى فعلوها فى الحج إحراماً ، وتلبية . وطوافاً ، وسعياً ، وذهاباً إلى « منى » ، وذهاباً إلى « عرفات » ووقوفاً بها ، وإفاضة إلى « مزدلفة » ، ورمياً للجمار فى « منى » ، وطواف إفاضة ، وكل هذا كسب للإنسان الذى نال شرف الحج .

وعندما نقرأ : « والله سريع الحساب » فلنفهم أن السرعة هى أن يقل الزمن عن الحدث ، فبدلا من أن يأخذ الحدث منك ساعة ، قد تنهيه فى نصف ساعة ، وكل حدث له زمن ، والحدث حين يكون له زمن وتريد أن تقلل زمن الحدث فلا بد أن تسرع فيه حتى تنجزه فى أقل وقت . وتقليل الزمن يقتضى سرعة الحركة فى الفعل ، وذلك فى الأفعال العلاجية التى تحتاج مُعَالجة ، وعملاً من الإنسان ، لكن سبحانه يفعل بـ« كُن » ولا يحتاج عمله إلى علاج ، وبالتالى لا يحتاج إلى زمن ، إذن فهو سريع الحساب ؛ لأنه لا يحتاج إلى زمن ، ولأنه لا يشغله شأن عن شأن ، وهذا هو الفرق بين قدرة الواحد سبحانه وقدرة الحادث ؛ لأن الحادث عندما يؤدى عملاً ، فهذا العمل يشغله عن غيره من الأعمال ، فلا يستطيع أن يؤدى عمليتين فى وقت واحد ، لكن الواحد الأحد لا يشغله فعل عن فعل ، وبالتالى يفعل ما يريد وقتما يريد ولكل من يريد .

ولذلك سُئل الإمام على بن أبى طالب : كيف يحاسب الله الخلائق جميعاً فى لحظة واحدة ؟ . فقال : « كما يرزقهم فى ساعة واحدة » . فهو سبحانه الذى يرزقهم ، وكما يرزقهم يحاسبهم . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

ونلاحظ أن ذكر الله أمر شائع فى جميع المناسك ، و« فى أيام معدودات » أى فى أيام التشريق . فى اليوم التاسع نكون فى عرفة وليلة العاشر نبيت فيها بـ« مزدلفة » ، ثم بعد ذلك نفيض من حيث أفاض الناس ، نذهب لرمى جمرة العقبة ، وبعضنا يذهب ليطوف طواف الإفاضة وينهى مناسكه ، أو قد يذهب ليذبح ويتحلل التحلل

الأصغر ، إن لم يكن معه امرأة ، وإن طاف فهو يتحلل التحلل الأكبر . أما الأيام المعدودات أى أيام التشريق فهى الأيام الثلاثة بعد يوم النحر . وقد سميت بذلك نسبة إلى الشروق ، والشروق خاص بالشمس ، كانوا قديماً إذا ما ذبحوا ذبائحهم أخذوا اللحم وشرقوه ، أى عرضوه لمطلع الشمس كلون من الحفظ ، ومن هنا سميت هذه الأيام بأيام التشريق . وعندما نسمع قوله : « فى أيام معدودات » نفهم منها أنها فوق يومين .

وبعد ذلك يقول الحق : « فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى » . قول الحق سبحانه وتعالى : « فى أيام معدودات » ثم قوله : « فمن تعجل فى يومين » يدل على أن كلمة « أيام » تطلق على الجمع وهو الأكثر من يومين ، أى ثلاثة أيام ، لكن الحق سبحانه وتعالى جعل للقيام بيومين حكم القيام بالثلاثة ، فإن تعجلت فى يومين فلا إثم عليك ومن قضى ثلاثة أيام فلا إثم عليه كيف يكون ذلك ؟ .

لأن المسألة ليست زمناً ، ولكنها استحضار نية تعبدية ، فقد تجلس ثلاثة أيام وأنت غير مستحضر النية التعبدية ؛ لذلك قال سبحانه : « لمن اتقى » ، فإياك أن تقارن الأفعال بزمنها ، وإنما هى بإخلاص النية والتقوى فيها .

ويذيل الحق الآية بالقول الكريم : « واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون » . وقد جاء سبحانه وتعالى بكلمة « تحشرون » لتناسب زحمة الحج ؛ لأنه كما حشركم هذا الحشر وأنتم لكم اختيار ، هو سبحانه القادر أن يحشركم وليس لكم اختيار . فإذا كنت قد ذهبت باختيارك إلى هذا الحشر البشرى الكبير فى الحج فاعرف أن الذى كلفك بأن تذهب باختيارك لتشارك فى هذا الاجتماع الحاشد هو القادر على أن يأتى بك وقد سُلب منك الاختيار . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا

وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾
وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ
ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يضع أمامنا قضية وجودية ، وهذه القضية الوجودية هى أن كل عمل له ظاهر وله باطن . ومن الجائز أن تتقن الظاهر وتدلس على الناس فى الباطن ، فإذا كان الناس لهم مع بعضهم ظاهر وباطن . فمن مصلحة الإنسان أن ينتمى هو والناس جميعاً إلى عالم يعرف فيه كل إنسان أن هناك إلهاً حكيماً يعرف كل شىء عنا جميعاً .

فإذا كان عندك شىء لا أعلمه ، وأنا عندى شىء أنت لا تعلمه كيف تسير مصالحنا ؟ ولذلك فمن ضروريات حياتنا أن نؤمن معا بإله يطلع على سرائرنا جميعاً ، وهذا ما يجعلنا نلزم الأدب . ولذلك قيل : « إن عَمّيْتَ على قضاء الأرض فلن تعمى على قضاء السماء » .

إذن فقضاء السماء وعلم الله بالغيب مسألة يجب أن نحمده عليها ، لأنه هو الذى سيحمى كل واحد منا من غيره . وعندما ستر الله غيبنا فذلك نعمة يجب أن نشكره عليها ؛ لأن النفوس متقلبة . فلو علمت ما فى نفسى عليك فى لحظة قد لا يسرك . . وقد لا تنساه أبدا ويظل رأيك فىّ سيئاً ، لكن الظنون والآراء تمر عندى وعندك وتنتهى . ولو اطلع كل منا على غيب الآخر لكانت الحياة مرهقة ، والقول المأثور يذكر ذلك : « لو تكاشفتم ما تدافنتم » .

إذن فمن رحمة الله ومن أكبر نعمه على خلقه أن ستر غيب خلقه عن خلقه . والحق يحذرنا ممن قال فيهم : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا » أى الذين يظهرون من خير خلاف ما يبطنون من شر ، ولذلك صور الشاعر هذه المسألة فقال :

عـلى الـذم* بـتـنـا مجـمـعـين وحـالـنـا
من الخـوف حال المجمعين عـلى الحمـد

أى لو تكاشفنا لقلنا كلنا ذماً ، إنما كلنا مداحون حين يلقى بعضنا بعضا كل يقول بلسانه ما ليس فى قلبه . و« يعجبك قوله » فهل الممنوع أن يعجبك القول ؟ لا ، يعجبنى القول ولكن فى غير الحياة الدنيا ، فالقول الذى يعجب هو ما يتعلق بأمر الحياة الآخرة الباقية ليضمن لنا الخير عند من يملك كل الخير .

وكفى بالذى يسمع من مادح له مدحاً ، والمادح نفسه يُضمر فى قلبه كرهاً له ، وكفى بذلك شهادة تغفيل للممدوح ، بأنه يقول بينه وبين نفسه : « إن الممدوح غبى ؛ لأنى أمدحه وهو مصدق مدحى له » . إن الله سبحانه وتعالى ينبهنا إلى ضرورة أن يكون المسلم يقظا وفطناً ، ومن يقول لنا كلاماً يعجبنا فى الحياة الدنيا نتهمه بأن كلامه ليس حسنا ؛ لأن خير الكلام هو ما يكون فى الأمر الباقى .

ولذلك عندما أرسل خليفةُ المسلمين للإمام جعفر الصادق يقول له : ـ لماذا لاتغشانا ـ أى لا تزورنا ـ كما يغشانا الناس ؟ فكتب الإمام جعفر الصادق للخليفة يقول : أما بعد فليس عندى من الدنيا ما أخاف عليه ، وليس عندك من الآخرة ما أرجوك له . وكأنه يريد أن يقول له اتركنا وحالنا ؛ أنت محتاج لمن يجلس معك ويمدحك ، وأنت لا تعلم أن أول أناس لهم رأى سيىء فيك هم من يمدحونك .

« ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا » وهذه الآية نزلت فى الأخنس ابن شريق الثقفى واسمه أبىّ ولقب بالأخنس لأنه خنس ورجع يوم بدر فلم يقاتل المسلمين مع قريش واعتذر لهم بأن العير قد نجت من المسلمين وعادت إليهم ، وكان ساعة يقابل رسول الله صلى الله عليه وسلم يظهر إسلامه ويلين القول للرسول ويدعى أنه يحبه،ولكنه بعد أن خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بزرع وحُمُر لقوم من المسلمين فأحرق الزرع وقتل الحُمُر . والآية وإن نزلت فى الأخنس فهى تشمل كل مُنافق .

« ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام » لا تقولوا : « الله يشهد » ، وإنما

هاتوا شهداءكم ليشهدوا على صدق قولكم ؛ لأن معنى « الله يشهد » هو إخبار منك بأن الله يشهد لك . وأنت كاذب فى هذه ، وتريد أن تضفى المصداقية على كذبك بإقحام الله فى المسألة .

وساعة تسمع واحداً يقول لك : أُشهِدُ الله على أنى كذا ، فقل له : هذا إخبار منك بأن الله يشهد ، وأنت قد تكذب فى هذا الخبر ، أنا أفضل أن يشهد اثنان من البشر ولا نقحم الله فى هذه الشهادة . « ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام » وألد الخصام هو الفاسق فى معصيته ، ويقال : فلان عنده لدد أى له فسق فى خصومته ، ويجادل بالباطل . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «إنّ أبغض الرجال إلى الله هو الألد الخصم»[1] .

يعنى المجادل بالباطل الذى عنده قسوة فى المعصية ، فهو عاصٍ وفى الوقت نفسه قاسٍ فى معصيته . ولماذا هو ألد الخصام ؟ لأن الذى يجابهك بالأمر يجعلك تحتاط له ، أما الذى يقابلك بنفاق فهو الذى يريد أن يخدعك ، وهذا عنف فى الخصومة ، فالخصم الواضح أفضل لأنه يواجهك بما فى باطنه ، لكن إذا جابهت الذى يُبطِن خصومته ويظهر محبته يكون قاسياً عليك فى خصومته ؛ لأنه يريد أن يخدعك ويُبيِّتُ لك .

« وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها » و « تولى » : انصرف أى يقول لك ما يعجبك ، فإذا تولى عنك نقل المسألة إلى الحقيقة بإظهار ما كان يخفيه ، ويحتمل المعنى أنه إذا تولى شيئاً آخر ، من الولاية ، ففيه « تولى » من التَّولِّى وهو الانصراف والإعراض ، وفيه « تَولّى » من الولاية .

« وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل » كانت الأرض بدون تدخل البشر مخلوقة على هيئة الصلاح ، والفساد أمر طارىء من البشر . ونعرف أن الفساد لم يطرأ على أى أمر إلا وللإنسان فيه دخل .

(١) رواه البخارى ، ومعنى « الألد الخصم » : الأشد فى خصومته .

لماذا اشتكينا أزمة قوت ولم نشتك أزمة هواء ؟ لأن الهواء لا تدخل للإنسان فيه ، وبمقدار تدخل الإنسان يكون الفساد . لقد تدخلنا قليلاً فى المياه فجاء فى ذلك فساد ، فلم نحسن نقلها فى مواسير جيدة فوصلت لنا ملوثة ، أو زاد عليها الكلور أو نقص . وبقدر ما يكون التدخل يكون الإفساد ، أما فى الزمن القديم فقد كان الإنسان يذهب إلى مصدر الماء المباشر فى الآبار ويأخذ الماء الطبيعى الذى خلقه الله بلا تدخل من الإنسان ولم يكن تلوث أو غيره .

إذن على مقدار وجود الإنسان فى حركة الحياة غير المُرْشَدة بالإيمان بالله ينشأ الفساد ، ولذلك كان لابد له من منهج سماوى للإنسان . والكائنات غير الإنسان ليس لها منهج وهى مخلوقة بالغريزة وتؤدى مهمتها فقط ؛ فالدابة لم تمتنع يوماً عن ركوبك عليها ، ولم تمتنع أن تحمل عليها أثقالك ، أو تستعين بها فى الحرث ، أو الرى ، حتى عندما تذبحها لا تمتنع عليك ، لماذا ؟ لأنها مخلوقة بالغريزة التى تؤدى بها الحركة النافعة بدون اختيار منها . وإذا امتنعت فى وقت فإنما يكون ذلك لأمر طارىء كمرض مثلا .

لكن الذى له اختيار لابد أن يكون له منهج يقول له : افعل هذه ولا تفعل تلك . فإن استقام مع المنهج فى « افعل » و« لا تفعل » سارت حياته بشكل متوازن ، لكن إذا لم يستقم تفسد الحياة . وهذا ما نفهمه من قوله تعالى : « وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها » ، كأن الإفساد هو الذى يحتاج إلى عمل ، اترك الطبيعة والمخلوقات كما هى تجدها تعمل فى انضباط وكمال على ما يرام .

إذن فالفساد طارىء من الإنسان الذى يحيا بلا منهج لأنه « إذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها » فكأن الأصل فى الأرض وما فيها جاء على هيئة الصلاح ، فإن لم تزد الصالح صلاحاً فلا تحاول أن تفسده . قال تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ومن هنا نفهم أنهم ظنوا أن الأرض تحتاج إلى حركتهم لإصلاحها ، برغم أن الأرض بدون حركتهم صالحة ؛ لأنهم لا يتحركون بمنهج الله .

إذن هذه الآية نفهم منها أن الإنسان إذا « تولى » بمعنى رجع أو تولى ولاية سعى فى الأرض ليفسد فيها ؛ فكأن الفساد فى الأرض أمر طارىء وينتج من سعى الإنسان على غير منهج من الله . وما دام للإنسان اختيار فيجب أن يكون له منهج أعلى منه يصون ذلك الاختيار ، فإن لم يكن له منهج وسار على هواه فهو مفسد لا محالة .

وانظر إلى غباء الذى يفسد فى الأرض ، هل يظن أنه هو وحده الذى سيستفيد فى الأرض ، فأباح لنفسه أن يفسد فى الأرض لغيره ؟ إنه ينسى الحقيقة ، فكما يُفسد لغيره ، فغيره يفسد له ، فمَنْ الخاسر ؟ كلنا سنخسر إذن .

﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ .. (٢٠٥) ﴾

(سورة البقرة)

والحرث له معنيان : فمرة يُطلق على الزرع ، ومرة يُطلق على النساء ، المعنى الأول ورد فى قوله تعالى :

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ .. (٧٨) ﴾

(سورة الأنبياء)

فالحرث فى الآية معناه : الزرع ، والزرع ناتج عن إثارة الأرض وإهاجتها . وعملك يا أيها الإنسان أن تهيج الأرض وتثيرها ، وتأتى بالبذر الذى خلقه الله فى الأرض التى خلقها الله ، وتسقيها بالماء الذى خلقه الله ، وتكبر فى الهواء الذى خلقه الله ، ولذلك يلفتنا وينبهنا الحق ـ سبحانه ـ فيقول :

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾

(سورة الواقعة)

والمعنى الثانى : يُطلق الحرث على المرأة فى قوله تعالى :

﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾

(من الآية ٢٢٣ سورة البقرة)

وإذا كان حرث الزرع هدفه إيجاد النبات فكذلك المرأة حتى تلد الأولاد . ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾

(من الآية ٢٢٣ سورة البقرة)

وأراد المتحللون الإباحيون أن يُطلقوا إتيان المرأة فى جميع جسدها ، ونقول لهم : لاحظوا قوله : « حرثكم » والحرث محل الإنبات ، فالإتيان يكون فى محل الإنبات فقط ، لا تفهمها تعميماً وإنما هى تخصيص . ويتابع الحق وصف الذى يقول القول الحسن ، ولكنه يسعى فى الأرض بالفساد فيقول : « ويهلك الحرث والنسل » . والنسل هو الأنجال والذرية .

ويذيل الحق الآية : « والله لا يحب الفساد » أى أن الحق يريد منكم إن لم تدخلوا بطاقة الله التى خلقها لكم فكراً وعطاء ، فعلى الأقل اتركوا المسألة كما خلقها الله ؛ لأن الله لا يحب أن تفسدوا فيما خلقه صالحاً فى ذاته .

وما سبق فى هذه الآية هو مجرد صورة من صور استقبال الدعوة الإسلامية فى أول عهدها ، من الذين كانوا ينافقون واقعها القوى ، فيأتون بأقوال تُعجب ، وبأفعال تعجب من يُنافق . ونعرف أن النفاق كان دليلا على قوة المسلمين ، ولذلك لم ينشأ النفاق فى مكة ، وإنما نشأ فى المدينة . فقد قال الحق :

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾

(من الآية ١٠١ سورة التوبة)

وربما يتساءل إنسان : وكيف تظهر هذه الظاهرة فى البيئة الإيمانية القوية فى المدينة ؟ ونقول : لأن الإسلام فى مكة كان ضعيفاً ، والضعيف لا ينافقه أحد ، والإسلام فى المدينة أصبح قوياً ، والقوى هو الذى ينافقه الناس .

إذن، فوجود النفاق فى المدينة كان ظاهرة صحية تدل على أن الإيمان أصبح قوياً بحيث يدعيه مَنْ ليس عنده إسلام . وهؤلاء كانوا يقولون قولاً حسناً جميلاً ، وقد يفعلون أمام مَنْ ينافقونه فعلاً يُعجب مَنْ يراهم أو يسمعهم ، ولكنهم لا يثبتون على الحق ، فإذا ما تولوا ، أى اختفوا عن أنظار مَنْ ينافقونه رجعوا إلى أصلهم الكفرى ، أو إذا ائتمنوا على شيء فهم يسعون فى الأرض فساداً .

والآية هنا تتعرض لشيء يدل على فطنة المؤمنين ، إن الآية فضحت مَنْ نافق . وكان الأخنس عمدة فى النفاق ، وفضيحة المنافق بهذه الصورة ، تدل على أن وراء محمد صلى الله عليه وسلم ووراء المؤمنين بمحمد ، رباً يخبرهم بمَنْ يدلس عليهم، وأيضاً ينبههم لضرورة أن تكون لهم فطنة بدليل قول الحق :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾

ولا يقال له اتق الله إلا إذا كان قد عرف أنه منافق ، وما داموا قد قالوا له ذلك فهذا دليل على أن فطنتهم لم يجز عليها هذا النفاق . ونفهم من هذه الآية أن المؤمن كيِّس فطن ، ولابد أن ينظر إلى الأشياء بمعيار اليقظة العقلية ، ولا يدع نفسه لمجرد الصفاء الربانى ليعطيه القضية ، بل يريد الله أن يكون لكل مؤمن ذاتية وكياسة .

« وإذا قيل له اتق الله » فكأن المظهر الذى يقول أو يفعل به ، ينافى التقوى ؛ لأنه قول معجب لا ينسجم مع باطن غير معجب ، صحيح أنه يصلى فى الصف الأول ،

ويتحمس لقضايا الدين ، ويقول القول الجميل الذى يعجب النبي صلى الله عليه وسلم ويعجب المؤمنين ، لكنه سلوك وقول صادر عن نية فاسدة . ومعنى « اتق الله» أى ليكن ظاهرك موافقاً لباطنك ، فلا يكفى أن تقول قولاً يُعجب ، ولا يكفى أن تفعل فعلاً يروق الغير ؛ لأن الله يحب أن يكون القول منسجماً مع الفعل ، وأن يكون فعل الجوارح منسجماً مع نيات القلب .

إذن، فالمؤمن لا بد أن تكون عنده فطنة ، وذكاء ، والْمعِيَّة ، ويرى تصرفات المقابل ، فلا يأخذ بظاهر الأمر . ولا بمعول القول ولا الفعل ، إن لم يصادف فيه انسجام فعل مع انسجام نية . ولا يكتفى بأن يعرف ذلك وإنما لا بد أن يقول للمنافق حقيقة ما يراه حتى يقصر على المنافق أمد النفاق ، لأنه عندما يقول له : « اتق الله » يفهم المنافق أن نفاقه قد انكشف ، ولعله بعد ذلك يرتدع عن النفاق ، وفى ذلك رحمة من المؤمن بالمنافق . وكل مَنْ يرى ويلمح بذكائه نفاقاً من أحد هنا يقول له : « اتق الله » فالمراد أن يفضح نفاقه ويقول له : « اتق الله » . فإذا قال له واحد : «اتق الله » وقال له آخر : « اتق الله » ، وثالث ، ورابع ، فسيعرف تماماً أن نفاقه قد انكشف ، ولم يعد كلامه يعجب الناس .

« وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم » ، وتقييد العزة بالإثم هنا يفيد أن العزة قد تكون بغير إثم ، وما دام الله قد قال : « أخذته العزة بالإثم » ، فهناك إذن عزة بغير إثم . نعم ، لأن العزة مطلوبة للمؤمن والله عز وجل حكم بالعزة لنفسه وللرسول وللمؤمنين :

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .. ﴿٨﴾ ﴾

(سورة المنافقون)

وهذه عزة بالحق وليست بالإثم . وما الفرق بين العزة بالحق وبين العزة بالإثم ؟ ولنستعرض القرآن الكريم لنعرف الفرق . ألم يقل سحرة فرعون فيما حكاه الله عنهم :

﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

هذه عزة بالإثم والكذب . وكذلك قوله تعالى :

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ ﴾

(سورة ص)

وهي عزة كاذبة أيضا أما قوله عز وجل :

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ ﴾

(سورة الصافات)

فتلك هي العزة الحقيقية ، إذن فالعزة هي القوة التي تَغْلِبُ ، ولا يَغْلِبها أحد . أما العزة بالإثم فهي أنفة الكبرياء المقرونة بالذنب والمعصية . والحق سبحانه وتعالى يقول لكل من يريد هذا اللون من العزة بالإثم : إن كانت عندك عزة فلن يقوى عليك أحد ، ولكن يا سحرة فرعون يا من قلتم بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ، أنتم الذين خررتم سُجَّدًا لموسى وقلتم :

﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨ ﴾

(سورة الشعراء)

ولم تنفعكم عزة فرعون ؛ لأنها عزة بالإثم ، لقد جاءت العزة بالحق فغلبت العزة بالإثم . لذلك يبين لنا الحق سبحانه وتعالى أن العزة حتى لا تكون بالإثم ، يجب أن تكون على الكافر بالله ، وتكون ذلة على المؤمن بالله .

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

وكذلك قوله الحق :

﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

وهذه دليل العزة بالحق ، وعلامتها أنها ساعة تغلب تكون فى منتهى الانكسار ولنا القدوة فى سيدنا رسول الله ﷺ،وهو الذى خرج من مكة لأنه لم يستطع أن يحمى الضعفاء من المؤمنين ،وبعد ذلك يعود إلى مكة فاتحاً بنصر الله ، ويدخل مكة ورأسه ينحنى من التواضع لله حتى يكاد أن يمس قربوس سرج دابته ، تلك هى القوة ، وهى على عكس العزة بالإثم التى إن علبت تطغى ، إنما العزة بالحق إن علبت تتواضع .

«وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم» أى أن الأنفة والكبرياء مقرونة بالإثم ، والإثم هو لمخالف للمأمور به من الحق سبحانه وتعالى ، « فحسبه جهنم ولبئس المهاد » . أى عزة هذه التى تقود فى النهاية إلى النار؟ إنها ليست عزة، ولكنها ذلة ، فلا خير فى عمل بعده النار ، ولاشر فى بعده الجنة . فإن أردت أن تكون عزيزاً فتأمل عاقبتك وإلى أين ستذهب؟

«فحسبه» أى يكفيه هذا فضيحة لعزته بالإثم ، وأما كلمة «مهاد» فمعناها شىء ممهد ومُوطأ ، أى مريح فى الجلوس والسير والإقامة . ولذلك يسمون فراش الطفل المهد. وهل المهاد بهذه الصورة يناسب العذاب؟نعم يناسبه تماماً ؛ لأن الذى يجلس فى المهاد لا إرادة له فى أن يخرج منه ، كالطفل فلا قوة له فى أن يغادر فراشة . إذن فهو قد فقد إرادته وسيطرته على إبعاضه . فإن كان المهاد بهذه الصورة فى النار فهو بئس المهاد هذا لون من الناس وفى المقابل يعطينا ـ سبحانه ـ لوناً آخر من الناس فيقول سبحانه :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧ ﴾

---

(١) القربوس هو الجزء المرتفع المقوس من السرج

والله سبحانه تعالى ساعة يستعمل كلمة « يشرى » يجب أن نلاحظ أنها من الأفعال التى تستخدم فى الشيء ومقابلة ، فـ «شرى» يعنى أيضا «باع» . إذن كلمة «شرى» لها معينان ، واقرأ إن شئت فى سورة يوسف قوله تعالى :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ [سورة يوسف]

أى باعوه بثمن رخيص . وتأتى أيضا بمعنى اشترى ، فالشاعر العربى القديم عنترة ابن شداد يقول : فخاض غمارها وشرى وباعا .

إذن «شرى» لغة ، تُسعمل فى معنيين : إما أن تكون بمعنى « باع » ، وإما أن تكون بمعنى « اشترى » ، والسياق والقرينة هما اللذان يحددان المعنى المقصود منها فقول عنترة : « شرى وباع » نفهم أن المقصود من «شرى» هنا هو « اشترى » لأنها مقابل « باع»، وقوله تعالى :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ [سورة يوسف]

يوضحة سياق الآية بأنهم باعوه . وهذا من عظمة اللغة العربية ، إنها لغة تريد أناساً يستقبلون اللفظ بعقل ، ويجعلون السياق يتحكم فى فهمهم للمعانى .

«ومن الناس من يشرى نفسه» ونفهم «يشرى» هنا بمعنى يبيع نفسه ، والذى يبيع نفسه هو الذى يفقدها بمقابل . والإنسان عندما يفقد نفسه فهو يضحى بها ، وعندها تكون التضحية ابتغاء مرضاة الله فهى الشهادة فى سبيله عز وجل ، كأنه باع نفسه وأخذ مقابلها مرضاة الله .

ومثل ذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ ﴾ [سورة التوبة]

إن الحق يعطيهم الجنة مقابل أنفسهم وأموالهم . إذن فقوله : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله » يعنى باع نفسه وأخذ الجنة مقابلاً لها ، هذا إذا كان معنى « يشرى » هو باع .

وماذا يكون المعنى إذا كانت بمعنى اشترى ؟ هنا نفهم أنه اشترى نفسه بمعنى أنه ضحى بكل شيء فى سبيل أن تَسلم نفسه الإيمانية . ومن العجب أن هذه الآية قيل فى سبب نزولها ما يؤكد أنها تحتمل المعنيين ، معنى « باع » ومعنى « اشترى » فها هو ذا أبو يحيى الذى هو صهيب بن سنان الرومى كان فى مكة ، وقد كبر سنه ، وأسلم وأراد أن يهاجر ، فقال له الكفار : لقد جئت مكة فقيراً وآويناك إلى جوارنا وأنت الآن ذو مال كثير ، وتريد أن تهاجر بمالك .

فقال لهم : إذا خليت بينكم وبين مالى أأنتم تاركونى ؟

قالوا : نعم .

قال : تضمنون لى راحلة ونفقة إلى أن أذهب إلى المدينة ؟

قالوا : لك هذا .

إنه قد شرى نفسه بهذا السلوك واستبقاها إيمانياً بثروته ، فلما ذهب إلى المدينة لقيه أبو بكر وعمر فقالا له : ربح البيع يا أبا يحيى .

قال : وأربح الله كل تجارتكم .

وقال له سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا أن جبريل أخبره بقصتك ، ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له : ربح البيع أبا يحيى . إذن معنى الآية وفق هذه القصة : أنه اشترى نفسه بماله ، وسياق الآية يتفق مع المعنى نفسه . وهذه من فوائد الأداء القرآنى حيث اللفظ الواحد يخدم معنيين متقابلين .

ولكن إذا كان المعنى أنه باعها فلذلك قصة أخرى ، ففى غزوة بدر ، وهى أول غزوة فى الإسلام ، وكان صناديد قريش قد جمعوا أنفسهم لمحاربة المسلمين فى هذه الغزوة ، وتمكن المسلمون من قتل بعض هؤلاء الصناديد ، وأسروا منهم كثيرين أيضاً، وكان ممَّنْ قتلوا فى هذه الغزوة واحد من صناديد قريش هو أبو عقبة الحارث

ابن عامر والذى قتله هو صحابي اسمه خبيب بن عدى الأنصارى الأوسى ، وهو من قبيلة الأوس بالمدينة ، وبعد ذلك مكر بعض الكفار فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ قالوا : يارسول الله ، إننا قد أسلمنا ، ونريد أن ترسل إلينا قوما ليعلمونا الإسلام. فأرسل لهم رسول الله ﷺ عشرة من أصحابه ليعلموهم القرآن ، فغدر الكافرون بهؤلاء العشرة فقتلوهم إلا خبيب بن عدى ، استطاع أن يفر بحياته ومعه صحابى آخر اسمه زيد بن الدَّثِنَة ، لكن خبيباً وقع فى الأسر وعرف الذين أسروه أنه هو الذى قتل أبا عقبة الحارث فَى غزوة بدر ، فباعوه لابن أبى عقبة ليقتله مقابل أبيه ، فلم يشأ أن يقتله وإنما صلبه حياً ، فلما تركه مصلوباً على الخشبة ، قال رسول الله ﷺ وهو فى المدينة : من ينزل خبيبا عن خشبته وله الجنة ؟

قال الزبير : أنا يارسول الله .

وقال المقداد : وأنا معه يارسول الله .

فذهبا إلى مكة فوجدا خبيباً على الخشبة وقد مات وحوله أربعون من قريش يحرسونه ، فانتهزا منهم غفلتهم وذهبا إلى الخشبة وانتزعا خبيباً وأخذاه ، فلما أفاق القوم لم يجدوا خبيباً فقاموا يتتبعون الأثر ليلحقوا بمن خطفوه ، فراهم الزبير ، فألقى خبيباً على الأرض ثم نظر إليه فإذا بالأرض تبتعله فسمى بليع الأرض . وبعد ذلك التفت إليهم ونزع عمامته التى كان يتخفى وراءها وقال : أنا الزبير بن العوام ، أمى صفية بنت عبد المطلب ، وصاحبى المقداد ، فإن شئتم فاضلتكم - يعنى يفاخر كل منهما بنفسه - وإن شئتم نازلتكم - يعنى قاتلتكم - وإن شئتم فانصرفوا ، فقالوا : نتصرف ، وانصرفوا ، فلما ذهب الزبير والمقداد إلى رسول الله ﷺ بشرهم بالجنة التى صار إليها خبيب .

إذن فقد باع خبيب نفسه بالجنة . وعلى ذلك فإن ذهبت بسبب نزول الآية إلى أبى يحيى صهيب بن سنان الرومى تكون «شرى» بمعنى اشترى ، وإن ذهبت بسبب النزول إلى خبيب فتكون بمعنى : باع . وهكذا نجد أن اللفظ الواحد فى القرآن الكريم يحتمل أكثر من واقع .

وخبيب بن عدى هذا قالت فيه ماويّة ابنة الرجل الذى اشتراه ليعطيه لعقبة ليقتله مقابل أبيه ، قالت : والله لقد رأيت خبيباً يأكل قطفاً من العنب كرأس الإنسان ! ووالله ما في مكة حائط ـ بستان ـ ولا عنب وإنما هو رزق ساقه الله له .

ولما جاءوا ليقتلوه قال : أنظرونى أصلّ ركعتين . فصلى ركعتين ونظر إلى القوم وقال : والله لولا أنى أخاف أن تقولوا إنه زاد فى الصلاة لكى نبطىء بقتله لزدت . وقال قبل أن يقتلوه : اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تبق منهم أحداً . ثم هتف وقال :

ولست أبالى حين أقتل مسلماً

على أى فى جنب كان فى الله مصرعى

وكان ذلك آخر ما قاله .

ويقول الحق : « والله رءوف بالعباد » وما العلاقة بين ما سبق وبين رءوف بالعباد ؟ ما دام الله رءوفاً بالعباد فلم يشأ الله أن يجعل ذلك أمراً كلياً فى كل مسلم، وإنما جعلها فلتات لتثبت صدق القضية الإيمانية ، لأنه لا يريد أن يضحى كل المسلمين بأنفسهم ، وإنما يريد أن يستبقى منا أناساً يحملون الدعوة .

وبعد أن عرض الحق سبحانه وتعالى أصناف الناس الذين يستقبلون الدعوة كفراً ونفاقاً ، ومَنْ يقابلهم ممن يستقبلونها إيماناً خالصاً ، نادى جميع المؤمنين فقال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾

تبدأ الآية بنداء الذين آمنوا بالله وكأنه يقول لهم : يا مَنْ آمنتم بى استمعوا

لحديثى . فلم يكلف اللـه من لم يؤمن به وإنما خـاطب الذين أحبـوه وامنوا به، وماداموا قد أحـبوا الله فلابد أن يتجه كل مؤمن إلى من يحـبه. لأن الله لن يعطيه إلا ما يسعده.

إذن فـالتكليف من الله إسـعادٌ لمـن أحب، «يا أيها الذين امـنوا ادخلوا فى السلم كافة»، وكلمة «فى» تُفيد الظرفية، ومعنى الظرفيـة أن شيئا يحتوى شيئا مثال ذلك الكـوب الذى يحتوى الماء فتقـول: «الماء فى الكـوب»، وكذلك المسجد يحـتوى المصلين فتقول: «المصلون فى المسجد».

والظرفية تدل على إحاطة الظرف بالمظروف، ومادام الظرف قد أحاط بالمظروف إذن فلا جهة يفلت منها المظروف من الظرف. ولذلك يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة التمكن من مسألة الظرفية عندما يقول:

﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾

(من الآية ٧١ سورة طه)

إن الصلب دائماً يكون على شيء ، وتشاء الآية الكريمة أن تشرح لنا كيف يمكن أن يكون الصلب متمكناً من المصلوب . فأنت إذا أردت أن تصلب شيئاً على شيء فأنت تربطه على المصلوب عليه ، فإذا ما بالغت فى ربطه كأنك أدخلت المصلوب داخل المصلوب عليه .

ومثال ذلك ، هات عود كبريت وضعه على إصبعك ثم اربطه بخيط ربطا جيداً ، ستلاحظ أن العود قد غاص فى جلدك . والحق يقول : « ادخلوا فى السلم كافة » والسِّلْم والسَّلْمُ والسَّلم هو الإسلام ، فالمادة كلها واحدة ؛ لأن السلم ضد الحرب ، والإسلام جاء لينهى الحرب بينك وبين الكون الذى تعيش فيه لصالحك ولصالح الكون ولتكون فى سلام مع الله وفى سلام مع الكون ، وفى سلام مع الناس . وفى سلام مع نفسك .

قوله : « ادخلوا فى السلم » معناه حتى يكتنفكم السلم . إن الله هو الإله الخالق

للكون ولابد أن تعيشوا في سلام معه ؛ لأنكم لا تؤمنون إلا به إلهاً واحداً . فيجب علينا أن نعيش مع الأرض والسماء والكون في سلام ؛ لأن الكون الخاضع المقهور المسخر الذي لا يملك أن يخرج عما رُسم له يعمل لخدمتك ولا يعاندك .

والإنسان حين يكون طائعاً يُسَرّ به كل شيء في الوجود ؛ لأن الوجود طائع ومُسبِّح ، فساعة يجد الإنسان مُسبِّحاً مثله يُسَرّ به لأنه في سلام مع الكون . وأنت في سلام مع نفسك ؛ لأن لك إرادة ، وهذه الإرادة قَهَرَ اللهُ لها كل جوارحك ، والذي تريده من أي عضو يفعله لك ، لكن هل يرضى أي عضو عمّا تأمره به ؟ تلك مسألة أخرى ، مثلا ، لسانك ينفعل بإرادتك ، فتقول به : « لا إله إلا الله » وقال به غيرنا من المشركين غير ذلك ، وأشركوا مع الله بشراً وغير بشر يعبدونهم . وقال الملحدون بألسنتهم والعياذ بالله : « لا إله في الكون » ولم يعص اللسان أحداً من هؤلاء لأنه مقهور لإرادتهم .

وتنتهي إرادة الإنسان على لسانه وعلى جميع جوارحه يوم القيامة فيشهد عليه كما تشهد عليه سائر أعضائه : الأرجل ، والأيدي ، والعيون ، والآذان ، وكل عضو يُقر بما كان يفعل به ، لأنه لا سيطرة للإنسان على تلك الأبعاض في هذا اليوم . إنما السيطرة كلها للخالق الأعلى .

« لمن المُلك اليوم لله الواحد القهار » . والحق حين ينادي المؤمنين بأن يدخلوا في السلم كافة فالمعنى يحتمل أيضا أن الحق سبحانه وتعالى يخاطب المسلمين ألا يأخذوا بعضاً من الدين ، ويتركوا البعض الآخر ، فيقول لهم : خذوا الإسلام كُله وطبقوه كاملاً ؛ لأن الإسلام يمثل بناء له أسس معلومة ، وقواعد واضحة ، فلا يحاول أحد أن يأخذ شيئاً من حكم بعيداً عن حكم آخر ، وإلا لحدث الخلل .

وعلى سبيل المثال قد تجد خلافاً بين الزوج والزوجة ، وقد يؤدي الخلاف إلى معارك وطلاق ، وبعد ذلك نجد من يتهم الإسلام بأنه أعطى الرجل سيفاً مسلطاً على المرأة . ونقول لهم : ولماذا تتهمون الإسلام ؟ هل دَخَلْتَ على الزواج بمنطق الإسلام ؟ . إن كنت قد دخلت على الزواج بمنطق الإسلام فستجد القواعد المنظمة

والتى تحفظ للمرأة كرامتها ، ولكن هناك مَنْ يدخل على الزواج بغير منطق الإسلام، فلما وقع فى الأزمة راح ينادى الإسلام . هل اختار الرجل مَنْ تشاركه حياته بمقياس الدين ؟ وهل وضع نُصب عينيه شروط اختيار الزوجة الصالحة التى جاءت فى الحديث الشريف :

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك »[1] .

هل فضّل الرجل ذات الدين على سواها ؟ أم فضّل مقياساً آخر ؟. وعندما جاء رجل ليخطب ابنة من أبيها هل وضع الأب مقاييس الإسلام فى الاعتبار عند موافقته على هذا الزواج ؟ هل فضلتم مَنْ ترضون دينه وخُلُقه ؟ أم تركتم تلك القواعد . أنت تركت قواعد الإسلام ، فلماذا تلوم الإسلام عند سوء النتائج والعواقب ؟.

إنك إن أردت أن تحاسب فلابد أن تأخذ كل أمورك بمقاييس الإسلام ، ثم تصرّف بما يناسب الإسلام . فإن كنت كذلك فالإسلام يحميك من كل شىء . فالإسلام يساند القُوَى فى الكون ويساند القُوَى فى النفس بحيث تعيش فى سلام ولا تتعاند ؛ لأن كل ذلك يقابله الحرب . والحرب إنما تنشأ من تعاند القوى ، فتتعاند قوى نفسك فى حرب مع نفسك ، وتتعاند قوى البشر فى حرب البشر مع البشر ، وتتعاند قواك مع قوى الكون الأخرى ، فأنت تعاند الطبيعة وتعاند مع الحق سبحانه وتعالى .

إذن، فالتعاند ينشأ منه الحرب ، والحرب لا تنشأ إلا إذا اختلفت الأهواء . وأهواء البشر لا يمكن أن تلتقى إلا عندما تكون محروسة بقيم مَنْ لا هوى له ، ولذلك يقول الله عز وجل :

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ .. (٧١) ﴾

(سورة المؤمنون)

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه .

لماذا ؟. دعك من الكون الأصم حولك ، أو دعك من الكون الذى لا اختيار له فى أن يفعل أو ينفعل لك ؛ فهو فاعل أو منفعل لك بدون اختيار منه ، ولكن انظر إلى البشر من جنسك ، فما الذى يجعل هوى إنسان يسيطر على أهواء غيره ؟.

ما الذى زاده ذلك الإنسان حتى تكون أنت تابعاً له ؟ أو يكون هو تابعاً لك ؟. وفى قانون التبعية لا يمكن إلا أن يكون التابع مؤمناً بأن المتبوع أعلى منه ، ولا يمكن لبشر أن توجد عنده هذه الفوقية أبداً . لذلك لابد للبشر جميعاً أن يكونوا تبعاً لقوة آمنوا بأنها فوقهم جميعاً . فحين نؤمن ندخل فى السلم ، ولا يوجد تعاند بين أى قوة وقوة أخرى ؛ لأنى لست خاضعاً لك ، وأنت لست خاضعا لى ، وأنا وأنت مسلمون لقوة أعلى منى ومنك ، ويُشترط فى القوة التى نتبعها طائعين ألا يكون لها مصلحة فيما تشرع .

إن المشرعين من البشر يراعون مصالحهم حين يشرعون ، فمشرع الشيوعية يضع تشريعه ضد الرأسمالية ، ومشرع الرأسمالية يضع تشريعه ضد الشيوعية ، لكن عندما يكون المشرع غير منتفع بما يشرع ، فهذا هو تشريع الحق سبحانه وتعالى .

وحين ندخل فى الإسلام ندخل جميعاً لا يشذ منا أحد ، ذلك معنى « ادخلوا فى السلم كافة » ، هذا معنى وارد ، وهناك معنى آخر وارد أيضا وهو ادخلوا فى السلم أى الإسلام بجميع تكاليفه بحيث لا تتركوا تكليفاً يشذ منكم .

وحين يأتى المعنى الأول فلأننا لو لم ندخل فى السلم جميعاً لشقى الذين يُسلمون بالذين لا يُسلمون ؛ لأن الذى يُسلم سيهذب سلوكه بالنسبة للآخرين ، ويكون نفع المسلم لسواه ، ويشقى المسلم بعدم إسلام من لم يسلم ، فمن مصلحتنا جميعاً أن نكون جميعاً مسلمين . والذين لا يدركون هذه الحقيقة يفسرون قول الله تعالى :

﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة المائدة)

على غير ظاهرها ، فمن ضِمْن هدايتكم أن تُبَصِّرُوا من لم يؤمن بأن يؤمن ؛ لأن

مصلحتكم أن تسلموا جميعاً ، فإذا أسلمت أنت فسيعود إسلامك على الغير ؛ لأن سلوكك سيصبح مستقيماً مهذباً ، والذى لم يسلم سيصبح سلوكه غير مستقيم وغير مهذب ، وستشقى أنت به . إذن فمن مصلحتك أن تقضى وقتاً طويلاً وتتحمل عناءً كبيراً فى أن تدعو غيرك ليدخل فى الإسلام . وإياك أن تقول : إن ذلك يضيع عليك فرص الحياة . لا إنه يضمن لك فرص الحياة ، ولن يضيع وقتك لأنك ستحمى نفسك من شرور غير المسلم .

واذكر جيداً أننا حين تكلمنا فى فاتحة الكتاب قلنا : إن الله يُعلمنا أن نقول : « إياك نعبد » فكلنا يارب نعبدك وسنسعد جميعنا بذلك ، واهدنا كلنا يارب ؛ لأنك إن هديتنى وحدى فسيستمتع غيرى بهدايتك لى ، وأنا سوف أشقى بضلاله . فمن مصلحتنا جميعاً أن نكون مهديين جميعاً .

هذا على معنى « ادخلوا فى السلم كافة » أى جميعا . أما معنى قوله تعالى: « لا يضركم من ضلَّ إذا اهتديتم » أى لا تتحملون أوزار ضلالهم إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر . أما المعنى الثانى فادخلوا فى الإسلام بحيث لا يشذ منكم أحد . ويأخذ شيئا وبعضا من الإسلام ويترك بعضا منه ، فأنت تريد أن تبنى حياتك . ورسول الله صلى الله عليه وسلم شرح أن للإسلام أسساً هى الأركان الخمسة ، وإياك أن تأخذ ثلاثة أركان وتترك ركنين ؛ لأن هندسة الإسلام مبنية على خمسة أركان .

وقد قال لى أحد المهندسين : إننا نستطيع أن ننشىء بنياناً على ثلاثة أركان أو على أربعة أو على خمسة . فقلت له : ولكن حين تجعل البنيان على أربعة أركان ، وتوزع الأحمال والأثقال على أربعة أسس ، هل يمكنك حين تُنشىء أن تجعلها ثلاثة أركان فقط ؟. قال : لا .

قلت : إذن فالبناء إنما يُنشأ من البداية على الأسس التى تريدها ، ولذلك فأنت توزع القوى على ثلاثة أو أربعة أو خمسة من البداية . والله سبحانه وتعالى شاء أن يجعل أسس الإسلام خمسة ، وبعد ذلك يُبْنَى الإسلام ، وحين يبنى الإسلام فإياك أن

تأخذ لبنة من الإسلام دون لبنة ، بل يُؤخذ الإسلام كله ، فالضرر الواقع فى العالم الإسلامى إنما هو ناتج من التلفيقات التى تحدث فى العالم المسلم . تلك التلفيقات التى تحاول أن تأخذ بعضاً من الإسلام وتترك بعضا ، وهذا هو السبب فى التعب والضرر ؛ لأن الإسلام لابد أن يؤخذ كله مرة واحدة . إذن « ادخلوا فى السلم كافة » يعنى إياكم أن تتركوا حكماً من الأحكام . إن الذى يتعب المنتسبين إلى الدين الآن أننا نريد أن نلفق حياة إسلامية فى بلاد تأخذ قوانينها من بلاد غير إسلامية .

إذن حتى ننجح فى حياتنا ، فلابد أن نأخذ الإسلام كله . وللأسف فإن كثيراً من حكام البلاد المسلمة لا يأخذون من الإسلام إلا آخر قول الله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » إنهم يأخذون « أولى الأمر منكم » ويتركون « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » .

وأقول : لماذا تأخذون الأخيرة وتتركون ما قبلها ؟ إن الله لم يجعل لولى الأمر طاعة مستقلة بل قال : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر » ليدل على أن طاعة ولى الأمر من باطن طاعة الله وطاعة الرسول . فنحن لا نريد تلفيقاً فى الإسلام ، خذوه كاملاً ، تستريحوا أنتم ونستريح نحن معكم .

إن الحق سبحانه وتعالى يريد بدعوتنا إلى دخول الإسلام أن يعصم الناس من فتنة اختلاف أهوائهم فخفف ورفع عن خلقه ما يمكن أن يختلفوا فيه ، وتركهم أحراراً فى أن يزاولوا مهمة استنباط أسرار الله فى وجوده بالعلم التجريبى كما يحبون ، فإن أرادوا رقياً فليُعْمِلُوا عقولهم المخلوقة لله ؛ فى الكون المخلوق لله ، بالطاقة المخلوقة لله ؛ ليسعدوا أنفسهم ويدفعوها إلى الرقى ، وإن انتهى أحد منهم إلى قضية كونية ، واكتشف سراً من الأسرار فى الكون فهو لن يقدم للناس جديداً فى المنهج ، وسيأخذ الناس هذا الجديد ولا يعارضونه .

إذن فمن الممكن أن يستنبط العلماء بعضاً من أسرار قضايا الكون المادية بوساطة العلم التجريبى ، وهى أمور سيتفق عليها الناس ، ولكن البشر يمكن أن يختلفوا فى الأمور النابعة من أهوائهم ؛ لأن لكل واحد هوى ، وكل واحد يريد أن يتبع هواه

ولا يتبع هوى الآخرين ، والحق سبحانه يريد أن يعصمنا من الأهواء لذلك قال لنا : « ادخلوا فى السلم كافة » أى ادخلوا فى كل صور الإسلام ، حتى لا يأتى تناقض الأهواء فى المجتمع .

وكن أيها المؤمن فى سلم مع نفسك فلا يتناقض لسانك مع ما فى قلبك ، فلا تكن مؤمن اللسان كافر القلب . كن منسجماً مع نفسك حتى لا تعانى من صراع الملكات . وأيضاً كن داخلاً فى السلام مع الكون الذى تعيش فيه ، مع السماء ، مع الأرض ، مع الحيوان ، مع النبات . كن فى سلم مع كل تلك المخلوقات لأنها مخلوقة مسخرة طائعة لله ، فلا تشذ أنت لتغضبها وتُحفِظها عليك .

كن منسجماً مع الزمن أيضاً ؛ لأن الزمن الذى يحدث فيه منك ما يخالف منهج الله سيلعنك هو والمكان ، وإذا أردت أن تشيع سلامك فى الكون فعليك كما علمك الرسول صلى الله عليه وسلم أن تسالم كل الكون ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يشيع السلام فى الزمان والمكان ، وعلى سبيل المثال كان صلى الله عليه وسلم أكثر الناس صياماً فى شعبان ، ولما سأله الصحابة عن هذا أخبرهم أن شعبان شهر يهمله الناس لأنه بين رجب ، ـ وهو من الأشهر الحرم الأربعة ـ وبين رمضان، فأحب أن يحيى ذلك الشهر الذى يغفل عنه الناس ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يسعد الزمان بأن يشيع فيه لوناً من العبادة فلا يجعله أقل من الأزمنة الأخرى .

كذلك الأمكنة تريد أن تسعد بك ، فكل الأماكن تسعد بذكر الله فيها . والحق ـ سبحانه ـ بعد أن أمرنا جميعاً بالدخول فى السلم بافعل ولا تفعل ، حذرنا من اتباع الشيطان لأنه هو الذى يعمل على إبعادنا عن منهج الله ، فقال جل شأنه :

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٠٨) ﴾

(سورة البقرة)

ولماذا لا نتبع خطوات الشيطان ؟ لأن عداوته للإنسان عداوة مسبقة ، ووقف من

آدم هذا الموقف ، وبعد ذلك أقسم بعزة الله أن يغويكم جميعاً ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد حكى لنا القصة فكأنه أعطانا المناعة ، أى أن الشيطان لم يفاجئنا. وإنما وضع الحق أمامنا قصة الشيطان مع آدم واضحة جلية ليعطينا المناعة ، بدليل أننا حين نريد أن نصون أجسامنا نجعل لأنفسنا مناعة قبل أن يأتى المرض ، نُطعم أنفسنا ضد شلل الأطفال ، وضد الكوليرا ، وضد كذا ، وكذا ، فكأن الله سبحانه وتعالى يذكر قصة الشيطان مع أبينا آدم ليقول لنا : لاحظوا أن عداوته مسبقة .

وما دام له معكم عداوة مسبقة فلن يأخذكم على غرة ؛ لأن الله نبهكم لتلك المسألة مع الخلق الأول . والشيطان عندما يُذكر فى القرآن يراد به مرة عاصى الجن ، لأن طائع الجن مثل طائع البشر تماماً ، ومرة يريد به شياطين الإنس. إذن من الجن شياطين ، ومن الإنس شياطين .

وحتى تستطيع أن تفرق بين ما يزينه الشيطان وبين ما تزينه لك نفسك ، فإن رأيت نفسك مصراً على معصية من لون واحد فاعلم أن السبب هو نفسك ، لأن النفس تريدك عاصياً من لون يشبع نقصاً فيها فهى تصر عليه : إنسان يحب المال فتتسلط عليه نفسه من جهة المال ، وإنسان آخر يحب الجنس فتتسلط عليه نفسه من جهة النساء ، وثالث يحب الفخر والمديح فتتسلط عليه نفسه من جهة مَنْ ينافقه . لكن الشيطان لا يصر على معصية بعينها ، فإن رآك قد امتنعت عن معصية فهو يزين لك معصية أخرى ؛ لأنه يريدك عاصياً على أية جهة .

والحق يحذرنا « ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين » . وليس هناك عداوة أوضح من عداوة الشيطان بعد أن وقف من آدم وقال ما أورده الحق على لسانه :

﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾

(سورة ص)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾

والزّلة هي المعصية ، وهي مأخوذة من « زال » ، وزال الشيء أي خرج عن استقامته ، فكأن كل شيء له استقامة ، والخروج عنه يعتبر زللا ، والزلل : هو الذنوب والمعاصي التي تخالف بها المنهج المستقيم .

« من بعد ما جاءتكم البينات » إنه سبحانه يوضح لنا أنه لا عذر لكم مطلقا في أن تزلوا ؛ لأنني بينت لكم كل شيء ، ولم أترككم إلى عقولكم ، ومن المنطقي أن تستعملوا عقولكم استعمالا صحيحا لتديروا حركة الكون الذي استخلفتكم فيه ، ومع ذلك ، إن أصابتكم الغفلة فأنا أرسل الرسل . ولذلك قال سبحانه :

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

لقد رحم الله الخلق بإرسال الرسل ليبينوا للإنسان الطريق الصحيح من الطريق المعوج . والحق سبحانه وتعالى يترك بعض الأشياء للبشر ليأتوا بفكر من عندهم ثم يرتضى الإسلام ما جاءوا به ليعلمنا أن العقل إذا ما كان طبيعيا ومنطقيا فهو قادر على أن يهتدي إلى الحكم بذاته . وفي تاريخ الإسلام نجد أن سيدنا عمر قد رأى أشياء واقترح بعضا من الاقتراحات ، ووافق عليها الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم ينزل القرآن على وفق ما قال عمر ، وقد يتساءل أحد قائلا : ألم يكن النبي صلى الله عليه وسلم أولى ؟

نقول : لو كانت تلك الآراء قد جاءت من النبي صلى الله عليه وسلم لما كان فيها غرابة ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم معصوم ويوحى إليه ، لكن الله يريد أن يقول

لنا : إن العقل الفطرى عندما يصفو فهو يستطيع أن يهتدى للحكم الصحيح ، وإن لم يكن هناك حكم قد نزل من السماء . ولذلك تستفز أحكام سيدنا عمر عدداً كبيراً من المستشرقين ويقولون : أليس عندكم سوى عمر ؟ لماذا لا تقولون محمدا ؟

نقول لهم : لقد تربى عمر فى مدرسة النبى صلى الله عليه وسلم ، فما يقوله هو ، إنما قد أخذه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد أقر عمر بذلك وقال : « ما عمر لولا الإسلام » ، ونحن نستشهد بعمر لأنه بشر وليس رسولاً ، ويسرى عليه ما يسرى على البشر ، فلا يوحى إليه ولم يكن معصوما .

إذن كان الحق أراد أن يُقَرِّب لنا القدرة على الاستنباط والفهم فنكون جميعا عمر ؛ لأن عمر بالفطرة كان يهتدى إلى الصواب ، ويقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « نفعل كذا » ، فينزل الوحى موافقا لرأيه ، فكأن الله لم يكلفنا شططا ، إنما جاء تكليفه ليحمى العقول من أهواء النفس التى تطمس العقول ، فآفة الرأى الهوى ، ولولا وجود الأهواء لكانت الآراء كلها متفقة .

وقديما أعطوا لنا مثلا بالمرأة التى جمعت الصيف والشتاء فى ليلة واحدة ، فقد زوجت ابنها وابنتها ، وعاش الأربعة معها فى حجرة واحدة ، ابنها معه زوجته ، وابنتها معها زوجها ، والمرأة معهم ، تنام نوما قليلا وتذهب لابنتها توصيها : « دفئى زوجك وأرضيه » فالجو بارد ، وتذهب لابنها وتقول : « ابعد عن زوجتك فالدنيا حر » .

إن المكان واحد ، والليل واحد ، لكن المرأة جعلته صيفاً وشتاء فى وقت واحد والسبب هو هوى النفس . والله ـ سبحانه ـ يبيِّن لنا ذلك فى قوله :

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾

(من الآية ٧١ سورة المؤمنون)

إذن فالحق سبحانه وتعالى يعصمنا حين يُشرع لنا ، فالبشر يضيقون ذرعا بتقنينات أنفسهم لأنفسهم ، فيحاولون أن يخففوا من خطأ التقنين البشرى ، فيقننوا أشياء

يعدلون بها ما عندهم ، ولو نظرت إلى ما عدلوه من قوانين لوجدته تعديلا يلتقى مع الإسلام أو يقترب من الإسلام .

لقد سألونى فى أمريكا : لماذا لم يظهر الإسلام فوق كل العقائد برغم أنكم تقولون : إن الله يقول فى كتابه : « ليظهره على الدين كله » . ومع ذلك لم يظهر دينكم على كل الأديان ، ولم يزل كثير من الناس غير مسلمين سواء كانوا يهودا أو نصارى أو بلا دين ؟

قلت : لو فطنتم إلى قول الله : « ولو كره الكافرون » و« ولو كره المشركون » لدلكم ذلك على أن ظهور الإسلام قد تم مع وجود كفار ، وظهوره مع وجود مشركين ، وإلا لو ظهر ولا شيء معه فممن يُكرَه ؟ إن العقيدة التى يكرهها أهل الكفر هى التى تعزز وجود الإسلام . إذن « ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » يدل على أن ظهور الإسلام يعنى وجود كافر ووجود مشرك كلاهما سيكون موجودا وسيكرهان انتشار الدين .

وعندما نرى أحداث الحياة تضطر البلاد الغربية عندما يجدون خطأ تقنينهم فيحاولون أن يعدلوا فى التقنينات فلا يجدون تعديلا إلا أن يذهبوا إلى أحكام الإسلام ، لكنهم لم يذهبوا إليه كدين إنما ذهبوا إليه كنظام ، إن رجوعهم إلى الإسلام لدليل وتأكيد على صحة وسلامة أحكام الإسلام ، لأنهم لو أخذوا تلك الأحكام كأحكام دين لقال غيرهم : قوم تعصبوا لدين آمنوا به فنفذوا أحكامه . ولكنهم برغم كرههم للدين، اضطروا لأن يأخذوا بتعاليمه ، فكأنه لا حل عندهم إلا الأخذ بما ذهب إليه الإسلام .

إذن قول الله : « ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » قوة لنظام الإسلام ، لا لتؤمن به وإنما تضطر أن تلجأ إليه ، وكانوا فى إيطاليا ـ على سبيل المثال ـ يعيبون على الإسلام الطلاق ويعتبرونه انتقاصا لحقوق المرأة ، ولكن ظروف الحياة والمشكلات الأسرية اضطرتهم لإباحة الطلاق ، فهل قننوه لأن الإسلام قال به ؟ لا ، ولكن لأنهم وجدوا أن حل مشكلاتهم لا يأتى إلا منه .

وفى أمريكا عندما شنوا حملة شعواء على تناول الخمور ، هل حاربوها لأن الإسلام حرمها ؟ لا ، ولكن لأن واقع الحياة الصحية طلب منهم ذلك . إذن « ولو كره الكافرون » ، « ولو كره المشركون » : معناهما أنهم سيلجأون إلى نظام الإسلام ليحل قضاياهم . فإن لم يأخذوه كدين فسوف يأخذونه نظاما .

« فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم » أى إياكم أن تظنوا أنكم بزللكم أخذتم حظوظ أنفسكم من الله ، فإن مرجعكم إلى الله وهو عزيز وعزته سبحانه هى أنه يَغلب ولا يُغلب ، فهو يدبر أمورنا برحمة وحكمة . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾

أى ماذا ينتظرون ؟ هل ينتظرون أن تداهمهم الأمور ويجدوا أنفسهم فى كون وإن أخذ زخرفه فهو يتحول إلى هشيم تذروه الرياح ، ويصير الإنسان أمام لحظة الحساب .

وقوله : « هل ينظرون » مأخوذة من النظر . والنظر هو طلب الإدراك لشىء مطلق . وطلب الإدراك لأى شىء بأى شىء يُسمى نظرا . ومثال ذلك أننا نقول لأى إنسان يتكلم فى أى مسألة معنوية : أليس عندك نظر ؟ أى هل تملك قوة الإدراك أم لا ؟

إذن فالنظر هو طلب الإدراك للشىء ، فإن طلبت أن ترى فهو النظر بالعين ، وإن طلبت أن تعرف وتعلم ؛ فهو النظر بالفكر وبالقلب . وأحيانا يُطلق النظر على الانتظار ، وهو طلب إدراك ما يتوقع .

«هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله» ، يعنى هل ينتظرون إلا أن تأتيهم الساعة وتفاجئهم فى الزمن الخاص ؟ لأنها لن تفاجىء أحدا فى الزمن العام ، فسوف يكون لها آيات صغرى وآيات كبرى ، ومعنى أن لها آيات صغرى وكبرى ، أن ذلك دليل على أن الله يمهلنا لنتدارك أنفسنا ، فلايزال فاتحا لباب التوبة ما لم تطلع الشمس من مغربها .

وساعة نسمع قوله تعالى : «هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله» نقول : ما الذى يؤجل دخولهم فى الإسلام كافة ؟ ما الذى ينتظرونه ؟ تماما كأن تقول لشخص أمامك : ماذا تنتظر ؟ كذلك الحق يحثنا على الدخول فى السلم كافة وإلا فماذا تنتظرون ؟

«إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة» ساعة تقول : «يأتيهم الله» أو «جاء ربك» أو يأتى سبحانه بمثل فى القرآن مما نعرفه فى المخلوقين من الإتيان والمجىء وكالوجه واليد ، فلتأخذه فى إطار «ليس كمثله شىء» فالله موجود وأنت موجود ، فهل وجودك كوجوده ؟ لا .

إن الله حى وأنت حى ، أحياتك كحياته ؟ لا . والله سميع وأنت سميع ، أسمعك كسمعه ؟ لا . والله بصير وأنت بصير ، أبصرك كبصره ؟ لا . وما دمت تعتقد أن له صفات مثلها فيك ، فلتأخذها بالنسبة لله فى إطار «ليس كمثله شىء» .

والذين يفسرون المقصود بوجه الله أنه ذاته ، وبيده يعنى قدرته ، و«يد الله فوق أيديهم» ، يعنى قدرته فوق قدرتهم . نقول لهم : لماذا هذه التفسيرات ؟ إننا لو أخذناه كما قال الحق عن نفسه ولكن فى إطار «ليس كمثله شىء» نكون قد سلمنا من الخطأ . . لاشبهناه بخلقه ، ولا عطلنا نصّا عن معناه .

ولذلك يقول المحققون : إنك تؤمن بالله كما أعطاك صورة الإيمان به لكن فى إطار لا يختلف عنه عمّا فى أنه «ليس كمثله شىء» ، وإن أمكن أن تتصور أى شىء فربك على خلاف ما تتصور ، لأن ما خطر ببالك فإن الله سبحانه على خلاف ذلك ،

فبال الإنسان لا يخطر عليه إلا الصور المعلومة له ، ومادامت صورا معلومة فهى فى خلق الله وهو سبحانه لا يشبه خلقه .

إن ساعة يتجلى الحق ، سيفاجىء الذين تصوروا الله على أية صورة ، أنه سبحانه على غير ما تصوروا وسيأتيهم الله بحقيقة لم تكن فى رءوسهم أبداً ؛ لأنه لو كانت صورة الحق فى بال البشر لكان معنى ذلك أنهم أصبحوا قادرين على تصوره ، وهو القادر لا ينقلب مقدوراً عليه أبداً ، ومن عظمته أن العقل لا يستطيع أن يتصوره مادياً . ولذلك ضرب الله لنا مثلاً يقرّب لنا المسألة ، فقال :

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

إن الروح الموجودة فى مملكة جسمنا والتى إذا خرجت من إنسان صار جيفة ، وعاد بعد ذلك إلى عناصر تتحلل وأبخرة تتصاعد ، هذه الروح التى فى داخل كل منا لم يستطع أحد تصورها ، أو تحديد مكانها أو شكلها ، هذه الروح المخلوقة لله لم نستطع أن نتصورها ، فكيف نستطيع أن نتصور الخالق الأعظم ؟

« هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله » يعنى بما لم يكن فى حسبانهم . هل ينتظرون حتى يروا ذلك الكون المنسق البديع قد انتثر ، والكون كله تبعثر ، والشمس كورت ، والنجوم انكدرت ، وكل شىء فى الوجود تغير ، وبعد ذلك يفاجأون بأنهم أمام ربهم . فماذا ينتظرون ؟ .

إذن يجب أن ينتهزوا الفرصة قبل أن يأتى ذلك الأمر ، وقبل أن تفلت الفرصة من أيديهم وينُهى أمد رجوعهم إلى الله . لماذا يسوفون فى أن يدخلوا فى السلم كافة ؟ ما الذى ينتظرونه ؟ أينتظرون أن يتغير الله ؟ أو أن يتغير منهج الله ؟ إن ذلك لن يحدث .

ونؤكد مرة أخرى أننا عندما نسمع شيئاً يتعلق بالحق فيما يكون مثله فى البشر فلنأخذه فى إطار « ليس كمثله شىء » . فكما أنك آمنت بأن لله ذاتاً لا كالذوات ،

فيجب أن تعلم أن لله صفات ليست كالصفات ، وأن لله أفعالاً ليست كالأفعال ، فلا تجعل ذات الله مخالفة لذوات الناس ؛ ثم تأتى فى الصفات التى قال الله فيها عن نفسه وتجعلها مثل صفات الناس ، فإذا كان الله يجىء ؛ فلا تتصور مجيئه أنه سيترك مكاناً إلى مكان ، فهو سبحانه يكون فى مكان بما لا يخلو عنه مكان ، تلك هى العظمة .

فإذا قيل : « إلا أن يأتيهم الله » فلا تظن أن إتيانه كإتيانك ؛ لأن ذاته ليست كذاتك ، ولأن الناس فى اختلاف درجاتهم تختلف أفعالهم ، فإذا كان الناس يختلفون فى الأفعال باختلاف منازلهم ، وفى الصفات باختلاف منازلهم ، فالحق منزه عن كل شىء وكل تصور ، ولنأخذ كل شىء يتعلق به فى إطار « ليس كمثله شىء » ؛ ففعل ربك يختلف عن فعلك . وإياك أن تُخضع فعله لقانون فعلك ، لأن فعلك يحتاج إلى علاج وإلى زمن يختلف باختلاف طاقتك وباختلاف قدرتك ، والله لا يفعل الأشياء بعلاج بحيث تأخذ منه زمناً ولكنه يقول : « كن فيكون » .

كأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا صورة عن الإنجاز الذى لا دخل لاختيار البشر فى أن يخالفوا فيه فيقول : ساعة يجىء الأمر انخلعت كل قدرة لمخلوق عن ذلك الأمر وأصبح الأمر لله وحده .

و« فى ظلل من الغمام » . فيه شىء يظلك وفيه شىء تستظل به ، والشىء الذى يظللك لا يكون لك ولاية عليه فى أن يظلك إلاّ أن ترى أين ظله وتذهب إليه ، وشىء آخر تستطيع أنت التصرف فيه كالمظلة تفتحها فى أى مكان تريد . وكلمة « ظلل » معناها أنها تستر عنك مصدر الضوء ؛ ولذلك حينما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يصور لنا ذلك قال :

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُاْ اللَّهَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة لقمان)

أى جاءهم الفزع الأكبر كالظلة محيطاً بهم ، فكأن الله يريد أن يخبرنا أن الكون سيندثر كله وسيأتيك الأمر المفزع ، الأمر المفجع ، والمؤمن كان يتوقعه ، وسيدخل

عليه برداً وسلاماً ؛ لأنه ما آمن من أجله ، لكن الكافر سيصاب بالفزع الأكبر ؛ لأنه فوجيء بشيء لم يكن فى حسابه .

وقارن بين مجيء الأمر لمن يؤمله ، وبين مجيء الأمر لمن لا يؤمله . إن الحق سبحانه وتعالى قال : ساعة تجيء هذه الظلل والملائكة فقد قضى الأمر . وعندما تسمع « قضى الأمر » فاعلم أن المراد أن الفرصة أفلتت من أيدى الناس ، فمن لم يرجع إلى ربه قبل الآن فليست له فرصة أن يرجع . ومثال ذلك ما قاله الحق فى قصة نوح :

﴿ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة هود)

أى انتهى كل شيء ، ولم يعد للناس قدرة على أن يرجعوا عما كانوا فيه.فالله يقول : ماذا تنتظرون ؟ هل تنتظرون حتى يأتيكم هذا اليوم ؟ لابد أن تنتهزوا الفرصة لترجعوا إلى ربكم قبل أن تفلت منكم فرصة العودة . «وإلى الله تَرجع الأمور » ، ومرة تأتى « وإلى الله تُرجع الأمور » .

وفيه فرق بين « تَرجع الأمور » بفتح التاء وبين « تُرجع الأمور » بضم التاء . فكأن الأمور مندفعة بذاتها ، ومرة تساق إلى الله . إن الراغب سيرجع إلى ربه بنفسه ؛ لأنه ذاهب إلى الخير الذى ينتظره ، أما غير الراغب والذى كان لا يرجو لقاء ربه فَسَيُرجَع بالرغم عنه ، تأتى قوة أخرى تُرجعه ، فمن لم يجيء رغباً يأتى رهباً . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ ﴾

فكأن الله لم يحمل على بنى إسرائيل ويريد منهم أن يقروا على أنفسهم بما أكرمهم به الله من خير سابق ؛ فساعة تقول : « اسأل فلاناً عما فعلته معه » ، كأنك لا تأمر بالسؤال إلا عن ثقة ، وأنه لن يجد جواباً إلا ما يؤيد قولك . والحق يبلغ رسوله صلى الله عليه وسلم أن يسأل بنى إسرائيل عن الخير السابق الذى غمرهم به وهو سبحانه عليم أنهم لن يستطيعوا مع لددهم أن يتكلموا إلا بما يوافق القضية التى يقولها الحق وتصبح حجة عليهم .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « سل بنى إسرائيل كم آتيناهم » ساعة تسمع « كم » فى مقام كهذا فافهم أنها كناية عن الإخبار عن الأمر الكثير بخلافِ « كم » التى تريد بها الاستفهام . وأنت تقول : « كم فعلت كذا مع فلان » و« كم صنعت معه معروفاً » و« كم تهاونت معه » و« كم أكرمته » . لذلك فعندما تسمع « كم » هذه فاعرف أن معناها الكمية الكثيرة التى يُكنى بها على أن عددها لا يحصى .

« سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة » إن الحق يريد أن يضرب لنا مثلاً كمثل إنسان يأكل خيرك وينكر معروفك ، ويشكوك إلى إنسان ، فترد أنت لم ينقل لك الشكوى : سله ماذا قدمت له من جميل ، أنا لن أتكلم بل سأجعله هو يتكلم . وأنت لا تقول ذلك إلا وأنت على ثقة من أنه لا يستطيع أن يغير شيئاً .

ألم يفلق لهم البحر ؟ . ألم يجعل عصا موسى حية ؟ ألم يظللهم الله بالغمام ؟ ألم يعطهم الله المنّ والسلوى ؟ كل ذلك أعطاه الله لهم ؛ فلم يشكروا نعمة الله ، فحل عليهم غضبه ؛ أخذهم بالسنين والجوع وأخذهم بالقمل والضفادع والدم ، كل ذلك فعله الله معهم . . وحين يقول الحق لرسوله : « سل بنى إسرائيل » فالقول منسحب على أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإذا جاءك واحد منهم فاسأله : كم آية أعطاها الله لكم فأنكرتموها ، وتلكأتم ، وتعنتم . « كم آتيناهم من آية بينة » إن « كم » تدل على الكمية الكبيرة ، و« من آية » : معناها الأمر العجيب . و« بينة » تعنى الأمر الواضح الذى لا يمكن أن يغفل عنه أحد .

« سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ، ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته

فإن الله شديد العقاب » . وكيف يبدل الإنسان نعمة الله ؟ . إن نعمة الله حين تصيب خلقاً فالواجب عليهم أن يستقبلوها بالشكران ، ومعنى الشكران هو نسبتها إلى واهبها والاستحياء أن يعصوا من أنعم عليهم بها . فإذا استقبل الناس النعمة بغير ذلك فقد بُدّلت . ولذلك يقول الحق في آية أخرى : « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً » وما داموا قد بدلوها كفراً ، فيكون الكفر هو الذي جاء مكان الإيمان . إذن كان المطلوب أن يقابلوا النعمة بالإيمان ، بالازدياد في التقرب إلى الله ، لكنهم بدلوا النعمة بالكفر .

« ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب » قد نفهم أن معنى « شديد العقاب » هو أمر يتعلق بالآخرة ، ولعل أناساً يستبطئون الآخرة ، أو أناساً غير مؤمنين بالآخرة ، فلو كان الأمر بالعقاب يقتصر على عقاب الآخرة لشقي الناس بمن لا يؤمنون بالآخرة . . أو يستبطئونها لأن هؤلاء يعيثون في الأرض فساداً ؛ لأنهم لا يخافون الآخرة ولا يؤمنون بها ، أو أنها لا تخطر ببالهم .

فالذي يؤمن بأن هناك آخرة تأتي وسيكون فيها حساب ، هو الذي سيكون سلوكه على مقتضى ذلك الإيمان . أما الذي لا يؤمن أن هناك يوماً آخر فالدنيا تشقى به . فإذا لم يعجل الله بلون من العقوبة للذين لا يؤمنون بالآخرة أو الذين يستبطئون الآخرة لشقي الناس بهؤلاء الذين لا يؤمنون أو يستبطئون .

وكل جماعة لا تقبل على منهج الله ، ويبدلون نعمة الله كفراً لابد أن يكون لله فيهم عقاب عاجل ، وذلك ليعلم الناس أن من لم يرتدع إيماناً وخوفاً من اليوم الآخر فعليه أن يرتدع مخافة أن يأتيه العقاب في الدنيا . فالظالم إذا علم أن ظالماً مثله لقي عقابه وحسابه في الدنيا فسيخاف أن يظلم ؛ وإن لم يكن مؤمناً بالآخرة ، لأنه سيتأكد أن الحساب واقع لا محالة . ولذلك لا يؤجل الله العقاب كله إلى الآخرة ولكن ينزل بعضا منه في الدنيا . ويقول الحق في الذين يبدلون نعمة الله كفراً :

﴿ وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

هذه عقوبة الآخرة،ولن يتركهم الله فى الدنيا دون أن ينالهم العقاب .

وحتى الذين يظلمون ويتعسفون مع أنهم مسلمون لا يتركهم الله بلا عقاب فى الدنيا حتى يأتيهم يوم القيامة بل لابد أن يجىء لهم من واقع دنياهم ما يخيف الناس من هذه الخواتيم حتى تستقيم حركة الحياة بين الناس جميعا ، وإلا فسيكون الشقاء واقعا على الناس من هؤلاء ومن الذين لا يؤمنون بعقاب الآخرة .

وكان بعض الصالحين يقول : « اللهم إن القوم قد استبطأوا آخرتك وغرهم حلمك فخذهم أخذ عزيز مقتدر » ؛ لأنه سبحانه لو ترك عقابهم للآخرة لفسدوا وكانوا فتنة لغيرهم من المؤمنين . ولذلك شاء الله أن يجعل فى منهج الإيمان تجريماً وعقوبة تقع فى الدنيا ، لماذا ؟ حتى لا يستشرى فساد من يشك فى أمر الآخرة . وشدة عقاب الله لا يجعلها فى الآخرة فقط ، بل جعلها فى الدنيا أيضا ؛ ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة طه)

ثم يقول سبحانه وتعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يبين واقع الإنسان فى الكون ، هذا الواقع الذى يدل

على أنه سيد ذلك الكون ، ومعنى ذلك أن كل الأجناس تخدمه . وقد عرفنا أن الجماد يخدم النبات ، والجماد والنبات يخدمان الحيوان ، والجماد والنبات والحيوان تخدم الإنسان ، فالإنسان سيد هذه الأجناس .

وكان مقتضى العقل أن يبحث هذا السيد عن جنس أعلى منه ، فكما كانت الأجناس التى دونه فى خدمته ، فلابد أن يكون هذا الجنس الأعلى يناسب سيادته ، ولن يجد شيئا فى الوجود أبدا أعلى من الجنس الذى ينتسب إليه ، لذلك كان المفروض أن يقول الإنسان : أنا أريد جنسا ينبهنى عن نفسى ؛ فأنا فى أشد الاحتياج إليه . فإذا جاء الرسل وقالوا : إن الذى أعلى منك أيها الإنسان هو الله وليس كمثله شىء وتعالى عن كل الأجناس . كان يجب على الإنسان أن يقول : مرحبا ؛ لأن معرفة الله تحل له اللغز . والرسل إنما جاءوا ليحلوا للإنسان لغزاً يبحث عنه ، وكان على الإنسان أن يفرح بمجىء الرسل ، وخصوصاً أن الله عز وجل لا يريد خدمة منه ، إن الإنسان هو الذى يحتاج لعبادة الله ليسخر له الكائنات ، ويعبده ليعزه . إذن فالمؤمن بين أمرين : بين خادم له مسخر وهو من دونه من الجماد والنبات والحيوان ، ومعطٍ متفضلٍ عليه مُختارٍ وهوَ أعلى منه . إنه هو الله .

فمن يأخذ واحدة ويترك واحدة فقد أخذ الأدنى وترك الأعلى ، فيقول له الحق : خذ الأعلى . فإذا كنت سعيداً بعطاء المخلوقات الأدنى منك ، وتحب أن تستزيد منها فكيف لا تستزيد ممن هو أعلى منك ؟ . إنه الله .

والحق عندما يقول : « زين للذين كفروا الحياة الدنيا » فهو يريد أن يلفتنا إلى أن مقاييس الكافرين مقاييس هابطة نازلة ؛ لأن الذى زُين لهم هو الأمر الأدنى . ومن خيبة التقدير أن يأخذ الإنسان الأمر الأدنى ويفضله على الأعلى . وكلمة « زُيِّن » عندما تأتى فى القرآن تكون مبنية لما لم يسم فاعله مثل قوله تعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَٰتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَـٰطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴾

(من الآية ١٤ سورة آل عمران)

هناك « زين للناس » وفى آية البقرة التى نحن بصددها « زين للذين كفروا » لماذا قال الحق هناك : « زين للناس » ولماذا قال هنا : « زين للذين كفروا » ؟ لقد قال الحق ذلك لأن الذين كفروا ليس عندهم إلا الحياة الدنيا ، فالأعلى لا يؤمنون به ، ولكن فى مسألة الناس عامة عندما يقول الله عز وجل : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » فهو سبحانه يقول للناس : خذوا الحياة على قدرها.وزُينت يعنى حُسنت . فمن الذى حسنها ؟ لقد حسنها الله عز وجل . فكيف تنسى الذى حسنها لك ، وجعلها جميلة وجعلها تحت تصرفك ؟

كان يجب أن تأخذها وسيلة للإيمان بمن رزقك إياها ، وكلما ترى شيئا جميلا فى الوجود تقول : « سبحان الله » ، وتزداد إيمانا بالله ، أما أن تأخذ المسألة وتعزلها عمن خلقها فذلك هو المقياس النازل .

أو أن الله سبحانه وتعالى هو الذى زينها بأن جعل فى الناس غرائز تميل إلى ما تعطيه هذه الحياة الدنيا ، ونقول : هل أعطى سبحانه الغرائز ولم يعط منهجا لتعلية هذه الغرائز ؟ لا ، لقد أعطى الغرائز وأعطى المنهج لتعلية الغرائز ، فلا تأخذ هذه وتترك تلك. ولذلك يقول الحق :

﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الكهف)

والحق عندما يقول : « زين للذين كفروا الحياة الدنيا » فهو يفضح من يعتقدون أنه لا حياة بعد هذه الحياة ، ونقول لهم : هذا مقياس نازل ، وميزان غير دقيق ، ودليل على الحمق ؛ لأنكم ذهبتم إلى الأدنى وتركتم الأعلى . ومن العجيب أنكم فعلتم ذلك ثم يكون بينكم وبين من اختار الأعلى هذه المفارقات . أنتم فى الأدنى ، وتسخرون من الذين التفتوا إلى الأعلى ، إن الحق يقول : « ويسخرون من الذين آمنوا » . لماذا يسخرون منهم ؟

لأن الذين آمنوا ملتزمون ، ومادام الإنسان ملتزما فسيعوق نفسه عن حركات الوجود التي تأتيه من غير حل ، لكن هؤلاء قد انطلقوا بكل قواهم وملكاتهم إلى ما يزين لهم من الحياة .

لذلك تجد إنساناً يعيش في مستوى دخله الحلال ، ولا يملك إلا حُلّةً واحدة «بدلة» ، وإنساناً آخر يسرق غيره ، فتجد الثاني الذي يعيش على أموال غيره حسن المظهر والهندام وعندما يلتقى الاثنان تجد الذي ينهب يسخر من الذي يعيش على الحلال ، لماذا ؟ لأنه يعتبر نفسه في مقياس أعلى منه ، يرى نفسه حسن الهندام و«الشياكة» فيحسم الحق هذه المسألة ويقول : «و الذين اتقوا فوقهم يوم القيامة» . لماذا يوم القيامة ، أليسوا فوقهم الآن ؟

إن الحق سبحانه وتعالى يتحدث عن المنظور المرئي للناس ؛ لأنهم لا ينظرون إلى الراحة النفسية وهي انسجام ملكات الإنسان حينما يذهب لينام ، ولم يجرب على نفسه سقطة دينية ولا سقطة خلقية ، ولا يؤذي أحدًا ، ولا يرتشي ، ولا ينم ولا يغتاب ، كيف يكون حاله عندما يستعرض أفعال يومه قبل نومه ؟ لابد أن يكون في سعادة لا تقدر بمال الدنيا .

ولذلك لم يدخل الله هذا الإحساس في المقارنة ، وإنما أدخل المسألة التي لا يقدر عليها أحد . «والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة» . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة المطففين)

ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾
هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة المطففين)

أى هل عرفنا ان نجازيهم ؟ نقول : نعم يارب . خصوصا أن ضحك الآخرة ليس بعده بكاء .

« والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة » ولنلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى خالف الأسلوب فى هذه الآية، لقد كان المفروض أن يقول : والذين آمنوا فوقهم . لكنه قال : « والذين اتقوا فوقهم » لأنه قد يؤخذ الإيمان على انه اسم ، فقد شاع عنك أنك مؤمن ، فأنت بهذا الوصف لا يكفى لتنال به المرتبة السامية إلا إذا كانت أفعالك تؤدى بك إلى التقوى .

فلا تقل : « أنا مؤمن » ويقول غيرك : « أنا مؤمن » ، ويصبح المؤمنون مليارا من البشر فى العالم ، نقول لهؤلاء : أنتم لن تأخذوا الإيمان بالاسم وإنما تأخذون الإيمان بالالتزام بمنهج السماء . ولذلك لم يقل الله : « والذين آمنوا فوقهم يوم القيامة » وإنما قال : « والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة » ليعزل الاسم عن الوصف . ويذيل الحق الآية بالقول الكريم : « والله يرزق من يشاء بغير حساب » . ما هو الرزق ؟ الرزق عند القوم : هو كل ما ينتفع به ؛ فكل شيء تنتفع به هو رزق . وطبقا لهذا التعريف فاللصوص يعتبرون الحرام رزقا ، ولكنه رزق حرام .

والناس يقصرون كلمة الرزق على شيء واحد يشغل بالهم دائما وهو « المال » نقول لهم : لا ، إن الرزق هو كل ما يُنتفع به ؛ فكل شيء يكون مجاله الانتفاع يدخل فى الرزق : علمك رزق ، وخُلُقك رزق ، وجاهك رزق ، وكل شيء تنتفع به هو رزق . ساعة تقول : إن كل ذلك رزق تأخذ قول الله :

﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾

(من الآية ٧١ سورة النحل)

كأن الله يريد من خلقه استطراق أرزاقهم على غيرهم ، وكل إنسان متميز وتزيد عنده حاجة عليه أن يردها على الناس ، لكن الناس لا تفهم الرزق إلا على أنه مال ، ولا يفهمون أنه يطلق على كل شيء ينتفعون به .

إذا كان الأمر كذلك فما معنى « يرزق من يشاء بغير حساب » كلمة « بغير حساب » لابد أن نفهمها على أن الحساب يقتضي مُحاسِب ، ومُحاسَب ، ومُحاسَب عليه . وعلى هذا يكون « بغير حساب » ممن ولمن وفي ماذا ؟

إنه رزق بغير حساب من الله ؛ فقد يرزقك الله على قدر سعيك . وربما أكثر ، وهو يرزق بغير حساب ، لأنه لا توجد سلطة أعلى منه تقول له : لماذا أعطيت فلانا أكثر مما يستحق .

وهو يرزق بغير حساب ؛ لأن خزائنه لا تنفد . ويرزق بغير حساب ؛ لأنه لا يحكمه قانون ، وإنما يعطي بطلاقة القدرة . إنه جل وعلا يعطي للكافر حتى تتعجب أنت وتقول : يعطي الكافر ولا يعطي المؤمن لماذا ؟

إذا استطاع أحد أن يحاسبه فليسأله لماذا يفعل ذلك ؟ إنه يعطي مقابلا للحسنة سبعمائة ضعف بغير حساب . إن الحساب إنما يأتي عندما تأخذ معدوداً ، فإذا أخذت مثلا مائة من ألف فأنت طرحت معدودًا من معدود فلابد أن ينقص ، وعندما تراه ينقص فأنت تخاف من العطاء . لكن الله بخلاف ذلك ، إنه يعطي معدوداً من غير معدود .

إذن ساعة تقرأ « بغير حساب » فقل إن الحساب إن كان واقعا من الله على الغير ، فهو لا يعطي على قدر العمل بل يزيد . ولن يحاسب نفسه ولن يُحاسبه أحد .

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾

(من الآية ٩٦ سورة النحل)

إذن « يرزق من يشاء بغير حساب » تجعل كل إنسان يلزم أدبه إن رأى غيره قد

رُزق أكثر منه ؛ لأنه لا يعلم حكمة الله فيها . وهناك أناس كثيرون عندما يعطيهم الله نعمة يقولون : « ربنا أكرمنا » ، وعندما يسلبهم النعمة يقولون : « ربنا أهاننا » ، وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الفجر)

كلا . مخطىء أنت يا مَن اعتبرت النعمة إكراما من الله ، وأنت مخطىء أيضاً يا مَن اعتبرت سلب النعمة إهانة من الله ؛ إن النعمة لا تكون إكراما من الله إلا إذا وفقك الله فى حسن التصرف فى هذه النعمة ، ولا تكون النعمة إهانة إلا إذا لم يوفقك الله فى أداء حق النعمة ، وحق النعمة فى كل حال يكون بشكر المنعم ، وعدم الانشغال بها عمن رزقك إياها .

ونحب أن نفهم ـ أيضا ـ أنّ قول الله سبحانه وتعالى : « والله يرزق من يشاء بغير حساب » ينسحب على معنى آخر ، وهو أنه ـ سبحانه ـ لا يحب أن تُقَدِّرَ أنت رزقك بحساب حركة عملك فقط ؛ فحساب حركة عملك قد يخطىء . مثال ذلك الفلاح الذى يزرع ويقدر رزقه فيما يُنْتِجُ من الأرض ، وربما جاءت آفة تذهب بكل شىء كما نلاحظ ونشاهد ، ويصبح رزق الفلاح فى ذلك الوقت من مكان آخر لم يدخل فى حسابه أبداً .

ولهذا فإن على الإنسان أن يعمل فى الأسباب ، ولكنه لا يأخذ حسابا من الأسباب ، ويظن أن ذلك هو رزقه ؛ لأن الرزق قد يأتى من طريق لم يدخل فى حسابك ولا فى حساباتك ، وقال الحق فى ذلك :

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾

(من الآيتين ٢ ، ٣ سورة الطلاق)

وبعد ذلك يقول لنا الحق سبحانه وتعالى فى آية أخرى ما يوضح لنا ويبين قضية العقيدة وموكب الرسالات فى الأرض ، بداية وتسلسلا وتتابعا فى رسل متعاقبين ، فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾

ولقائل أن يقول : إذا كان الناس أمة واحدة ، وقد رتب الله بعث وإرسال النبيين على كونهم أمة واحدة ؛ فمن أين إذن جاء الخلاف إلى حياة الناس ؟ ونقول : لابد أن نُحمل هذه الآية المجملة على آية أخرى مفصلة فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة يونس)

لابد لنا إذن أن نأخذ هذه الآية فى ظل آية سورة يونس ؛ فالحق سبحانه وتعالى ساعة يخاطب العقل البشرى يريد أن يخاطبه خطابا يوقظ فيه عقله وفكره حتى يستقبل

كلام الله بجماع تفكيره ، وأن يكون القرآن كله حاضراً فى ذهنك ، ويخدم بعضه بعضا .

« كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين » . فقبل بعث الله النبيين كان الناس أمة واحدة يتبعون آدم ، وقد بلغ الحق آدم المنهج بعد أن اجتباه وهداه ، وعلم آدم أبناءه منهج الله ، فظل الناس من أبنائه على إيمان بعقيدة واحدة ، ولم ينشأ عندهم ما يوجب اختلاف أهوائهم . فالعالم كان واسعاً ، وكانت القلة السكانية فيه هى آدم وأولاده فقط ، وكان خير العالم يتسع للموجودين جميعا . إذن لا تطاحن على شىء ، ومن يريد شيئاً يأخذه ، وكانت الملكية مشاعة للجميع ؛ لأنه لم تكن هناك ملكية لأحد ؛ فمن يريد أن يبنى بيتا فله أن يبنيه ولو على عشرين فدانا ، ومن يريد أن يأكل فاكهة أو يأخذ ثمرا من أى بستان فله أن يأخذ ما يريد .

والمثال على ذلك فى حياتنا اليومية ، هناك رب الأسرة الذى يأتى بعشرين كيلو برتقالاً ويتركها أمام أولاده ، وكل طفل يريد برتقالة أو أكثر فهو يأخذ ما يريد بلا حرج ، لكن لو اشترى رب البيت كيلو برتقالاً واحداً فكل طفل يأخذ برتقالة واحدة فقط .

إذن كان الناس أمة واحدة ، أى لم توجد الأطماع ، ولم يوجد حب الاستئثار بالمنافع مما يجعلهم يختلفون . إذن فأساس الاختلاف هو الطمع فى متاع الدنيا ، ومن هنا ينشأ الهوى .

وكان من المفروض فى آدم عليه السلام بعد أن بلغه الله المنهج أن يبلغه لأولاده ، وأن يتقبل أبناؤه المنهج ، ولكن بعض أولاده تمرد على المنهج ، ونشأ حب الاستئثار من ضيق المُستأثر والمنتفع به ، ومن هنا نشأت الخلافات . ولنا فى قصة هابيل وقابيل ما يوضح ذلك :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ ءَادَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ونعرف أن آدم وحواء هما أصل الوجود ، حواء تلد توأمين فى كل مرة ، وأراد آدم أن يزاوجهم فكيف تكون المزاوجة وهم جميعاً أبناؤه وأبناء عصر واحد ؟ وكل منهم يعرف أن الذى أمامه هو أخوه .

لقد واجه الشرع تلك المشكلة في ذلك الوقت ، واعتبر أن البعد هو بعد البطن، اى أن الذى يولد مع أخيه فى بطن واحد فهو أخوه ، أما الذى وُلد بعده أو قبله فكأنه ليس أخاه ، لذلك كان آدم وحواء يبادلان زواج الأبناء حسب ابتعاد البطون ، وكان الغرض من هذا التباعد ان تكون المرأة وكأنها أجنبية عن أخيها .

روى عن ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما : « أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الآخر ، وأن هابيل أراد أن يتزوج أخت قابيل وكان أكبر من هابيل وأخت قابيل أحسن فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه ، وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى ، فأمرهما أن يقربا قرباناً فقرب هابيل جذعة سمينة وكان صاحب غنم ، وقرب قابيل حزمة من زرع من ردىء زرعه فنزلت نارٌ فأكلت قربان هابيل ، وتركت قربان قابيل، فغضب وقال : لأقتلنك حتى لا تنكح أختى ، فقال : «إنما يتقبل الله من المتقين » .

إذن ، كان ميلاد أول خلاف بين البشر حينما تنافس اثنان للاستئثار بمنفعة ما ، وكان هذا مثالاً واضحاً لما يمكن أن يحدث عندما تضيق المنافع عن الأطماع .

« كان الناس أمة واحدة » لكنهم اختلفوا لحظة الاستئثار بالمنافع ، وأصبح لكل إنسان هوى . ولو شاء الله أن يجعل منهجه لآدم منهجاً دائماً إلى أن تقوم الساعة لفعل . لكنه سبحانه برحمته يعلم أنه خلقنا ، ويعلم أننا نعقل مرة ونسهو مرة ، ونلتزم مرة ونهمل مرة أخرى ، فشاء الله أن يواصل لخلقه مواكب الرسل . ولذلك يأتى قوله الحق : « فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » . ومهمة « التبشير والإنذار» هى أن يتذكر الناس أن هناك جنة وناراً ، ولذلك يبشر كل رسول مَنْ آمن من قومه بالجنة ، وينذر مَنْ كفر من هؤلاء القوم بالنار . ويذكرنا الحق سبحانه بأنه أشهدنا على أنفسنا على وحدانيته فقال :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ
بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ
تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

يخبر سبحانه أنه استخرج ذرية آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم ، وأنه لا إله إلا هو كما أنه فطرهم على ذلك . ثم بعد أن أخرجهم إلى الوجود من آدم جاء للخلق الأول وهو آدم وأعطاه المنهج وكانت الأهواء غير موجودة ، فظل المنهج مطبقا بين بني آدم . وبعد ذلك تعددت الأهواء ، وتعدد الأهواء إنما ينشأ عن الاستئثار بالمنافع ، وذلك بسبب الخوف من استئثار الغير ، فنشأ حب الذات ، ولما كانت المنافع لا تتسع لأطماع الناس فقد استشرى حب الاستئثار والتملك .

ونجد هذه المسألة واضحة حينما تتوافر السلع وتغمر الأسواق . وتستطيع أن تشترى أى سلعة فى أى وقت تحب ، وتجدها متوافرة ، عند ذلك لا توجد أزمة ، لكن الأزمة تنشأ عندما تقل الكميات المعروضة من السلع عن حاجة الناس ، فيتكالب الناس على الاستئثار بها . وهكذا نعرف أن المنافع عندما توجد ، وتكون دون الأطماع هنا تتولد المشكلات .

ومن رحمة الحق سبحانه وتعالى بالخلق ، ومن تمام علمه سبحانه بضعف البشر أمام أهوائهم وأمام استئثارهم بالمنافع ، أرسل الرسل إلى البشر ليبشروا ولينذروا . « وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات » فكأن الحق لم يشأ أن يترك البشر ليختلفوا ، وإنما الغفلة من الناس هى التى أوجدت هذا الاختلاف . « من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم » ومن هذا القول الحكيم نعرف أن الاختلاف لا ينشأ إلا من إرادة البغى ، والبغى هو أن يريد الإنسان أن يأخذ غير حقه . ومادام كل

منا يريد أن يأخذ غير حقه فلا بد أن ينشأ البغض .

« فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه » أي أن الله يهدى الذين آمنوا من كل قوم بالرسول الذى جاء مبشرا ومنذرا وحاملا منهج الحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . وبذلك يظل المنهج سائداً إلى أن تمضى فترة طويلة تغفل فيها النفوس ، وتبدأ من خلالها المطامع ويحدث النسيان لمنهج الله ، وتنشأ الأهواء ، فيرسل الله الرسل ليعيدوا النا ـ إلى المنهج القويم ، واستمر هذا الأمر حتى جاءت رسالة الإسلام خاتمة وبعث الله سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم للدنيا كافة ، وبذلك ضمن لنا الحق سبحانه وتعالى ألا ينشأ خلاف فى الأصل ؛ لأننا لو كنا سنختلف فى أصل العقيدة لجرى علينا ما جرى على الأمم السابقة . هم اختلفوا فأرسل الله لهم رسلا مبشرين ومنذرين ، لكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم أراد الحق لها منهجا واضحا يحميها من الاختلاف فى أصل العقيدة . وإن اختلف الناس من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فعليهم أن يسترشدوا بالمنهج الحق المتمثل فى القرآن والسنة .

ونعرف أن من مميزاته صلى الله عليه وسلم أنه خاتم الأنبياء بحق ، ولن تجد فى الموكب الرسالى رسولا أوكل له الله أن ينشىء حكما جديدا لم ينزل فى كتاب الله إلا سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم . لقد أعطى الله سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم التفويض فى أن يشرع عن الله ؛ فى ظل عصمة الله له فقد قال سبحانه :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

إنه أمر واضح للمؤمنين بأن يأتمروا بأمر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، لأن ما يأمرهم به فيه الصلاح والخير ، وأن ينتهوا عما ينهاهم عنه ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم إنما ينهى عن الأمور التى ليس فيها خير لأمة المسلمين . ويأمر الحق جل وعلا جماعة المسلمين بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم لأنها من طاعة الله ، فيقول جل وعلا :

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

وهكذا نرى أن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم من طاعة الله ، ومن يعرض عن طاعته فله العقاب فى الآخرة . ويؤكد الحق سبحانه على طاعته وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

هكذا نعرف أن طاعة الرحمن تستوجب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم . إذن فقد فوض الله رسوله أن يُشرِّع للبشر . وهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما ينطق عن الهوى .

وميزة أخرى لأمة المسلمين هى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك لنا حق الاجتهاد فى المسائل التى لم يأت فيها نص من القرآن ولا من السنة،أو ورد فيها نص ولكنه يحتمل أكثر من معنىً،ومعنى ذلك أن الحق سبحانه قد أمِنَ أمة محمد عليه الصلاة والسلام بأن تصل بالاجتهاد لما يحسم أى خلاف ، وأن أى اختلاف لن يصل إلى الجوهر . فلو علم الله أزلا أننا سوف نختلف اختلافا فى صحيح العقيدة لكان قد أرسل لنا رسلاً .

ونحن نجد كل الاختلافات بين طوائف المسلمين لا تخرج عن إطار فهم نصوص القرآن أو أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل مسلم يريد أن يستقى دليله من الكتاب والسنة .

ومعنى ذلك أننا لم نترك الأصل ، ولكن كل منا يريد أن يأخذ الحكم الصحيح . بل إننا نجد أن بعضا من المسلمين الذين لم يجدوا دليلهم من القرآن والسنة قد حاولوا أن يضعوا حديثا ينسبونه إلى رسول الله ليبنوا عليه الحكم الذى يريدونه .

وهؤلاء مأواهم النار ؛ لأنهم نطقوا بلسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يقله الرسول الكريم لقد كذبوا عليه ، ومن كذب عليه متعمدا فليتبوأ مقعده من النار .

إذن فكلنا نلتقى حول القرآن والسنة النبوية ، أين المشكلة إذن ؟ المشكلة هى أن يكون الناس أذكياء وعلى علم حتى يعرفوا هل المأخوذ من القرآن مقبول أو غير مقبول ؟ وهل الأحاديث المستند إليها بمقاييس الجرح والتعديل موجودة أو لا ؟

إذن فحصافة الاجتهاد والرأى عند أمة محمد صلى الله عليه وسلم جعلتهم مأمونين على كل شىء فى المنهج . وأن الخلاف فيما بينهم لم يصل إلى ما وصلت إليه الأمم السابقة ، ولكن عليهم أن ينتبهوا ويرتقوا حتى يميزوا الأمور التى تكون من غير معطيات القرآن ، ثم يريد قوم أن يحملوها على القرآن .

إن عليهم ألا يفسروا القرآن حسب أهوائهم بل حسب ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ـ حتى يكون هواهم تبعا لما جاء به ـ وعلينا أن نتنبه إلى أن الله قد أمِنَ أمة محمد صلى الله عليه وسلم على القرآن وعلى رسالة الإسلام ، والقرآن ورسالة الإسلام لن يصيبهما التغيير أو التحريف ، وكل ما هو مطلوب أن يكون المؤمنون أهل دقة وفطنة ، فإذا أراد إنسان أن يستغل أية سلطة زمنية أو أن يجىء بحديث موضوع ليروج لباطله فعلى المسلمين أن يكشفوا سوء مقصد هذا الإنسان .

فنحن نفهم أن الله شاء بالإسلام حياة القيم ، كما شاء بالماء حياة المادة ، والماء حتى يظل ماء فلا بد أن يظل بلا طعم ولا لون ولا رائحة ، فإذا أردت أن تجعل له طعمًا خرج عن خاصيته ؛ ربما أصبح مشروبا أو عصيراً أو غير ذلك ، وقد يحب بعض الناس نوعا من العصير ، لكن كل الناس يحبون الماء ؛ لأن به تُصان الحياة ، فإذا رأيت ديناً قد تلون بجماعة أو بهيئة أو بشكل فاعلم أن ذلك خارج عن نطاق الإسلام . وكل جماعة تريد أن تصبغ دين الله بلون إنما يخرجونه عن طبيعته الأصلية ، ولذلك نجد أمتنا فى مصر قد صانت علوم الإسلام بالأزهر الشريف وكل عالم من علماء الإسلام فى أى بقعة من بقاع الأرض مدين للأزهر الشريف. ونجد أننا نحب آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن لا نجد عندنا متشيعا واحدا ،

وفى الوقت نفسه لا نجد واحداً يكره أبا بكر وعمر ، وهذا هو الإسلام الذى لا يتلون ؛ لأنه إسلام الفطرة .

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾

(من الآية ١٣٨ سورة البقرة)

فالذين يحاولون فى أى زمان من الأزمنة أن يصبغوا الدين بشكل أو بطقوس أو بلون أو برسوم أو هيئة خاصة نقول لهم : أنتم تريدون أن تُخرجوا الإسلام عن عموميته الفطرية التى أرادها الله له ، ولابد أن تقفوا عند حد الفطرة الإسلامية ، ولا تلونوا الإسلام هذا التلوين . وبذلك نحقق قول الله : « فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » ونعرف أن الهداية معناها الأمر الموصل للغاية ، وحين ترد الهداية من الله سبحانه وتعالى فعلينا أن نفهم أن الهداية من الله ترد على معنيين : المعنى الأول هو الدلالة على الطريق الموصل ، والمعنى الثانى هو المعونة .

وضربت من قبل المثل بشرطى المرور الذى يدلك على الطريق الموصل إلى الغاية التى تريدها ، فإن احترمت كلامه ونفذته فهو يعطى لك شيئاً من المعونة ، بأن يسير معك أو يوصلك إلى المكان الذى تريد . فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى وله المثل الأعلى ؟ إنه يهدى الجميع بمعنى يدلهم ، فالذين آمنوا به وأحبوه يهديهم هداية أخرى ، وهى أن يعينهم على ما أقاموا نفوسهم فيه . وبعضنا يدخله العجب عندما يسمع قول الحق :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة فصلت)

بعضنا يتعجب متسائلا : كيف يقول سبحانه : إنه هداهم ، ثم استحبوا العمى على الهدى ؟ ونقول : إن « هداهم » جاءت هنا بمعنى « دلهم » لكنهم استحبوا

العمى على الهدى ، أما الذين استجابوا لهداية الدلالة وآمنوا فقد أعانهم الله وأنجاهم ، لأنهم عرفوا تقواه سبحانه .

ونحن نسمع بعض الناس يقولون : مادام الله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم فما ذنب الذى لم يهتد ؟ نقول : إن الحق يهدى من شاء إلى صراط مستقيم ؛ أى يبين الطريق إلى الهداية ، فمن يأخذ بهداية الدلالة يزده الله بهداية المعونة وييسر له ذلك الأمر . ونحن نعلم أن الله نفى الهداية عن رسوله صلى الله عليه وسلم فى آية ، وأثبتها له فى آية أخرى برغم أنه فعل واحد لفاعل واحد . قال الحق نافيا الهداية عن الرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة القصص)

والحق يذكر للرسول صلى الله عليه وسلم الهداية فى موضع آخر فيقول له :

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

ومن هنا نفهم أن الهداية نوعان : هداية الدلالة ، فهو « يهدى » أى يدل الناس على طريق الخير . وهناك هداية أخرى معنوية ، وهى من الله ولا دخل للرسول صلى الله عليه وسلم فيها ، وهى هداية المعونة .

إذن قوله تعالى : « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » معناها : أنك تدل على الصراط المستقيم ، ولكن الله هو الذى يعين على هذه الهداية . « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » فعلينا أن نستحضر الآيات التى شاء الله أن يهدى فيها مؤمنا وألا يهدى آخر . ويقول الحق ـ سبحانه ـ :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

معنى ذلك أن الله لا يهدى إلا الذين آمنوا به . وهدايته للمؤمنين تكون بمعونتهم على الاستمرار فى الهداية ؛ فالكل قد جاءته هداية الدلالة ولكن الحق يختص المؤمنين بهداية المعونة . والحق يقول فى ذلك :

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

(سورة التوبة)

إن الحق يوضح لنا المقارنة بين الذى يؤسس بنيان حياته على تقوى من الله ابتغاء الخير والجنة ، وهو الذى جاءته هداية الدلالة فاتبعها ، فجاءته هداية المعونة من الله . وبين ذلك الذى يؤسس بنيان حياته على حرف واد متصدع آيل للسقوط فسقط به البنيان فى نار جهنم ، إنه الذى جاءته هداية الدلالة فتجاهلها ، فلم تصله هداية المعونة ، ذلك هو الظالم المنافق الذى يريد السوء بالمؤمنين . والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

(سورة التوبة)

إن الحق يبلغ رسوله أنه مهما استغفر للمنافقين الذين يُظهرون الإسلام ، ويبطنون الكفر فلن يغفر الله لهم ، لماذا ؟ لأن هداية الدلالة قد جاءت لهم فادعوا أنهم مؤمنون بها ، ولم تصلهم هداية المعونة ؛ لأنهم يكفرون بالله ورسوله ، والله لا يهدى مثل هؤلاء القوم الفاسقين الخارجين بقلوبهم عن منهج الله . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ

﴿ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾

أى أظننتم أنكم تدخلون الجنة بدون ابتلاءات تحدث لكم ؟ إن الحق سبحانه ينفى هذا الظن ويقول : ليس الأمر كذلك ، بل لابد من تحمل تبعات الإيمان ، فلو كان الإيمان بالقول لكان الأمر سهلا ، لكن الذى يُصَعِّبُ الإيمان هو العمل ، أى حمل النفس على منهج الإيمان . لقد استكبر بعض من الذين عاصروا محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقولوا : « لا إله إلا الله » لأنهم فهموا مطلوبها ؛ لأن الأمر لو اقتصر على مجرد كلمة تقال بلا رصيد من عمل يؤيدها ، لكان أسهل عليهم أن يقولوها ، لكنهم كانوا لا يقولون إلا الكلمة بحقها ، ولذلك أيقنوا تماما أنهم لو قالوا : « لا إله إلا الله » لانتهت كل معتقداتهم السابقة ، لكنهم لم يقولوها ؛ لأنهم أبوْا وامتنعوا عن القيام بحقها وأداء مطلوبها .

إن الحق يقول : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء » فما العلاقة بين هذه الآية وما سبق من الآيات ؟ لقد كان الحديث عن بنى إسرائيل الذين حسبوا أنهم يدخلون الجنة بدون أن يبتلوا ، وصارت لهم أهواء يحرفون بها المنهج . أما أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فعليهم أن يستعدوا للابتلاء ، وأن يعرفوا كيف يتحملون الصعاب .

ونحن نعرف فى النحو أن هناك أدوات نفى وجزم . ومن أدوات النفى « لم » و« لما » فعندما نقول : « لم يحضر زيد » فهذا حديث فى الماضى ، ومن الجائز أن يحضر الآن . ولكن إذا قلت : « لما يحضر زيد » فالنفى مستمر حتى الآن ، أى أنه لم يأت حتى ساعة الكلام لكن حضوره ومجيئه متوقع . ولذلك يقول الحق :

﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ﴾

(من الآية ١٤ سورة الحجرات)

وعندما سمع الأعراب ذلك قالوا : نحمد الله ، فمازال هناك أمل أن نؤمن . لقد أراد الله أن يكون الأعراب صادقين مع أنفسهم ، وقد نزلت هذه الآية كما يقول بعض المفسرين فى قوم من بنى أسد ، جاءوا إلى المدينة فى سنة جدب ، وأعلنوا الشهادة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وكانوا يطلبون الصدقة ، ويحاولون أن يمنوا على الرسول صلى الله عليه وسلم بأنهم لم يقاتلوه كما فعل غيرهم ، فجاءت هذه الآية لتوضح أن الإيمان درجة أرقى من إظهار الإسلام لكن ذلك لا يعنى أنهم منافقون ، ولذلك يوضح القرآن الكريم أن إظهار الإسلام لا يعنى الإيمان ؛ لأن الإيمان عملية قلبية .

لقد أعلنوا الخضوع لله ، وأرادوا أن يقوموا بأعمال المسلمين نفسها لكن ليس هذا هو كل الإيمان . وهم قالوا : « آمنا » فقال الحق لهم : لا لم تؤمنوا وكونوا صادقين مع أنفسكم فالإيمان عملية قلبية ، ولا يقال إنك آمنت ؛ لأنها مسألة فى قلبك ، ولكن قل أسلمت ، أى خضعت وفعلت مثلما يفعل المؤمنون ، فهل فعلت ذلك عن إيمان أو غير إيمان ، إن ذلك موضوع آخر .

هنا تقول الآية : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم » أى لا يمكن أن تدخلوا الجنة إلا إذا جاءكم من الابتلاء مثل من سبقكم من الأمم ولابد أن تُفتنوا وأن تُمحصوا ببأساء وضراء ، ومن يثبت بعد ذلك فهو يستحق أن يدخل الجنة ، فلا تظنوا أنكم أمة متميزة عن غيركم فى أمر الاختبار ، فأنتم لن تدخلوا الجنة بلا ابتلاء ، بل على العكس سيكون لكم الابتلاء على قدر النعماء .

أنتم ستأخذون مكانة عالية فى الأمم ولذلك لابد أن يكون ابتلاؤكم على قدر مكانتكم ، فإن كنتم ذوى مكانة عالية وستحملون الرسالة الخاتمة وتتسامحون فى

الدنيا فلا بد أن يكون ابتلاؤكم على قدر عظمة مسئوليتكم ومهمتكم .

« ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا » إن قول الله: « ولما » يفيد بأن ما حدث للذين من قبلهم من ابتلاء عليهم سيقع على المؤمنين مثله .

وعندما نتأمل قوله الحق : « وزلزلوا » فأنت تكتشف خاصية فريدة فى اللغة العربية ، هذه الخاصية هى تعبير الصوت عن واقعية الحركة ، فكلمة « زلزلوا » أصلها زلزلة ، وهذه الكلمة لها مقطعان هما « زل ، زل » . و« زل » : أى سقط عن مكانه ، أو وقع من مكانه ، والثانية لها المعنى نفسه أيضاً ، أى وقع من مكانه ، فالكلمة تعطينا معنى الوقوع المتكرر : وقوع أول ، ووقوع ثانٍ ، والوقوع الثانى ليس امتداداً للوقوع الأول ؛ ولكنه فى اتجاه معاكس ، فلو كانت فى اتجاه واحد لجاءت رتيبة ، إن الزلة الثانية تأتى عكس الزلة الأولى فى الاتجاه ، فكأنها سقوط جهة اليمين مرة ، وجهة الشمال مرة أخرى .

ومثل ذلك « الخلخلة » أى حركة فى اتجاهين معاكسين « خَلّ » الأولى جهة اليمين ، و« خَلّ » الثانية جهة اليسار ، وبهذا تستمر الخلخلة .

وهكذا « الزلزلة » تحمل داخلها تغير الاتجاه الذى يُسمى فى الحركة بالقصور الذاتى . والمثال على ذلك هو ما يحدث للإنسان عندما يكون راكباً سيارة ، وبعد ذلك يأتى قائد السيارة فيعوقها بالكابح « الفرامل » بقوة ، عندئذ يندفع الراكب للأمام مرة ، ثم للخلف مرة أخرى ، وربما تكسر زجاج السيارة الأمامى حسب قوة الاندفاع ؛ ما الذى تسبب فى هذا الاندفاع ؟ إن السبب هو أن جسم الراكب كان مهيأ لأن يسير للأمام ؛ والسائق أوقف السيارة والراكب لازال مهيأ للسير للأمام ، فهو يرتج ، وقد يصطدم بأجزاء السيارة الداخلية عند وقوفها فجأة . وعملية « الزلزلة » مثل ذلك تماماً ، ففيها يصاب الشىء بالارتجاج للأمام والخلف ، أو لليمين واليسار ، وفى أى جهتين متعاكستين .

و« زلزلوا » يعنى أصابتهم الفاجعة الكبرى ، الملهية ، المتكررة ، وهى لا تتكرر

على نمط واحد ، إنما يتعدد تكرارها ، فمرة يأخذها الإيمان ، ثم تأخذها المصائب والأحداث ، وتتكرر المسألة حتى يقول الرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه : « متى نصر الله » ؟

ويأتي بعده القول : « ألا إن نصر الله قريب » فهل يتساءلون أولاً ، ثم يثوبون إلى رشدهم ويردون على أنفسهم « ألا إن نصر الله قريب » أم أن ذلك إيضاح بأن المسألة تتأرجح بين « متى نصر الله » وبين « ألا إن نصر الله قريب » ؟ .

لقد بلغ الموقف فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الاختيار والابتلاء إلى القمة ، ومع ذلك واصل الرسول صلى الله عليه وسلم والذين معه الاستمساك بالإيمان . لقد مستهم البأساء والضراء وزلزلوا ، أى أصابتهم رجفة عنيفة هزتهم ، حتى وصل الأمر من أثر هذه الهزة أن « يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب » .

إن مجيء الأسلوب بهذا الشكل « متى نصر الله » يعنى استبطاء مجيء النصر أولاً ، ثم التبشير من بعد ذلك في قوله الحق : « ألا إن نصر الله قريب » . ولم يكن ذلك للشك والارتياب فيه . وهذا الاستبطاء ، ثم التبشير كان من ضمن الزلزلة الكبيرة ، فقد اختلطت الأفكار : أناس يقولون : « متى نصر الله » فإذا بصوت آخر من المعركة يرد عليهم قائلاً : « ألا إن نصر الله قريب » .

وسياق الآية يقتضى أن الذين قالوا : « متى نصر الله » هم الصحابة ، وأن الذى قال : « ألا إن نصر الله قريب » هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم ينتقل الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك إلى قضية أخرى ، هذه القضية شاعت فى هذه الصورة وهى ظاهرة سؤال المؤمنين عن الأشياء ، وهى ظاهرة إيمانية صحية ، وكان فى استطاعة المؤمنين ألا يسألوا عن أشياء لم يأت فيها تكليف إيماني خوفاً من أن يكون فى الإجابة عنها تقييد للحركة ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ذرونى ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على

أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه »(١) .

ورغم ذلك كانوا يسألون عن أدق تفاصيل الحياة ، وكانت هذه الظاهرة تؤكد أنهم عشقوا التكليف من الله ؛ فهم يريدون أن يبنوا كل تصرفاتهم بناءً إسلاميا ، ويريدون أن يسألوا عن حكم الإسلام في كل عمل ليعملوا على أساسه . يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾

والسؤال ورد من عمرو بن الجموح ،كان شيخا كبيرا فقال : يا رسول الله ، إن مالي كثير فبماذا أتصدق ، وعلى من أنفق ؟ ولم يكن يسأل لنفسه فقط ، بل كان يترجم عن مشاعر غيره أيضا ، ولذلك جاءت الإجابة عامة لا تخص السائل وحده ولكنها تشمل كل المؤمنين .

والسؤال عن « ماذا ينفقون » ؛ فكأن الشيء المُنفق هو الذي يسألون عنه ، والإنفاق ـ كما نعرف ـ يتطلب فاعلاً هو المُنفِق ؛ والشيء المُنفق ـ هو المال ـ ؛ ومنفقًا عليه . وهم قد سألوا عن ماذا ينفقون ، فكأن أمر الإنفاق أمر مُسلَّم به ، لكنهم يريدون أن يعرفوا ماذا ينفقون ؟ فيأتي السؤال على هذا الوجه ويجيء الجواب حاملا الإجابة عن ذلك الوجه وعن أمر زائد .

(١) هذا الحديث أخرجه الإمام مسلم والنسائي وابن ماجه والإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة .

يقول الحق : « يسـألونك ماذا ينفـقون » هذا هو السـؤال ، والجواب «قل ما أنفقتم من خـير فللوالدين » . إن الظاهر السطحى يظن أن السؤال هو فقط عن ماذا ينفقون ؟ وأن الجـواب جاء عن المنفق عليه . نقول : لا ، لماذا نسـيت قوله الحق : إن الإنفـاق يجب أن يكون من « خـير »، فـالمال المُنفق منه لا بد أن يتصف بأنه جاء من مصدر خير .

وبعد ذلك زاد وبيّن أنه : ما دمتم تعتقدون أن الإنفاق واجب، فعليكم أن تعلموا ما هو الشىء الذى تنفقونه ، ومَنْ الذى يستحق أن يُنفَقَ عليه . « قل ما أنـفقتم من خـير » . والخـير هو الشىء الحـسن النافع . والمُنفَق عليه هو دوائر الذى يُنْفِق؛ لأن الله يريد أن يُحَمِّل المؤمن دوائره الخاصة ، حتى تلتحم الدوائر مع بعضها فيـكون قد حمّل المجتمع على كل المجتمع ، لأنه سـبحـانه حين يُحَمِّلنى أسرتى ووالدى والأقـربين ، فهـذه صيـانة للأهل، وكل واحـد مـنا له والدان وأقـربون ، ودائرتى أنـا تشـمل والدىّ وأقاربى ، ثم تشيع فى أمر آخر ؛ فى اليتامى والمساكين .

وهات كل واحـد واحسب دوائره من الوالـدين والأقربين ومـا يكون حوله من اليـتامى والمساكـين ، فستجـد الدوائر المتماسكة قـد شملت كل المحتاجين ، ويكون المجتمع قد حـمل بعضه بعضاً ، ولا يوجد بعد ذلك إلا العاجز عن العمل . وعرفنا أن السـائل هو « عمرو بن الجموح » ، وكانت له قصة عجـيبة ؛ كان أعرج ، والأعرج معـذور من الله فى الجهاد ، فليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج .

وأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يخرج فى غـزوة، فجاءه عمرو ابن الجـمـوح وقال : يـا رسول الله لا تحـرمنى من الجـهـاد، فـإن أبنائى يحرموننى من الخروج لعرجتى . قال له النبى صلى الله عليه وسلم : إن الله قد عذرك فيمَنْ عذر . قال: ولكنى يا رسول الله أحب أن أطأ بعرجتى الجنة .

هذا هو مَنْ سأل عن ماذا ينفقون، فجاءت الإجابة من الحق : « قل ما أنفقتم من خير » أى ما أخرجتم من مـال ؛ لأن الإنفاق يعنى الإخراج ، والخير هنا هو

المال ، والإنفاق يقتضى إخراج المال عن ملكية الإنسان ببيع أو هبة أو صلة ، وأصل كلمة «الإنفاق» مأخوذ من «نفقت السوق» أى راجت ؛ لأن السوق تقوم على البضاعة ، وحين تأتى إلى السوق ولا تجد سلعاً فذلك يعنى أن السوق رائجة ، ولكن عندما تجد البضائع مكدسة بالسوق فذلك يعنى أن السوق لازالت قائمة .

إذن فمعنى «نفقت السوق» أى ذهبت كل البضائع كما تذهب الحياة من الدابة ، فعندما نقول : نفقت الدابة ، أى ماتت . وأوجه الإنفاق بيّنها - سبحانه - فى قوله : «فللوالدين ، والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل» . فهل كل يتيم محتاج ؟ ربما يكون اليتيم قد ورث المال لكن علينا أن نفهم أنّ المسألة ليست هى سد حاجة محتاج فقط ، ولكنها الوقوف بجانب ضعيف فى أى زاوية من زوايا الضعف ؛ لأن الطفل عندما يكون يتيماً ولديه مال ، ثم يراك تعطف عليه فهو يشعر أن أباه لم يمت ؛ لأن أبوته باقية فى إخوانه المؤمنين ، وبعد ذلك لا يشب على الحسد لأولادٍ آباؤهم موجودون ، لكن حين يرى اليتيم كل أب مشغولا بأبنائه عن أيتام مات أبوهم ، هنا يظهر فيه الحقد ، وتربى فيه غريزة الاعتراض على القدر ، فيقول «لماذا أكون أنا الذى مات والدى ؟» ، ولكن حين يرى الناس جميعا آباءه ، ويصلونه بالبسمة والود والترحاب والمعونة فلسوف يشعر أن من له أب واحد يتركه الناس اعتماداً على وجود أبيه ، لكن حينما يموت أبوه فإن الناس تلتفت إليه بالمودة والمحبة ، ويترتب على ذلك أن تشيع المحبة فى المجتمع الإسلامى والألفة والرضا بقدر الله ، ولا يعترض أحد على وفاة أبيه ، فإن كان القدر قد أخذ أباه فقد ترك له آباء متعددين .

ولو علم الذين يرفضون المودة والعطف على اليتيم لأن والده ترك له ما يكفيه ، لو علموا ما يترتب على هذا التعاطف من نفع معنوى لتنافسوا على التعاطف معه ؛ فليست المسألة مسألة حاجة مادية ، وإنما هى حاجة معنوية .

وأنا أقول دائما : يجب أن نربى فى الناشئة أن الله لا يأخذ أحداً من خلقه وفى الأرض حاجة إليه ؛ وارقبوا هذا الأمر فيمن حولكم تجدوا واحداً وقد تُوفى وترك أولاداً صغاراً فيحزن أهله ومعارفه ؛ لأنه ترك أولاده صغارا ، وينسون الأمر من بعد ذلك ، وتمر فترة من الزمن ويفاجأ الناس بأن أولاد ذلك الرجل قد صاروا سادة

الحى ، وكأن والدهم كان محبسا على رزقهم ، فحينما انتهى الأب فتح الله على الأبناء صنابير الرزق ، وذلك حتى لا يُفتَن إنسان فى سبب .

وبعد الإنفاق على اليتامى نجد الإنفاق يكون على المساكين وابن السبيل ، وقد عرفنا أن المسكين هو المحتاج وابن السبيل هو المنقطع عن أهله وماله . ويختم الحق هذه الآية بقوله : « وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم » . إن الله يريد أن يرد الطبع البشرى إلى قضية هى : إياك أن تطلب جزاء الخير الذى تفعله مع هؤلاء من أحد من الخلق ، ولكن اطلبه من الله ، وإياك أن تحاول أن يعلم الناس عنك أنك مُنفق على الأقارب واليتامى وابن السبيل ؛ لأن الذين تريدهم أن يعلموا لا يقدرون لك على جزاء ، وعلمهم لن يزيدك شيئا ، وحسبك أن يعلم الله الذى أعطاك ، والذى أعطيت مما استخلفك فيه ابتغاء مرضاته . فحين ينفق الناس لمرضاة الناس ، يلقون من بعد ذلك النكران والجحود فيكون من أعطى قد خسر ما أنفق ، واستبقى الشر ممن أنفقه عليهم .

ولو أن الإنسان المسلم قصد بالإنفاق وعمل الخير مرضاة الخالق الأعلى عز وجل لاستبقى ما أنفق من حسنات وثواب ليوم القيامة ، ولسخر الله له قلوب من تصدق عليهم بالمحبة والوفاء بالمعروف ، وهذه عدالة من الله تتجلى فى أنه يفعل مع المرائين ذلك ؛ لأنهم يعطون وفى بالهم أنهم أعطوا له ، ولو أعطوا الله لما أنكر الآخذ جميل العطاء . أنت أعطيته لمرضاته هو ، فكأن الله يقول لك : سأتركك له ليجازيك ولهذا كان المتصدق فى السر من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله فمنهم :

« . . ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه »[1] وهذا هو الأفضل فى صدقة التطوع ، وأما الزكاة الواجبة فإعلانها أفضل ، وكذلك الحال بالنسبة للصلاة فالفريضة تكون إعلانها أفضل ، والنافلة يكون إسرارها أفضل .

لكن لو عملت وفى بالك الله فستجد أثر العطاء فى وفاء مَن أخذ . فإياكم أن

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة .

تحاولوا ولو من طرف خفيّ أن يعلم الناس أنكم تفعلون الخير . وبعد ذلك يرجع الحق إلى قضية سبق أن عالجها فى قوله تعالى : « ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه » يرجع الحق إلى القتال فيتكلم عن المبدأ العام فى القتال فيقول :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾

إن كراهية القتال هى قضية فطرية يقولها الذى خلق الإنسان فهو سبحانه لا يعالج الأمر علاجا سوفسطائيا ، بمعنى أن يقول : وماذا فى القتال ؟ لا ، إن الخالق يقول : أعلم أن القتال مكروه . وحتى إذا ما أصابك فيه ما تكره فأنت قد علمت أن الذى شرعه يُقدر ذلك . ولو لم يقل الحق إن القتال كره : لفهم الناس أن الله يصور لهم الأمر العسير يسيرا .

إن الله عز وجل يقول للذين آمنوا : اعلموا أنكم مقبلون على مشقات ، وعلى متاعب ، وعلى أن تتركوا أموالكم ، وعلى أن تتركوا لذتكم وتمتعكم . ولذلك نجد كبار الساسة الذين برعوا فى السياسة ونجحوا فى قيادة مجتمعاتهم كانوا لا يحبون لشعوبهم أن تخوض المعارك إلا مضطرين ، فإذا ما اضطروا فهم يوضحون لجندهم أنهم يدرأون بالقتال ما هو أكثر شرا من القتال ، ومعنى ذلك أنهم يعبئون النفس الإنسانية حتى تواجه الموقف بجماع قواها ، وبجميع ملكاتها ، وكل إرادتها .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم » إنه سبحانه يقول لنا : أعلم أن القتال كره لكم ولكن أردت أن أشيع فيكم قضية ، هذه القضية هى ألا تحكموا فى القضايا الكبيرة فى حدود علمكم ؛ لأن علمكم دائما ناقص ، بل

خذوا القضايا من خلال علمى أنا ؛ لأننى قد أشرع مكروها ، ولكن يأتى منه الخير . وقد ترون حبا فى شىء ويأتى منه الشر . ولذلك ينبهنا الحق إلى أن كثيرا من الأمور المحبوبة عندنا يأتى منها الشر ، فيقول الواحد منا : « كنت أتوقع الخير من هذا الأمر ، لكن الشر هو ما جاءنى منه » .

وهناك أمور أخرى تظن أن الشر يأتى منها ، لكنها تأتى بالخير . ولذلك يترك الحق فلتات فى المجتمع حتى يتأكد الناس أن الله سبحانه وتعالى لا يُجرى أمور الخير على مقتضيات ومقاييس علم العباد ، إنما يُجرى الحكم على مقتضى ومقاييس وعلم رب العباد . ولننظر إلى ما رواه الحق مثلا للناس على ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إن موسى عليه السلام يسير مع فتاه إلى مجمع البحرين ، ويقال : إنه ملتقى بحرين فى جهة المشرق ، وكان معهما طعام هو حوت مملوح يأكلان منه ، لكن السفر والمشقة أنساهما الحوت وانطلق الحوت بآية من آيات الله إلى البحر ، وعندما وصل موسى إلى مجمع البحرين طلب من فتاه أن يأتى بالطعام بعد طول التعب ، لكن الفتى يقول لموسى : إنه نسى الحوت ، ولم ينسه إياه إلا الشيطان . وإن الحوت اتخذ طريقه إلى البحر ، فقال موسى : إن هذا ما كنا نطلبه علامة علىّ وصولنا إلى غايتنا وهى مجمع البحرين ، أى أمر الحوت وفقده هو الذى نطلب ، فإن الرجل الذى جئنا من أجله هناك فى هذا المكان ، وارتد موسى والغلام على آثارهما مرة أخرى .

فما الذى يحدث ؟ يلتقى موسى عليه السلام بالعبد الصالح الخضر ، وهو ولى من أولياء الله ، علمه الله العلم الربانى الذى يهبه الله لعباده المتقين كثمرة للإخلاص والتقوى . ويطلب موسى عليه السلام من العبد الربانى سيدنا الخضر عليه السلام أن يتعلم منه بعض الرشد . لكن العبد الربانى الذى وهبه الله من العلم ما يفوق استيعاب القدرة البشرية يقول لموسى عليه السلام :

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) ﴾

(سورة الكهف)

لقد كان موسى على علم سابق بأن ضياع الحوت هو مسألة فى ظاهرها شر لكن فى باطنها خير ؛ لأن ذلك هو السبيل والعلامة التى يعرف بها موسى كيف يلتقى بالعبد الصالح . ويستمر السياق نفسه فى قصة موسى والعبد الصالح ، قصة ظاهرها الشر وباطنها الخير ، سواء فى قصة السفينة التى خرقها أو الغلام الذى قتله ، أو الجدار الذى أقامه .

لقد كان علم العبد الصالح علماً ربانياً ، لذلك أراد موسى أن يتعلم بعضاً من هذا العلم لكن العبد الصالح ينبه موسى عليه السلام أن ما قد يراه هو فوق طاقة الصبر ؛ لأن الذى قد يراه موسى من أفعال إنما قد يرى فيها شراً ظاهراً ، لكن فى باطنها كل الخير .

وقبل موسى عليه السلام أن يقف موقف المتعلم بأدب مع العالم الذى وهبه الله العلم الربانى . ويشترط العبد الربانى على موسى ألا يسأل إلا بعد أن يحدثه العبد الربانى عن الأسباب . ويلتقى موسى والعبد الربانى بسفينة فيصعدان عليها ، ويخرق العبد الربانى السفينة ، فيقول موسى :

﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) ﴾

(سورة الكهف)

فيرد العبد الصالح :

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ويتذكر موسى أنه وعد العبد الصالح بالصبر ، لكن ما الذى يفعله موسى وقد وجد العبد الصالح يخرق سفينة تحملهم فى البحر ؟ إنه أمر شاق على النفس . لذلك يقول موسى :

﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إن موسى يعود إلى وعده للعبد الصالح ، ويطلب منه فقط ألا يكلفه بأمور تفوق قدرته . وينطلق العبد الصالح ومعه موسى عليه السلام ، فيجد العبد الصالح غلاما فيقتله ، فيقول موسى :

﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الكهف)

ويُذكر العبد الصالح موسى أنه لن يستطيع الصبر معه ، ويعتذر موسى عما لا يعلم . ويمر العبد الصالح ومعه موسى بقرية فطلبا من أهل القرية الضيافة ، لكن أهل القرية يرفضون الضيافة ، ويجد العبد الصالح جدارا مائلا يكاد يسقط فيبدأ فى بنائه ، فيقول موسى :

﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(من الآية ٧٧ سورة الكهف)

ويكون الفراق بين العبد الصالح وموسى . ويخبر العبد الصالح موسى بما لم يعلمه ولم يصبر عليه . إن خرق السفينة كان لإنقاذ أصحابها من اغتصابها منهم ؛ لأن هناك ملكا كان يأخذ كل سفينة صالحة غصبًا ، فأراد أن يعيبها ليتركها الملك لهؤلاء المساكين .

وقتل الغلام كان رحمة بأبويه المؤمنين ، كان هذا الابن سيجلب لهما الطغيان والكفر ، وأراد الله أن يبدله خيراً منه .

وأن الجدار الذى أقامه كان فوق كنز ، وكان ليتيمين من هذه القرية وكان والد الغلامين صالحاً ، لذلك كان لابد من إعادة بناء الجدار حتى يبلغ الغلامان أشدهما ويستخرجا الكنز ويقول العبد الصالح عن كل هذه الأعمال :

واقرأ قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إن العبد الصالح لا ينسب هذا العمل الربانى لنفسه ؛ ولكن ينسبه إلى الخالق الذى علمه . إذن فالحق يطلق بعضاً من قضايا الكون حتى لا يظن الإنسان أن الخير دائماً فيما يحب ، وأن الشر فيما يكره ، ولذلك يقول سبحانه : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم » فإن كان القتال كرهاً لكم ، فلعل فيه خيراً لكم . وبمناسبة ذكر الكُره نوضح أن هناك « كَره » و« كُره » . إن « الكَرْه » بفتح الكاف : هو الشيء المكروه الذى تُحمل وتُكْرَهُ على فعله ، أما « الكُره » بضم الكاف فهو الشيء الشاق .

وقد يكون الشيء مكروهاً وهو غير شاق ، وقد يكون شاقاً ولكن غير مكروه . والحق يقول : « كتب عليكم القتال وهو كُره لكم » . ولنلاحظ أن الحق دائماً حينما يشرع فهو يقول : « كُتبَ » ولا يقول : « كَتبت » ذلك حتى نفهم أن الله لن يشرع إلا لـمَنْ آمن به ؛ فهو سبحانه لم يكتب على الكافر أى تكاليف ، وهل يكون من المنطقى أن يكلف الله مَنْ آمن به ويترك الكافر بلا تكليف ؟

نعم ، إنه أمر منطقى ؛ لأن التكليف خير ، وقد ينظر بعض الناس إلى التكليف من زاوية أنه مُقيِّد ، نقول لهم : لو كان التكليف الإيمانى يقيد لكلف الله به الكافر ، ولكن الله لا يكلف إلا مَنْ يحبه ، إنه سبحانه لا يأمر إلا بالخير ، ثم إن الله لا يكلف إلا مَنْ آمن به ؛ لأن العبد المؤمن مع ربه فى عقد الإيمان .

إذن فالله حين يقول : « كُتب » فمعنى ذلك أنه سبحانه يقصد أنه لم يقتحم على أحد حركة اختياره الموهوبة له ، والله سبحانه وتعالى قد ترك للناس حرية الاختيار فى أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا . ومن آمن عن اختيار وطواعية فقد دخل مع الله فى عقد إيمان ، وبمقتضى هذا العقد كتب الله عليه التكاليف . ومن هذه التكاليف القتال ، فقال سبحانه : « كُتب عليكم القتال » .

وقوله : « عليكم » يعنى أن القتال ساعة يكتب لا يبدو من ظاهر أمره إلا المشقة ، فجاءت « عليكم » لتناسب الأمر . وبعد انتهاء القتال إذا انتصرنا فنحن نأخذ الغنائم ، وإذا انهزمنا واستشهدنا فلنا الجنة .

ويعبر الحق عن ظاهر الأمر فى القتال فيقول عنه : « وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم » . إنها قضية عامة كما قلنا . لذلك فعلينا أن نرد الأمر إلى من يعلمه ، « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » فكل أمر علينا أن نرده إلى حكمة الله الذى أجراه ؛ لأنه هو الذى يعلم .

وهناك قصة من التراث الإنسانى تحكى قضية رجل من الصين ، وكان الرجل يملك مكانا متسعا وفيه خيل كثيرة ، وكان من ضمن الخيل حصان يحبه . وحدث أن هام ذلك الحصان فى المراعى ولم يعد ، فحزن عليه ، فجاء الناس ليعزوه فى فقد الحصان ، فابتسم وقال لهم : ومن أدراكم أن ذلك شر لتعزونى فيه ؟

وبعد مدة فوجىء الرجل بالجواد ومعه قطيع من الجياد يجره خلفه ، فلما رأى الناس ذلك جاءوا ليهنئوه ، فقال لهم : وما أدراكم أن ذلك خير ، فسكت الناس عن التهنئة . وبعد ذلك جاء ابنه ليركب الجواد فانطلق به ، وسقط الولد من فوق الحصان فانكسرت ساقه ، فجاء الناس مرة أخر ى ليواسوا الرجل فقال لهم : ومن أدراكم أن ذلك شر ؟

وبعد ذلك قامت حرب فجمعت الحكومة كل شباب البلدة ليقاتلوا العدو ، وتركوا هذا الابن ؛ لأن ساقه مكسورة ، فجاءوا يهنئونه ، فقال لهم : ومن أدراكم

أن ذلك خير ؟ فعلينا ألا نأخذ كل قضية بظاهرها ، إن كانت خيراً أو شراً ، ولكن علينا أن نأخذ كل قضية من قضايا الحياة فى ضوء قول الحق :

﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الحديد)

والحق هو القائل : « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » . ولله المثل الأعلى ، سبق لنا أن ضربنا المثل من قبل بالرجل الحنون الذى يحب ولده الوحيد ويرجو بقاءه فى الدنيا ، لذلك عندما يمرض الابن فالأب يعطيه الدواء المر ، وساعة يعطيه الجرعة فالابن يكره الدواء ولكنه خير له . بعد ذلك يتحدث الحق سبحانه وتعالى عن سؤال آخر يقول فيه :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ
ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ
عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ
حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ
مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ
أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ
هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾

والسؤال هنا ليس عن الشهر الحرام ؛ لأنه كان معروفا عندهم من أيام الجاهلية ، ولكن السؤال عن القتال فى الشهر الحرام ، فما جدوى السؤال إذن ؟ إنه سؤال استفزازى ، والمسألة لها قصة . ونعرف أن للسنة اثنى عشر شهراً ، وقد جعل الله فيها أربعة أشهر حرم : شهر واحد فرد وهو رجب ، وثلاثة سرد ، وهى ذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم . ومعنى أشهر حرم أى أن القتال محرم فيها .

لقد علم الله كبرياء الخلق على الخلق ، لذلك جعل الله لخلقه ساترا يحمى كبرياءهم ، ومن هذه السنن التى سنها الله هى حرمة القتال فى الأشهر الحرم ، والأماكن الحرم ، فيجوز أن الحرب تضر المحارب ، لكن كبرياءه أمام عدوه يمنعه من وقف القتال ، فيستمر فى الحرب مهما كان الثمن . فيأتى الحق سبحانه وتعالى ويقول للمتحاربين : ارفعوا أيديكم فى هذه الشهور لأنى حرمت فيها القتال . وربما كان المحاربون أنفسهم يتمنون من أعماقهم أن يتدخل أحد ليوقف الحرب ، ولكن كبرياءهم يمنعهم من التراجع ، وعندما يتدخل حكم السماء سيجد كل من الطرفين حجة ليتراجع مع حفاظه على ماء الوجه . وكذلك جعل الله أماكن محرمة ، يحرم فيها القتال حتى يقول الناس إن الله هو الذى حرمها ، وتكون لهم ستاراً يحمى كبرياءهم .

إذن فالحق سبحانه وتعالى الذى خلق الإنسان أراد أن يصون الإنسان حتى يحقن الدماء ، فإذا ظل الناس ثلاثة أشهر بلا حرب ، ثم شهراً آخر ، فنعموا فى هذه الفترة بالسلام والراحة والهدوء ، فربما يألفون السلام ، ولا يفكرون فى الحرب مرة أخرى ، لكن لو استمرت الحرب بلا توقف لظل سُعار الحرب فى نفوسهم ، وهذه هى ميزة الأشهر الحرم .

والأشهر الحرم حُرُمٌ فى الزمان والمكان ؛ لأن الزمان والمكان هما ظرف الأحداث ، فكل حدث يحتاج زمانا ومكانا . وعندما يُحرم الزمان ويُحرم المكان فكل من طرفى القتال يأخذ فرصة للهدوء .

إن الحق سبحانه وتعالى يعرض هنا قضية أراد بها خصوم الإسلام من كفار قريش

واليهود أن يثيروها ؛ فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل بعض السرايا للاستطلاع ، والسرية هي عدد محدود من المقاتلين ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأرسل سرية على رأسها عبدالله بن جحش الأسدى ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأرسل معه ثمانية أفراد ، وجعله أميرا عليهم ، وأعطاه كتابا وأمره ألا يفتحه إلا بعد مسيرة يومين ، وذلك حتى لا يعلم أحد أين تذهب السرية ، وفى ذلك احتياط فى إخفاء الخبر .

فلما سارت السرية ليلتين فتح عبدالله الكتاب وقرأه فإذا به : اذهب إلى « بطن نخلة » وهو مكان بين مكة والطائف واستطلع عيرقريش ، ولا تُكره أحدا ممن معك على أن يسير مرغما ، بمعنى أن يكون لكل فرد فى السرية حرية الحركة ، فمن يفضل عدم السير فى السرية فله هذا الحق .

وبينما هم فى الطريق ضل بعير لسعد بن أبى وقاص وعقبة بن غَزْوان ، وذهبا يبحثان عن البعير ، وبقى ستة مقاتلين مع عبدالله ، وذهب الستة إلى « بطن نخلة » فوجدوا « عمرو بن الحضرمى » ومعه ثلاثة على عير لقريش ، فدخلوا معهم فى معركة ، وكان هذا اليوم فى ظنهم هو آخر جمادى الآخرة ، لكن تبين لهم فيما بعد أنه أول رجب أى أنه أحد أيام شهر حرام .

وقتل المسلمون ابن الحضرمى ، قتله واقد بن عبدالله من أصحاب عبدالله ابن جحش ، وأسروا اثنين ممن معه ، وفر واحد ، فلما حدث هذا ، وتبين لهم أنهم فعلوا ذلك فى أول رجب ، عند ذلك اعتبروا أن قتالهم وغنائمهم مخالفة لحرمة شهر رجب .

وثارت المسألة أخذا وردًا بين المسلمين قبل أن تتحدث فيها قريش حيث قالوا : إن محمداً يدعى أنه يحترم المقدسات ويحترم الأشهر الحرم ، ومع ذلك قاتل فى الأشهر الحرم ، وسفك دمنا ، وأخذ أموالنا ، وأسر الرجال . فامتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغنائم والأسرى حتى يفصل الله فى القضية فنزل حكم السماء فى القضية بهذا القول الحكيم :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) ﴾

(سورة البقرة)

نحن مُسلّمون أن القتال فى الشهر الحرام أمر كبير ، ولكن انظروا يا كفار قريش إلى ما صنعتم مع عبادنا وقارنوا بين كِبْر هذا وكِبْر ذاك . أنتم تقولون : إن القتال فى الشهر الحرام مسألة كبيرة ، ولكن صدكم عن سبيل الله وكفركم به ، ومنعكم المسلمين من المسجد الحرام ، وإخراج أهل مكة منها أكبر عند الله من القتال فى الشهر الحرام ، فلا تفعلوا ما هو أكبر من القتال فى الشهر الحرام ، ثم تأخذكم الغيرة على الحرمات .

فكأن الحق أراد أن يضع قضية واضحة هى : لا تأخذوا من جزئيات التدين أشياء وتتحصنوا فيها خلف كلمة حق وأنتم تريدون الباطل فالواقع يعرض الأشياء ، ونحن نقول : نعم إن القتال فى الشهر الحرام كبير . ولكن يا كفار قريش اعلموا أن فتنة المؤمنين فى دينهم وصدهم عن طريق الله ، وكفركم به ـ سبحانه ـ وإهداركم حرمة البيت الحرام بما تصنعون فيه من عبادة غير الله ، وإخراجكم أهله منه ، إن هذه الأمور الآثمة هى عند الله أكبر جرماً وأشد إثماً من القتال فى الأشهر الحرم لاسترداد المسلمين بعض حقهم لديكم .

ولهذا يرد الحق سهام المشركين فى نحورهم « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » أى إياكم أن تعتقدوا أنهم سيحترمون الشهر الحرام ولا المكان الحرام ، بل « ولا يزالون يقاتلونكم » أى وسيصرون ، ويداومون على قتالكم

« حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » .

وتأمل قوله : « إن استطاعوا » إن معناها تجد لهم بأنهم لن يستطيعوا أبدا فـ « إنْ » تأتى دائما فى الأمر المشكوك فيه . ويتبع الحق « ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » سيظلون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا . ثم يختم الحق الآية بقضية يقول فيها : « ومن يرتدد منكم عن دينه » هذه الآية يقابلها آية أخرى يقول الحق فيها :

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾

(من الآية ٥ سورة المائدة)

وإذا قارنّا بين الآيتين نجد أن الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها قد ورد فيها قوله : « فيمت وهو كافر » وفى سورة المائدة لم يرد هذا وإنما ورد قوله : « ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله » وقد اختلف العلماء فى المسألة اختلافات جميلة . ولكنهم اتفقوا أوّلا على أن أى إنسان يرتد عن الإسلام ثم يموت مرتداً فقد حبطت أعماله . ولكن اختلافهم تركز فيما لو رجع وآمن مرة ثانية ، أى لم يمت وهو كافر ، بل رجع فآمن بعد ردته ، فهل حبط عمله أم لم يحبط ؟ .

وللإمام الشافعى رأى يقول : إن الذى يرتد عن الدين تحبط أعماله إن مات على الكفر ، أما إن عاد وأسلم مرة أخرى فإن أعماله التى كانت قبل الارتداد تكون محسوبة له . والإمام أبو حنيفة له رأى مختلف فهو يقول : لا ، إن آية سورة المائدة ليس فيها « فيمت وهو كافر » وعليه فإننا نُحملها على آية سورة البقرة التى ذكر فيها ذلك من باب حمل المطلق على المقيد ، وعلى ذلك فالذى يكفر بعد إيمانه عمله محبط سواء رجع إلى الإيمان بعد ذلك أو لم يرجع ، فلا يحتسب له عمل .

أين موضوع الخلاف إذن ؟ . هب أن إنساناً آمن وأدى فريضة الحج ثم لا قدر الله كفر وارتد ، ثم رجع فآمن أتظل له الحجة التى قام بها قبل الكفر أم تحبط ويطلب منه حج جديد ؟ هذه هى نقطة الخلاف . فالشافعى يرى أنه لا يحبط عمله مادام قد

رَجع إلى الإيمان لأن الله قال : « فيمت وهو كافر » فمعنى ذلك أنه إن لم يمت على الكفر فإن عمله لا يحبط . ولكن لا يأخذ ثوابا على ذلك الحج الذى سبق له أن أداه ، لقد التفت الإمام الشافعى رضى الله عنه إلى شئ قد يغفل عنه كثير من الناس ، وهو أن الحج ركن من أركان الإسلام ، فالذى لا يحج وهو قادر على الحج فالله يعاقبه على تقصيره ، والذى حج لا يعاقب ويأخذ ثواب فعله .

فكأن الأعمال التى طلبها الحق سبحانه وتعالى إن لم تفعلها وكانت فى استطاعتك عوقبت ، وإن فعلتها يمر عملك بمرحلتين ، المرحلة الأولى هى ألا تُعاقب ، والمرحلة الثانية هى أن تُثاب على الفعل . فالشافعى قال : إن الشخص إذا فعل فعلاً يُثاب عليه الإنسان ، ثم كفر ، ثم عاد إلى الإسلام فهو لا يُعاقب ، ولكنه لا يُثاب . أما الإمام أبو حنيفة فقد قال : إنه لا عبرة بعمله الذى سبق الردة مصداقا لقوله تعالى : « حبطت أعمالهم » أى أُبطلت وزالت ، وكأنها لم تكن .

إنّ القرآن استخدم هنا كلمة « حبط » ، وهى تُستخدم تعبيراً عن الأمر المحسوس ، فيقال : « حبطت الماشية » أى أصابها مرض اسمه الحُباط ، لأنها تأكل لونا من الطعام تنتفخ به ، وعندما تنتفخ فقد تموت . والنبى عليه الصلاة والسلام يقول : « إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم »[1] .

إنه صلى الله عليه وسلم يحذرنا من أن الخير قد يندس فيه شر ، مثلما يحدث فى الربيع الذى ينبت فيه من النبات الذى يعجب الماشية فتأكله فيأتيها مرض « الحباط » ، فتنتفخ ثم تموت ، أو « يلم » أى توشك أن تموت ، وكذلك الأعمال التى فعلها الكفار تصبح ظاهرة مثل انتفاخ البطن ، وكل هذه العمليات الباطلة ستحبط كما تحبط الماشية التى أكلت هذا اللون من الخضر ، ثم انتفخت فيظن المشاهد لها أنها سمنة ؛ وبعد ذلك يفاجأ بأنه مرض . لقد أعطانا الله من هذا القول المعنى المحسوس لتشابه الصورتين ؛ فالماشية عندما تحبط تبدو وكأنها نمت وسمنت ، لكنه نمو غير طبيعى إنه ليس شحماً أو لحما ، لكنه ورم ، كذلك عمل الذين كفروا ؛ عمل حابط ، وإن بدا أنهم قد قاموا بأعمال ضخمة فى ظاهرها أنها طيبة وحسنة .

(١) رواه البخارى والترمذى وابن ماجه .

ويقول بعض الناس : وهل يُعقل أن الكفار الذين صنعوا إنجازات قد استفادت منها البشرية ، هل من المعقول أن تصير أعمالهم إلى هذا المصير ؟ . لقد اكتشفوا علاجا لأمراض مستعصية وخففوا آلام الناس ، وصنعوا الآلات المريحة والنافعة . ونقول لأصحاب مثل هذا الرأى : مهلا ، فهناك قضية يجب أن نتفق عليها وهى أن الذى يعمل عملاً ؛ فهو يطلب الأجر ممن عمل له ، فهل كان هؤلاء يعملون وفى بالهم الله أم فى بالهم الإنسانية والمجد والشهرة ؟ . لقد أعطتهم الإنسانية المجد والشهرة ، وماداموا قد نالوا هذا الأجر فى الدنيا فليس لهم أن ينتظروا أجراً فى الآخرة . لذلك يقول الحق :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة النور)

إن الكافر يظن أن أعماله صالحة نافعة لكنها فى الآخرة كالسراب الذى يراه الإنسان فى الصحراء فيظنه ماء ، ويجد نفسه فى الآخرة أمام لحظة الحساب فيوفيه الله حسابه بالعقاب ، وليس لهم من جزاء إلا النار ، وينطبق عليهم ما ينطبق على كل الكافرين بالله ، وهو «وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» .

هذا وإن الحق سبحانه وتعالى يوضح حقيقة الأمر للمؤمنين به وبرسوله صلى الله عليه وسلم حتى يعطيهم مناعة إيمانية ضد آمال الكافرين فى الإضرار بالمؤمنين ، فيعلمنا أنهم لن يدخروا وسعا حتى يردوكم عن دينكم ؛ لأن منهج الله دائماً لا يخيف إلا المبطلين ؛ فالإنسان السوى الذى يريد أن يعايش العالم فى سلام ويأخذ من الخير على قدر حركته فى الوجود لا ترهقه سيادة مبادىء الإسلام ، إنما تُرهق مبادىء الإسلام هؤلاء الذين يريدون أن يسرقوا عرق وكدّ غيرهم وهم يبذلون كل الجهد ويستخدمون كافة الأساليب التى تصرف المسلمين عن دينهم ، ولكن هل يُمكّنهم الله من ذلك ؟ لا ؛ فلا يزال هناك أمل فى الخير إن تمسكت أمة الإسلام بالمنهج الحق .

إنه سبحانه يعطى المناعة للمؤمنين ، والمناعة ـ كما نعرف ـ هى أن تنقل للسليم

ميكروب المرض بعد إضعافه ، وبذلك تأخذ أجهزة جسمه فرصة لأن تنتصر على هذا الميكروب ؛ لذلك قال الحق : « ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم » . إن الخلاف الجوهرى بين المؤمن والكافر ، هو أن المؤمن إنما يعمل العمل الصالح وفى نيته أن المكافىء هو الله ، وهو يتجه بنية خالصة فى كل عمل . ويأخذ بأسباب الله فى العلم لينتفع به غيره من الناس ؛ فتكون الفائدة عميمة وعظيمة ، وعلى المؤمن أن يكون سباقاً إلى الاكتشاف والاختراع ونهضة العالم المسلم ، وأن يكون المؤمن العالم منارة تشع بضوء الإيمان أمام الناس ، لا أن يترك غيره من الكافرين يصلون إلى المكتشفات العلمية وهو متواكل كسلان .

إن على المؤمن أن يأخذ بأسباب الله فى الحياة ؛ لأن الإسلام هو دين ودنيا ، وهو دين العلم والتقدم ، ويضمن لمن يعمل بمنهجه سعادة الدنيا وسعادة الآخرة . وإذا كان المؤمن يستمتع بإنتاج يصنعه الكافر فليعلم أن الكافر إنما أخذ أجره مُسخراً ممن عمل له ، أما المؤمن فحين يتفوق فى الصناعة والزراعة والعلم والاكتشاف فهو يأخذ الأجر فى الدنيا وفى الآخرة ؛ لأن الذى يعطى هنا هو الله .

أما عمل الكافر فهو عمل من مسخر كالمطايا وكالجماد والنبات والحيوان المسخرة لخدمة الإنسان . وإذا كان الله قد ميز المؤمن على الكافر بالأجر فى الدنيا وحسن الثواب فى الآخرة ، ألا يليق بالمؤمن أن يسبق الكافر فى تنمية المجتمع الإسلامى ، وأن يكون بعمله منارة هداية لمن حوله ؟! ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾

إن الآية قد عددت ثلاثة أصناف : الصنف الأول هم الذين آمنوا ، والصنف

الثانى هم الذين هاجروا ، والصنف الثالث هم الذين جاهدوا . إن الذين آمنوا إيماناً خالصاً لوجه الله ، وهاجروا لنصرة الدين ، وجاهدوا من أجل أن تعلو كلمة الإسلام هؤلاء قد فعلوا كل ذلك وهم يرجون رحمة الله . ولقائل أن يقول : أليست الرحمة مسألة متيقنة عندهم ؟

ونقول : ليس للعبد عند الله أمر متيقن ؛ لأنك قد لا تفطن إلى بعض ذنوبك التى لم تُحسن التوبة منها ، ولا التوبة عنها . وعليك أن تضع ذلك فى بالك دائماً ، وأن تتيقن من استحضار نية الإخلاص لله فى كل عمل تقوم به ؛ فقد تحدثك نفسك بشىء قد يفسد عليك عملك ، وكذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سيد الخلق وسيد الموصولين بربهم يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع وعمل لا يُرفع ودعاء لا يُسمع »(١) .

إن الرسول الكريم وهو سيد المحتسبين فى كل أعماله يعلمنا أن النفس قد تخالط صاحبها بشىء يفسد الطاعة . وعلى المسلم أن يظل فى محل الرجاء . والمؤمن الذى يثق فى ربه لا يقول : إن على الله واجباً أن يعمل لى كذا ؛ لأن أصل عبادتك لله سبق أن دُفع ثمنها ، وما تناله من بعد ذلك هو فضل من الله عليك ، مدفوع ثمنها لك إيجاداً من عدم وإمداداً من عُدْم ، ومدفوع ثمنها بأن متعك الله بكل هذه الأشياء ، فلو قارنت بين ما طلبه الله منك - على فرض أنك لا تستفيد منه - فقد أفدت مما قدم لك أوّلا ، وكل خير يأتيك من بعد ذلك هو من فضل الله عليك ، والفضل يُرجى ولا يُتيقن .

وعظمة الحق سبحانه وتعالى فى أنك تدعوه خوفاً وطمعاً . ويقول هذا المثل - ولله المثل الأعلى - إن من عظمتك أمام والدك أنك تجد لك أباً تخاف منه ، وترغب أن يحقق لك بعضاً من أحلامك ، ولو اختلت واحدة من الاثنتين لاختلت الأبوة والبنوة .

كذلك عظمة الرب يُرغب ويُرهب : إن رغبت فيه ولم ترهبه فأنت ناقص

(١) رواه أحمد والحاكم وابن حبان عن أنس .

الإيمان ، وإن رهبت ولم ترغب فإيمانك ناقص أيضاً ، لذلك لابد من تلازم الاثنتين : الرهبة والرغبة . ولو تبصّر الإنسان ما فرضه الله عليه من تكاليف إيمانية لوجدْ أنه يفيد من هذه التكاليف أضعافاً مضاعفة . فكل ما يجازى به الله عباده إنما هو الفضل ، وهو الزيادة . وكل رزق للإنسان إنما هو محض الفضل . ومحض الفضل يُرجى ولا يُتيقن .

وها هو ذا الحق يقول :

﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إن الدنيا كلها مسخرة تحت قهر الرحمن ومشيئته وتسخيره ، وله تمام التصرف فى كل الكائنات وهو الخالق البديع ، لذلك فليدع الإنسان الله بخشوع وخضوع فى السر والعلانية ، والحق لا يحب مَن يعتدى بالقول أو الرياء أو الإيذاء .

إن الإيمان يجب أن يكون خالصا لله ، فلا يفسد الإنسان الأرض بالشرك أو المعصية ؛ لأن الحق قد وضع المنهج الحق لصلاح الدنيا وهو القرآن ، ورسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورحمة الله قريبة من المطيعين للحق جل وعلا .

إن عظمة الرب فى أنه يُرغب ويُرهب ؛ إن رغبت فيه ولم ترهبه فعملك غير مقبول ، وإن رهبته ولم ترغب فعملك غير مقبول . إن الرغب والرهب مطلوبان معاً ، لذلك فالمؤمن المجاهد فى سبيل الله يرجو رحمة الله .

والحق يقول : « أولئك يرجون رحمة الله » ، ما هى الرحمة ؟ الرحمة ألا تبتلى بالألم من أول الأمر ، والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الإسراء)

الشفاء هو أن تكون مصابا بداء ويبرئك الله منه ، لكن الرحمة ، هى ألا يأتى الداء أصلا « والله غفور رحيم » .

والله سبحانه وتعالى يعلم عن عباده أن أحداً منهم قد لا يبرأ من أن يكون له ذنب . فلو حاسبنا بالمعايير المضبوطة تماما فلسوف يتعب الإنسان منا ، ولذلك أحب أن أقول ـ دائما ـ مع إخوانى هذا الدعاء : « اللهم بالفضل لا بالعدل وبالإحسان لا بالميزان وبالجبر لا بالحساب » . أى عاملنا بالفضل لا بالعدل ، وبإحسانك لا بالميزان ، لأن الميزان يتعبنا .

ولقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن دخول الجنة لا يكون بالأعمال وحدها ، ولكن بفضل الله ورحمته ومغفرته . إن الرسول الكريم يقول :

« لن يدخل أحدكم الجنة بعمله . فقالوا : ولا أنت يا رسول الله ، قال : ولا أنا حتى يتغمدنى الله برحمته »[1] .

إذن فالمؤمن يرجو الله ولا يشترط على الله ، إن المؤمن يتجه بعمله خالصا لله يرجو التقبل والمغفرة والرحمة ، وكل ذلك من فضل الله . ويأتى الحق لسؤال آخر :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾

---

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم والبيهقى .

والخمر ـ كما نعرف ـ مأخوذة من الستر ، ويقال : « دخل فلان في خمرة » أي في أيكة من الأشجار ملتفة فاختبأ فيها . و« الخمار » هو القناع الذي ترتديه المسلمة لستر رأسها ، وهو مأخوذ أيضا من نفس المادة . و« خامره الأمر » أي خالطه . وكل هذه المعاني مأخوذة من عملية الستر . و« الميسر » مأخوذ من اليسر ؛ لأنه يظهر للناس بمكاسب يسيرة بلا تعب .

الخمر والميسر من الأمور التي كانت معروفة في الجاهلية . والإسلام حين جاء ليواجه نظما جاهلية واجه العقيدة بلا هوادة ، ولم يجابهها ويواجهها على مراحل بل أزالها من أول الأمر ، ورفع راية « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، ثم جاء الإسلام في الأمور التي تُعتبر من العادات فبدأ يهونها ؛ لأن الناس كانت تألفها ، لذلك أخذها بشيء من الرفق والهوادة . وكان هذا من حكمة الشرع ، فلم يجعل الأحكام في أول الأمر عملية قسرية فقد يترتب عليها الخلل في المجتمع وفي الوجود كله ، وإنما أخذ الأمور بالهوادة .

وإذا كانت الخمرة مأخوذة من الستر ، فماذا تستر ؟ إنها تستر العقل بدليل أن من يتعاطاها يغيب عن وعيه . ولا يريد الله سبحانه وتعالى للإنسان الذي كرمه الله بالعقل أن يأتي للشيء الذي كرمه به ويُسَيِّر به أمور الخلافة في الأرض ويستره ويغيِّبه ، لأن من يفعل ذلك فكأنه رد على الله النعمة التي أكرمه بها ، وهذا هو الحمق .

ثم إن كل الذين يتعاطون الخمر يبررون فعلهم بأنهم يريدون أن ينسوا هموم الدنيا ، ونسأل هؤلاء : وهل نسيان الهموم يمنع مصادرها ؟ لا ، ولذلك فالإسلام يطلب منك أن تعيش همومك لتواجهها بجماع عقلك ، فإذا كانت هناك هموم ومشكلات فالإسلام لا يريد منك أن تنساها ، لا ، بل لابد أن توظف عقلك في مواجهتها ، ومادام المطلوب منك أن تواجه المشكلات بعقلك فلا تأتي لمركز إدارة الأمور الحياتية وهو العقل،والذي يعينك على مواجهة المشكلات وتقهره بتغييبه عن العمل .

وهل النسيان يمنع المصائب ؟ إن الذي يمنع المصائب هو أن تحاول بجماع فكرك أن

تجد السبيل للخروج منها ، فإذا كان الأمر ليس فى استطاعتك فمن الحمق أن تفكر فيه ؛ لأن الله يريد منك أن تريح عقلك فى مثل هذه الأمور ، وإن كان الأمر له حل وفى استطاعتك حله ، فأنت تحتاج للعقل بكامل قوته .

والحق سبحانه وتعالى يرشدنا فى هذه القضية بحكمة الحكيم ، ويعطينا عطاء لنحكم نحن فى الأمر قبل أن يطلب منا . إنه ـ سبحانه ـ يمتن علينا ويقول :

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾

(من الآية ٦٧ سورة النحل)

فعندما ذكر الله « سَكَراً » مر عليها بلا تعليق . وعندما قال : « رزقاً » وصفه بأنه « حسناً » . فكان يجب أن نتنبه إلى أن الله يمهد لموقف الإسلام من الخمر ؛ فهو لم يصف « السكر » بأى وصف ، وجعل للرزق وصفا هو الحسن ؛ فالناس عندما يستخرجون من هذه الثمرات سكراً ، فهم قد أخرجوها عن الرزق الحسن ، لأن هناك فرقاً بين أن تأخذ من العنب غذاءً وبين أن تخمره فتفسده وتجعله ساتراً للعقل .

وبعد ذلك فهناك فرق بين تشريع ونصح . فعندما تنصح شخصا فأنت تقول له : سأدلك على طريق الخير وأنت حر فى أن تسير فيه أو لا تسير . وعندما تشرع وتضع الحكم ، فأنت تأمر هذا الشخص أو ذاك بأن يفعل الأمر ولا شيء سواه .

والحق سبحانه وتعالى عندما قال : « يسألونك عن الخمر والميسر » ، ذكر لنا المفاسد وترك لنا الحكم عليها ، قال سبحانه مُبلِّغاً رسوله : « قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس » ولو لم يقل « ومنافع للناس » لاستغرب الناس وقالوا : نحن نأخذ من الخمر منافع ، ونكتسب منها ، وننسى بها همومنا ، كانت هذه هى المنافع بالنسبة لهم ، لكن الحق يوضح أن إثمهما أكبر من نفعهما ، أى أن العائد من وراء تعاطيهما أقل من الضرر الحادث منهما ، وهذا تقييم عادل ، فلم تكن المسألة قد دخلت فى نطاق التحريم ، لأنها مازالت فى منطقة النصح والإرشاد .

وقوله تعالى : « وإثمهما أكبر من نفعهما » يجعل فيهما نوعا من الذنب ، لقد كان

التدرج فى الحكم أمراً مطلوباً لأنه سبحانه يعالج أمراً بإلف العادة ، فيمهد سبحانه ليخرجه عن العادة . والعادة شيء يقود إلى الاعتياد ؛ بحيث إذا مر وقت ولم يأت ما تعوّدَتْ عليه نفسيتُك ودمك يحدث لك اضطراب . وما دامت المسألة تقود إلى الاعتياد ، فالأفضل أن تسد الباب من أوله وتمنع الاعتياد .

لقد كانت بداية الحكم فى أمر الخمر أن أحداً من المسلمين شرب الخمر قبل أن تُحرم نهائياً ، وجاء ليصلى ، فقال : « قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون » وبعدها نزل تأديب الحق بقوله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ .. (٤٣) ﴾ (سورة النساء)

وفى ذلك تدريب لِمَنْ اعتاد على الخمر ألا يقربها ؛ فالإنسان الذى يصلى صدر عليه الحكم ألا يقرب الصلاة وهو سكران ، فمتى يمتنع إذن ؟ إنه يصحو من نومه فلا يقرب الخمر حتى يصلى الصبح ، ويقترب الظهر فيستعد للصلاة ، ثم العصر بعد ذلك ، ويليه المغرب فالعشاء ، أى لن يصبح عنده وقت ليشرب فى الأوقات التى ينتظر فيها الصلاة ، إذن فلا تصبح عنده فرصة إلا فى آخر الليل ، فإذا ما جاء الليل يشرب له كأساً ثم يغط فى نومه . ويكون الوقت الذى امتنع فيه عن الخمر أطول من الوقت الذى يتعاطى فيه الخمر .

ولما بدأ تعودهم على الخمر يتزعزع ، حدثت بعض الخلافات والمشكلات التى دفعتهم لأن يطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوضح لهم حكماً فاصلاً فى الخمر فنزل قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ

ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾

(سورة المائدة)

فقالوا : انتهينا يارب .

إذن فالحق سبحانه وتعالى أراد بتحريم الخمر أن يحفظ على الإنسان عقله ؛ لأن العقل هو مناط التكليف للإنسان ، وهو مناط الاختيار بين البدائل ، فأراد الحق أن يصون للإنسان تلك النعمة .

إن هدف الدين فى المقام الأول سلامة الضرورات الخمس التى لا يستغنى عنها الإنسان : سلامة النفس ، وسلامة العرض ، وسلامة المال ، وسلامة العقل ، وسلامة الدين . وكل التشريعات تدور حول سلامة هذه الضرورات الخمس ، ولو نظرت إلى هذه الضرورات تجد أن الحفاظ عليها يبدأ من سلامة العقل ، فسلامة العقل تجعله يفكر فى دينه . وسلامة العقل تجعله يفكر فى حركة الحياة . وسلامة العقل تجعله يحتاط لصيانة العرض .

إذن فالعقل هو أساس العملية التكليفية التى تدور حولها هذه المسألة ، والحق سبحانه وتعالى يريد ألا يخمر الإنسان عقله بأى شىء مُسكر . حتى لا يحدث عدوان على هذه الضرورات الخمس .

وقد جمع الله فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بين الخمر والميسر ، وهو جل وعلا يريد أن يحمى غفلة الناس . فلعب الميسر يتمثل فى صورته البسيطة فى اثنين يجلسان أمام بعضهما البعض ، وكل واحد منهما حريص على أن يأخذ ما فى جيب الآخر ، فأى أخوة تبقى بين هؤلاء ؟ إن كلاً منهما حريص على أن يعيد الآخر إلى منزله خاوى الجيوب فأى أخوة تكون بين الاثنين ؟

ومن العجيب أنك ترى الذين يلعبون الميسر فى صورة الأصحاب ، ويحرص كل منهما على لقاء الآخر ، فأى خيبة فى هذه الصداقة ؟!

ومن العجيب أن يقر كل من الطرفين صاحبه على فعله ، يأخذ ماله ويبقى على صداقته ، والعجب الأكبر هو التدليس والسرقة بين الذين يتعودون على لعب الميسر . ولو لاحظت حياة هؤلاء الذين يلعبون الميسر تجدهم ينفقون ويبذرون بلا احتياط ولا ينتفعون أبداً بما يصل أيديهم من مال مهما كان كثيراً ، لماذا ؟

لأن المال حين يُكتسب بيسر ، يُصرف منه بلا احتياط ، هذا هو حال من يكسب ، أما بالنسبة للخاسر فتجده يعيش في الحسرة والألم على ما فقد ، وتجده في فقر دائم ، وربما اضطر إلى التضحية بعرضه وشرفه ، إن لم يبع ملابسه ، وأعز ما يملك ، ويحدث كل ذلك بأمانٍ زائفة ، وآمال كاذبة يزينها الشيطان للطرفين ؛ الذي كسب والذي خسر ، فالذي كسب يتمنى زيادة ما معه من مال أكثر وأكثر ، والذي خسر يأمل أن يسترد ما خسره ويكسب .

وعندما يتعود الإنسان أن يكسب بدون حركة فكل شيء يهون عليه ، ويعتاد أن يعيش على الكسب السهل الرخيص ، وحين لا يجد من يستغفله ليلعب معه ربما سرق أو اختلس . وهذا هو حال الذين يلعبون الميسر ؛ إنهم أصحاب الرذائل في المجتمع ، فهم الذين يرتشون ويسرقون ويعربدون ، ولا أخلاق عندهم وليس لهم صاحب ولا صديق ، وبيوتهم منهارة ، وأسرهم مفككة ، وعليهم اللعنة حتى في هيئتهم وهندامهم .

ولذلك قال الحق : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » ومادام الإثم أكبر من النفع ، فقد رجح جانب الإثم . هذا في العملية الذاتية ، أما في العملية الزمنية فقد قال سبحانه :

﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة النساء)

وبعد ذلك أنهى ـ سبحانه ـ المسألة تماما بقوله الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ

﴿ ... الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ثم تمضى الآية إلى سؤال آخر هو « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » إنه السؤال نفسه من عمرو بن الجموح وكان الجواب عليه من قبلُ هو « قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل » وهنا جواب بشكل وصورة أخرى « قل العفو » والعفو معناه الزيادة وفى ذلك يقول الحق ـ سبحانه وتعالى ـ :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إن الله ـ جلت قدرته ـ يحذر وينذر لعل الناس تتذكر وتعتبر ، إنه ـ سبحانه ـ لم يرسل نبيًّا إلى قوم فقابلوه بالتكذيب والنكران إلاّ أخذهم وابتلاهم بالفقر والبؤس والمرض والضر لعلهم يتوبون إلى ربهم ويتذلّلون له ـ سبحانه ـ ليرفع عنهم ما ابتلاهم به ، ثم لما لم يرجعوا ويقلعوا عما هم فيه من الكفر والعناد اختبرهم وامتحنهم بالنعم ؛ بالخصب والثراء والعافية والرخاء حتى كثروا وزادت أموالهم وخيراتهم ، وقالوا ـ وهم فى ظل تلك النعم ـ : إن ما يصيبنا من سراء وضراء وخير وشر إنما هو سنة الكون ، وعادة الدهر ، فأسلافنا وآباؤنا كان يعتريهم مثل ما يصيبنا ، ولما أصروا على كفرهم باغتهم الله بالعذاب ، وأنزل بهم العقاب المفاجىء . قلبهم الله بين الشدة والرخاء ، وعالجهم بالضر واليسر ، حتى لا تكون لهم حجة على الله، ولما ظهرت خسة طبعهم وأقاموا على باطلهم أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر . ولنتأمل قوله تعالى فى ذلك :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ

مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا
فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾

(سورة الأنعام)

أى لم نعجل بعقابهم بل تركناهم فتمادوا فى المعصية حتى إذا فرحوا بما أوتوا من النعمة والثروة وكثرة العدد ، « أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » أى يائسون من رحمة الله أو نادمون متحسرون ، ولا ينفعهم الندم حينئذ . فقد فاتت الفرصة وضيّعوها على أنفسهم .

إن الحق ينزل هذا الأمر كعقاب وبه تكون النقلة صعبة ، إنهم يتمادون ويعاقبهم الحق عقابا صاعقا ، كالذى يرفع كائنا فى الفضاء ثم يتركه ليهوى على الأرض ، والعفو هنا يمكن أن يكون بمعنى أنهم ازدادوا فى الطغيان . وهناك معنى آخر للعفو ، فقد يأتى بمعنى الترك :

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة البقرة)

أى فمن ترك له أخوه شيئا فليأخذه . إذن فالعفو تارة يكون بمعنى الزيادة ، وتارة أخرى يكون بمعنى الترك ، والحق هنا يقول : « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » أى أن الإنفاق إنما يكون من الزائد عن الحاجة ، فيكون معنى العفو هنا هو الزائد أو المتروك ، وهكذا نرى أن العفو واحد فى كلا الأمرين ، فلا تظن أن المعانى تتضارب ؛ لأن بها يتحقق المعنى المقصود فى النهاية . فالعفو هو الزيادة ، والعفو أيضا يؤخذ بمعنى الصفح .

إذن فالإنفاق من الزائد عن الحاجة يحقق الصفح ويحقق الرفاهية فى المجتمع . فالذى يزرع أرضا وينتج ما يكفيه هو وعياله ويزيد ، فهل يترك ما يزيد عن حاجته ليفسد أم ينفق منه على قريبه أو جاره المحتاج ؟ أيها أقرب إلى العقل والمنطق ؟ وكان ذلك قبل أن يشرع الحق الزكاة بنظامها المعروف . وما سر تبديلها من عفو إلى زكاة ؟

لأن الحق أراد أن يقدر حركة المتحرك ، فجعل حركته تخفف عنه ولا تثقل عليه . لأن حركة المتحرك تنفع المتحرك ، أراد المتحرك أو لم يرد ؛ ولذلك نجد « زكاة الركاز » وهى الزكاة المفروضة على ما يوجد فى باطن الأرض من ثروات كالمعادن النفيسة والبترول وغيرها ، لقد جعل الحق نصاب تلك الزكاة عشرين فى المائة ، أى الخمس بينما الذى يحرث الأرض ويبذر فيها الحب ويتركها حتى ينزل المطر فتنمو ، فنصاب الزكاة هو العشر على ما أنتجته زراعته .

وأما الذى يزرع على ماء الرى فعليه نصف العشر . والذى يتاجر كل يوم ويتعب فيذهب للمنتج يشترى منه ، ثم يوفر السلعة على البائع فيشتريها ، هذا نقول له : عليك اثنان ونصف فى المائة (٢,٥٪) فقط .

إذن فالزكاة متناسبة مع الحركة والجهد ، كأن الحق يحمى الحركة الإنسانية من حمق التقنين البشرى . إن المتحرك القوى يدفعه الله ليزيد من حركته لينتفع المجتمع ، وأوكل الله للحاكم الذى يتبع منهج الإسلام أن يأخذ من الأثرياء ما يقيم به كرامة الفقراء . إنْ بَخِلَ الأغنياء بفضل الله عليهم ، ولم ينفقوا على الفقراء من رزق الله ؛ فالمنهج الحق يحمى المال من فساد الطمع ، ومن فساد الكسل ، ويريد الحياة مستقيمة وآمنة للناس .

فالذى ينفق من ماله على أهله يحيا وهو آمن . وكذلك من ينفق على أهله وتوابعه فتزداد دائرة الأمان ، وهكذا لقد حمى الله بالزكاة طموح البشر من حمق التقنين من البشر ، فالمقنن من البشر يأتى للمتحرك أكثر ويزيد عليه الأعباء ، نقول له : إن هذا المتحرك إن لم يقصد أن ينفع المجتمع فالمجتمع سينتفع بجهده بالرغم عنه ؛ فالإنسان الذى يملك مالا يُلقى الله خاطرا فى باله ، فيقول : « ماذا لو بنيت عمارة من عشرة أدوار ، وفى كل دور أربع شقق » ويحسب كم تعطيه تلك العمارة من عائد كل شهر . إن هذا الرجل لم يكن فى باله إلا أن يربح ، فنتركه يفكر فى الربح ، وعندما نراقب الفائدة التى ستعود على المجتمع منه فسنجد الفائدة تعود على المجتمع من هذا العمل ، ولنا أن نحسب كم فردا سوف يعمل فى بناء تلك العمارة الجديدة ؟ ابتداء من البنائين ومرورا بالنجارين والحدادين والمبيضين والسباكين وغيرهم .

إن كل طبقات المجتمع الفقيرة تكون قد أفادت واستفادت من مال هذا الرجل قبل أن يدخل جيبه مليم واحد ؛ لقد ألقى الله فى نفسه خاطراً ، فأخرج كل ما فى جيبه ، وألقاه فى جيوب الآخرين قبل أن توجد له عمارة . وهكذا يحمى الله حركة المتحرك لأن حركته ستفيد سواء قصد إلى ذلك أو لم يقصد .

أما إذا قلنا له : سنأخذ ما يزيد على حاجتك قسراً فلا بد أن يقول لنفسه : «سأجعل حركتى على قدر حاجتى ولا أزيد إلا قليلاً » . والحق عز وجل لا يريد أن يشيع هذا المنطق بين الناس ، ولكن يريد لهم أن يتحركوا فى الحياة بالجدية والحلال ، وكلما تكثر حركتهم تقل الزكاة المفروضة عليهم ، لأن الحركة لا يستفيد منها صاحبها فقط ولكن يستفيد منها المجتمع ، فبعضه يسكن ، وآخر يزرع ، وثالث يعمل ، وخير للإنسان أن يأكل من عمل يديه من أن يأكل من صدقات الناس وزكاتهم .

عن المقدام بن معديكرب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده »(١) .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾

إن الحق يبدأ هذه الآية بقوله : « فى الدنيا والآخرة » وكأنه يقول لنا : إياكم أن

(١) رواه أحمد والبخارى .

تعتقدوا أن كل تكليف من الله جزاؤه فى الآخرة فقط ، أبدا،إن الجزاء سيصيبكم فى الدنيا أيضا .

وتأمل سيرة المستقيمين الملتزمين بمنهج دينهم ومنهج الأخلاق فى حياتهم تجدهم قد أخذوا جزاءهم فى الدنيا رضا وسعادة وأمنا حتى أنك تجد الناس تتساءل : كيف ربى فلان أولاده،وكيف علمهم برغم أن مرتبه بسيط ؟

هم لا يعلمون أن يد الله معه بالبركة فى كل حركات حياته . فلا تظن أن الجزاء مقصور على الآخرة فقط ، بل يعجل الله بالجزاء فى الدنيا ، أما الآخرة فهى زيادة ، ونحن نأخذ متاع الآخرة بفضل الله . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ، قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته »(١) .

وأحب أن يتأمل كل منا أحوال الناس المستقيمين فى منهج الحياة ، ويرى كيف يعيشون وكيف ينفقون على أولادهم ، ويتأمل البشر والرضا الذى يتمتعون به ، وكيف تخلو حياتهم من المشاكل والعقد النفسية .

وكأنه سبحانه وتعالى يلفتنا إلى أن كل ما جاء فى المنهج القويم ، إنما جاء لينظم لنا حركة الحياة ويخرجنا من أهواء النفوس .

ونقول بعد أن استكمل الحق الكلام عن الحج وهو الركن الخامس من أركان الإسلام ، بين لنا صنفين من المجتمع : أما الصنف الأول فهو الصنف المنافق الذى لا ينسجم منطقه مع واقع قلبه ونفسه :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ

(١) أخرجه الإمام البخارى ومسلم والإمام أحمد فى مسنده والبيهقى وغيرهم بروايات مختلفة .

﴿ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وليت هذا الصنف حين يتنبه إلى ذلك يرتدع ويرجع ، لا ، إنه إذا قيل له من ناصح محب مشفق : « اتق الله » أخذته العزة بالإثم !! . والصنف الآخر في المجتمع هو من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، ويتمثل ذلك في أنه إما أن يبيع نفسه في القتال فيكون شهيداً ، وإما أن يستبقيها استبقاءً يكون فيه الخير لمنهج الله . فقال سبحانه :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ثم تكلم الحق عن الدخول في السلم كافة ، والدخول في السلم أي الإسلام يطلب منا أن ندخل جميعاً في كل أنواع السلم في الحياة ، سلم مع نفسك فلا تتعارض ملكاتك ، فلا تقول قولاً يناقض قلبك ، وسلمٌ مع المجتمع الذي تعيش فيه ، وسلم مع الكون الذي يخدمك جماداً ونباتاً وحيواناً ، وسلم مع أمتك التي تعيش فيها ، فقال سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

كل ذلك يدلنا على أن الحق حين خلق الخلق ، وضع لهم المنهج الذي يضمن لهم السلامة والأمن في كل أطوار هذه الحياة ، فإن رأيت خللا أو اضطراباً في الكون ، أو رأيت خوفاً أو قلقاً فاعلم أن منهجاً من مناهج الإسلام قد عُطل . والحق سبحانه وتعالى حينما يأمرنا أن ندخل في السلم كافة فهو سبحانه يحذرنا أننا إن زللنا عن المنهج فإن الله عزيز حكيم فلا يغلبه أحد ، ولا يقدر عليه أحد ، فهو القادر القوى الذي يُجرى كل شيء بحكمة ، فلا تظنوا أنكم بذلك تسيئون إلى الله بالزلل عن منهجه ، وإنما تسيئون إلى أنفسكم وإلى أبناء جنسكم ؛ لأن الله لا يُغلب .

وينبهنا الحق سبحانه تنبيها آخر ، إنه يلفتنا إلى أننا لا نملك أمر الساعة ، فالساعة تأتى بغتة ومفاجئة ، صاخة طامة ، مرجفة مزلزلة . فاحذروا أن تصيبكم هذه الرجفة وأنتم فى غفلة عنها . وكل ذلك لندخل أيضا فى السلام فى اليوم الآخر ، وكأن الحق سبحانه يلفتنا إلى أن كلمات القرآن ليست مجرد كلمات نظرية ، ولكنها كلمات الحكيم الخبير التى حكمت تاريخ الأمم التى سبقت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم .

فكم من آيات أرسلها الحق إلى بنى إسرائيل فتلكأوا وكان منهم ما كان ، وشقوا هم ، وشقى بهم المجتمع ، إذن فالكلام ليس كلاماً نظرياً . ويريد الله لنا أن ننظر بعمق إلى أمور الحياة ، وألا ننظر إلى سطحيات الأمور ، فيجب ألا تخدعنا زينة الحياة الدنيا عن الحياة الآخرة ؛ لأن الحياة الدنيا أمَدُها قصير ، وعلينا أن نقيس عمر الدنيا بأعمارنا منها ، وأعمارنا فيها قصيرة ؛ لأن منا من يموت كبيراً ومنا من يموت صغيراً .

ويبين لنا الحق سبحانه أنه لم يترك خلقه هملاً ، وإنما أرسل لهم رسُلاً يبينون لهم منهج الله ، فكان الناس أمة واحدة مجتمعة على الحق إلى أن تحركت الأهواء فى نفوسهم ، ومع ذلك رحمهم الله فلم يسلمهم إلى الأهواء ، بل استمر موكب الرسالات فى البشر ، وكلما غلبتهم الأهواءوطمّ الفساد ، أرسل الحق برحمته رسولاً لينبه إلى أن جاء الرسول الخاتم الذى ميزه الله بخلود منهجه ، وجعل القيم فى أمته . وصارت الأمة المحمدية هى حاملة أمانة حراسة المنهج الذى يصون حركة الحياة فى الأرض ؛ لأن الحق سبحانه لم يأمن أمة سواها ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء .

ثم نبهنا الله من بعد ذلك إلى أن نهاية الإنسان إلى نعيم الله فى الجنة لن يأتى سهلاً ميسوراً ، بل هو طريق محفوف بالمكاره ، فيجب أن تنبهوا أنفسكم وتروضوها وتدربوها على تحمل هذه المكاره ، وتوطنوها على تحملها لتلك المشاق . كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (حُفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات)[١] .

---

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذى عن أنس .

ويمتن الحق من بعد ذلك على خلقه أنه أهدى للإنسان الخليفة فى الأرض عقلاً يفكر به ، وطاقة تنفذ تخطيط العقل ، وكوناً مادياً أمامه يتفاعل معه فى الحركة : فالعقل يخطط ، والطاقة تنفذ فى المادة المخلوقة المسخرة لله . إذن فكل أدوات الحركة موجودة لله ، وليس لك أيها الإنسان أن تخلق شيئاً فيها إلا أن تُوجه طاقات مخلوقة للعمل فى مادة مخلوقة ، فأنت لا توجد شيئا .

وبعد ذلك يطلب الحق منك أيها المسلم أن تحافظ على حركة الحياة ، بأن تقدر للعاجز عن هذه الحركة نصيباً من حركتك ؛ لذلك فعليك أن تتحرك فى الحياة حركة تسعك ، وتسع من تعول ، وتسع العاجز عن الحركة . وبذلك تؤمّن السماء كل عاجز عن الحركة بحركة المتحركين من إخوانه المؤمنين ، وهو سبحانه يطمئنك بأنك إذا فعلت ذلك وأمَّنْتَ العاجز ، فهو - جل وعلا - يؤمنك حين يطرأ عليك العجز .

لقد جعل الله سبحانه حالة الحياة دولاً بين الناس ، فلا يوجد قوم قادرون دائماً ولا قوم عاجزون دائماً ، بل يجعل الحق من القادرين بالأمس عاجزين اليوم ؛ ومن العاجزين بالأمس قادرين اليوم ؛ حتى تتوزع الحركة فى الوجود . وحتى يعلم كل منا أن الله يطلب منك حين تقدر ؛ ليعطيك حين تعجز . لذلك طلب منا أن ننفق ، والنفقة على الغير لا تأتى إلا بعد استيفاء الإنسان ضروريات حياته ، فكأن الحق يقول لك : إن عليك أن تتحرك فى الحياة حركة تسعك وتسع أن تنفق على من تعول ، وإلا لو تحركت حركة على قدرك فقد لا تجد ما تنفقه .

وبعد ذلك يكلفنا سبحانه بأن كل مؤمن عليه أن يأخذ مسئولية الإنفاق على الدائرة القريبة منه ؛ ليتحمل كل موجود فى الحياة مسئولية قطاع من المجتمع مربوط به رباطا نَسَبِيًا ؛ كالوالدين والأقربين . وأن نجعل الضعفاء من الأيتام مشاعاً على المجتمع مطلوبين من الجميع . سواءٌ كانت تربطهم بنا قرابة أو لا تربطنا بهم قرابة ، فهم جميعا أقاربنا ؛ لأن الله كلفنا بأن نرعاهم .

ولكن هل يمكن أن يستقر منهج الله دون أن يعاديه أحد ؟ طبعاً لا ؛ لذلك ينبهنا الحق إلى أننا سنجد أقواماً لا يسعدهم أن يطبق منهج الله فى الوجود ؛ لأنهم

لا يعيشون إلا على مظالم الناس ، هؤلاء قوم سيسوؤهم أن يُطبق منهج الله ، فلتنتبهوا لهؤلاء ؛ ولذلك فرض الحق سبحانه القتال حتى تمنع الفتنة بالكفر من الأرض ؛ لأن الكفر يعدد الآلهة فى الكون وسيتبع كل إنسان الهوى ، ويصبح إلهه هواه وستتعدد الآلهة بتعدد الأهواء ، ولذلك كتب الله على المؤمنين القتال وقال : « وهو كُره لكم » ، كل ذلك ليضمن لنا الغاية التى يريدها ، وهى الدخول فى السلم والسلام والإسلام كافة . وبعد ذلك يطلب منا أن نجاهد بأموالنا وأنفسنا وأن نهجر أوطاننا وأهلنا إن احتاجت إلى ذلك الحركة الإيمانية فقال :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويلفتنا الحق بعد ذلك إلى قمة الجهاز التخطيطى فى الإنسان ليحميه ويجعله جهازاً سليماً قادراً على التخطيط بصفاء وحكمة وقوة ، وهو العقل ، ويلفتنا بضرورة أن نمنع عن العقل كل ما يخمره أى يستره عن الحركة نمنع عنه الخمر لماذا ؟ ليظل العقل كما يريده الله أداة الاختيار بين البدائل .

ومادام العقل هو الذى يخطط للطاقة الموجودة فى الإنسان لتعمل فى المادة الموجودة فى الكون،فيجب أن يظل هذا العقل المخطط سليماً، فلا يحاول الإنسان أن يستره، ولا يقل أحد : « إنى أستره من فرط زيادة المشكلات » ، لا : لأن المشكلات لا تريد عقلاً واحداً منك فقط ، ولكنها تريد عقلين ، فلا تأتى للعقل الواحد لتطمسه بالخمر ، فمواجهة المشكلات تقتضى أن نخطط تخطيطاً قوياً .

وبعد ذلك يحذرنا الحق أن نأخذ من حركة الآخرين بغير عرق وبغير جهد ، فيحذرنا من الميسر وهو الرزق السهل ، والتحذير من الميسر إنما جاء ليضمن لكل إنسان أن يتحرك فى الحياة حركة سليمة لا خداع فيها . وكأن كل ما تقدم هو من إشراقات قوله الحق : « فى الدنيا والآخرة » ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٢٠ سورة البقرة)

ونعرف أن اليتامى قد لا يدخلون فى دائرة المحتاجين لكن الله ينبهنا إلى أن المسألة فى اليتيم ليست مسألة احتياج إلى الاقتيات ، ولكنه فى حاجة إلى أن نعوضه بالتكافل الإيمانى عما فقده من الأب ، وذلك يمنع عنه الحقد على الأطفال الذين لم يمت آباؤهم . وحين يجد اليتيم أن كل المؤمنين آباء له فيشعر بالتكافل الذى يعوضه حنان الأب ولا يعانى من نظرة الأسى التى ينظر بها إلى أقرانه المتميزين عليه بوجود آبائهم ، وبذلك نخلع منه الحقد .

وكان المسلمون القدامى يخلطون أموالهم بأموال اليتامى ليسهلوا على أنفسهم ، وعلى أمر حركة اليتيم مئونة العمل ، فلو أن يتيماً دخل تحت وصاية إنسان ، وأراد هذا الإنسان أن يجعل لليتيم القاصر حياة مستقلة وإدارة مستقلة ومسلكاً مستقلاً فى الحياة لشق ذلك على نفس الرجل ، ولذلك أذن الله أن يخلط الوصى ماله بمال اليتيم ، وأن يجعل حركة هذا المال من حركة ماله ، بما لا يوجد عند الوصى مشقة . ولما نزل قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾

(من الآية ١٥٢ من سورة الأنعام)

وتحرج الناس ، وتساءلوا كيف يعاملون اليتيم خصوصا أن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾

(من الآية ١٠ سورة النساء)

وكف الناس أيديهم عن أمر اليتامى ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يسهل

الأمر ، فأنزل القول الحق : « قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم » والمخالطة تكون على أساس أن اليتامى إخوانكم واحذروا جيدا أن يكون في هذا الخلط شيء لا يكون فيه إصلاح لليتيم .

وإياكم أن تفهموا أن الشكلية الاجتماعية تكفي الوصي في أن يكون مشرفاً على مال اليتيم دون حساب ؛ لأن الله يعلم المفسد من المصلح . فلا يحاول أحد أن يقول أمام الناس : إنه قد فتح بيته لليتيم وإنه يرعى اليتيم بينما الأمر على غير ذلك ؛ لأن الله يعلم المفسد من المصلح .

ويقول الحق : « ولو شاء الله لأعنتكم » والإعنات هو أن توقع غيرك وتدخله في أمر فيه مشقة،فلو لم يبح الله لكم مخالطتهم لأصابتكم مشقة فيسر الله للمؤمنين من الأوصياء أن يخالطوا اليتامى ، ومعنى المخالطة : هو أن يُوحِّد الوصي حركة اليتيم مع حركته ، وأن يوحد معاش اليتيم مع معاشه ، بدلاً من أن يكون لليتيم على سبيل المثال أدوات طعام مستقلة ، وقد كان هذا هو الحاصل .

وكان يفسد ما يتبقى من الطعام ؛ فلم تكن هناك وسائل صيانة وحفظ الأطعمة مثل الثلاجات ، وكان ذلك ضرراً باليتيم ، وضرراً أيضا بمن يشرف عليه . لكن حين قال : « وإن تخالطوهم » ، فكان ذلك توفيرا للمشقة على الأوصياء . فالمخالطة هي المعاشرة التي لا يتعثر فيه التمييز .

وقد درسنا في طفولتنا درسا بعنوان « الخلط والمزج » فالخلط هو أن تخلط على سبيل المثال حبوب الفول مع حبوب العدس ، أو حبوب الأرز مع حبات البندق .

وعندما تأتي لتمييز صنف من آخر ، فأنت تستطيع ذلك ، وتستطيع أن تفصل الصنفين بعضا عن بعض بالغربال ؛ ولذلك فالمخالطة تكون بين الحبوب ونحوها .

أما المزج فهو فى السوائل . والحق سبحانه يرشدنا أن نخالط اليتامى لا أن نمزج مالهم بمالنا ؛ لأن اليتيم سيصل يوما إلى سن الرشد ، وسيكون على الوصى أن يفصل ماله عن مال اليتيم .

ويتابع الحق : « والله يعلم المفسد من المصلح » لأن الوصى قد يدعى أمام الناس أنه يرعى حق اليتيم ، وأنه يقوم بمصالحه ويحترم ماله ،لكن الأمر قد يختلف فى النية وهو سبحانه لم يكل الأمر إلى ظواهر فهم المجتمع لسلوك الوصى مع اليتيم وعن المخالطة ، بل نسب ذلك كله إلى رقابته سبحانه ، وذلك حتى يحتاط الإنسان ويعرف أن رقابة الله فوق كل رقابة ، ولو شاء الحق لأعنت الأوصياء وجعلهم يعملون لليتيم وحده ، ويفصلون بين حياة اليتيم وحياتهم ومعاشهم . وفى ذلك مشقة شديدة على النفس . وحتى نفهم معنى العنت بدقة فلنقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

(سورة التوبة)

لقد جاءكم أيها المؤمنون رسول منكم ، عربى ومن قريش يبلغكم رسالة الله سبحانه وتعالى . يحرص عليكم كيلا تقعوا فى مشقة أو تعيشوا فى ضنك الكفر ، حريص على أن تكونوا من المهتدين . فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يأت من جنس الملائكة ، ولكن جاء من جنس البشر ، فلا يقولن أحد : إنه لا يصلح أسوة لى . إنه نشأ فى مكة التى تعيش بها قريش ، وتاريخه معروف لقومه : بدليل أنهم خلعوا عليه أول الأوصاف المطلوبة والواجبة للرسالة وهى الأمانة ، فالحق جاء به من البشر وليس بغريب عليهم ، وبمجرد أن أخبر بالوحى وجد أناسا آمنوا به قبل أن يقرأ قرآنا ، وقبل أن يأتيهم بتحدٍ .

فعندما جاءه المَلَكُ جبريلُ عليه السلام فى غار حراء ، فقال:اقرأ . قال : ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، [إى ضمنى وعصرنى،والحكمة فيه شغله عن الالتفات ليكون قلبه حاضراً] ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا

بقارىء فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى وقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارىء . فأخذنى الثالثة فغطنى ثم أرسلنى فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال لها : « زملونى . زملونى . زملونى » . فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوْعُ ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : « لقد خشيت على نفسى » لكن خديجة رضى الله عنها بحسن استنباطها تقول : « كلا والله لا يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق »(١) .

إن خديجة رضوان الله عليها تستنبط أن من فيه هذه الخصال إنما هو مهيأ للرسالة .

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة التوبة)

أى محب لكم يشق عليه ويتعبه ما يشق عليكم ويتعبكم ؛ ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم مشغولا بأمته . ويروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أمتى . أمتى . أمتى » .

والحق سبحانه وتعالى يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مشغول بأمته .

عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم « رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى . . الآية » . وقال عيسى عليه السلام : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » فرفع يديه وقال : اللهم أمتى أمتى وبكى . فقال الله عز وجل : « يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك،فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم فقال الله :يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك »(٢) .

(١) رواه البخارى باب كيف كان بدء الوحى .
(٢) رواه مسلم .

إننا عندما نتأمل دقة الجواب النبوى نعرف أن الرسول الكريم مشغول بأمته ، ولكنه ينظر إلى نفسه على أنه أخ لكل مؤمن . والأخ قد يتغير على أخيه ؛ لذلك لم يشأ الرسول الكريم أن يُخرج أمر المسلمين من يد الله ورحمته وهو الخالق الكريم إلى أمره هو صلى الله عليه وسلم .

إن الرسول يعرف أن الله أرحم بخلقه من أى إنسان ، حتى الرسول نفسه . نقول ذلك فى معرض حديثنا عن العنت الذى يمكن أن يصاحب الإنسان إن لم يرع حق الله فى مال اليتيم ؛ لأن الله عزيز حكيم ، وهو الحق الذى يغلب ولا يَغلبه أحد . ونرى فى قول الحق : « إن الله عزيز حكيم » أن صفة العزة مآزرة بصفة الحكمة .

وبعد ذلك يدخل معنا الحق سبحانه وتعالى فى مسألة جديدة لو نظرنا إليها لوجدناها أساس أى حركة فى الحياة وفى المجتمع ، إنها مسألة الزواج . ويريد سبحانه أن يضمن الاستقرار والسعادة للكائن الذى كرمه وجعله خليفة فى الأرض ، وجعل كل الأجناس مسخرة لخدمته .

إن الحق يريد أن يصدر ذلك الكائن عن ينبوع منهجى واحد ؛ لأن الأهواء المتضاربة هى التى تفسد حركة الحياة ، فأراد أن يصدر المجموع الإنسانى كله عن ينبوع عقدى واحد ، وأراد أن يحمى ذلك الينبوع من أن يتعثر بتعدد النزعات والأهواء ، لذلك ينبهنا الحق إلى هذا الموقف . إنه سبحانه يريد سلامة الوعاء الذى سيوجد ذلك الإنسان ، من بعد الزواج ، فبالزواج ينجب الإنسان وتستمر الحياة بالتكاثر . ولذلك لا بد من الدقة فى اختيار الينبوع الذى يأتى منه النسل ، فهو سبحانه يقول :

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ

يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

إن الحق يقول : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » ، وهذه أول لبنة فى بناء الأسرة وبناء المجتمع ، لأنها لو لم تكن مؤمنة ، فماذا سوف يحدث ؟ إنها ستشرف على تربية الطفل الوليد إشرافا يتناسب مع إشراكها ، وأنت مهمتك كأب ومرب لن تتأتى إلا بعد مدة طويلة تكون فيها المسائل قد غرست فى الوليد ، فإياك أن يكون الرجل مؤمنا والمرأة مشركة ؛ لأن هذا يخل بنظام الأسرة فعمل الأم مع الولد يؤثر فى أوليات تكوينه إنه يؤثر فى قيمه ، وتكوين أخلاقه . وهذا أمر يبدأ من لحظة أن يرى ويعى ، والطفل يقضى سنواته الأولى فى حضن أمه ، وبعد ذلك يكبر ؛ فيكون فى حضن أبيه ، فإذا كانت الأم مشركة والأب مؤمنا فإن الإيمان لن يلحقه إلا بعد أن يكون الشرك قد أخذ منه وتمكن وتسلط عليه .

ونعرف أن الطفولة فى الإنسان هى أطول أعمار الطفولة فى الكائنات كلها ، فهناك طفولة تمكث ساعتين اثنتين مثل طفولة الذباب ، وهناك طفولة أخرى تستغرق شهراً ، وأطول طفولة إنما تكون فى الإنسان ؛ لأن هذه الطفولة مناسبة للمهمة التى سيقوم بها الإنسان ، كل الطفولات التى قبلها طفولات لها مهمة سهلة جدا ، إنما الإنسان هو الذى ستأتى منه القيم ، لهذا كانت طفولته طويلة ؛ إنها تستمر حتى فترة بلوغ الحلم . والحق هو القائل :

﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾

(سورة النور)

فكان الطفل يظل طفلاً إلى أن يبلغ الحلم ، فكم سنة إذن ستمر على الطفل ؟ وكم سنة سوف يتغذى هذا الطفل من ينابيع الشرك إن كانت أمه مشركة ؟ إنها فترة طويلة لا يمكن له من بعد ذلك أن يكون مؤمنا غير مضطرب الملكات . وإن صلح مثل هذا الإنسان أن يكون مؤمنا فسيقوم إيمانه على القهر والقسر والولاية للأب ، وسيكون مثل هذا الإيمان عملية شكلية ليست مرتكزة ولا معتمدة على أساس صادق .

ونحن نعرف أن الثمرات التى ننعم نحن بأكلها لا يكون نضجها إلا حين تنضج البذرة التى تتكوّن منها شجرة جديدة ، وقبل ذلك تكون مجرد فاكهة فجة وليس لها طعم . وقد أراد الحق أن ينبهنا إلى هذا الأمر ليحرص الإنسان على أن يستبقى الثمرة إلى أن تنضج ويصير لها بذور .

إن المرأة لا تكون ثمرة طيبة إلا إذا أنجبت مثلها ولداً صالحا نافعا ، يريد الحق للنشء أن يكون غير مضطرب الإيمان ؛ لذلك يقول : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » أى إياكم أن تنخدعوا بالمعايير الهابطة النازلة ، وعلى كلّ منكم أن يأخذ حكم الله : « ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم » لأن إعجاب الإنسان بالمرأة بصرف النظر عن الإيمان سيكون إعجابا قصير العمر .

إن عمر الاستمتاع بالجمال الحسى للمرأة إن جمعنا لحظاته فلن يزيد مجموعه عن شهر من مجموع سنوات الزواج . فكل أسبوع يتم لقاء قد يستغرق دقائق وبعدها يذبل الجمال ، وتبقى القيم هى المتحكمة ، ونحن نجد المرأة حين تتزوج ، ثم يبطىء الحمل فإنها تعانى من القلق وكذلك أهلها .

إن الرجل إن كان قد تزوجها للوسامة والقسامة والقوام والعينين ، فهذا كله سيبرد ويهدأ بعد فترة ، ثم توجد مقاييس أخرى لاستبقاء الحياة ، وعندما يلتفت إليها الإنسان ولا يجدها فهو يغرق فى الندم ؛ لأنها لم تكن فى باله وقت أن اختار .

لذلك تريد المرأة أن تُمكن لنفسها بأن يكون عندها ولد لتربط الرجل بها ، وحتى

يقول المجتمع : « عليك أن تتحملها من أجل الأولاد » ! فالرجل بعد الزواج يريد قيماً أخرى غير القيم الحسية التى كانت ناشئة أولاً ، لذلك يحذرنا الله قائلاً : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ » . وجاء قوله « حتى يؤمنّ » لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله ما دامت قد آمنت فقد انتهت المسألة .

وانظروا إلى دقة قوله سبحانه : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ ولأمة مؤمنة خير من مشركة » أى إنّ الأمة المسلمة خير من حرة مشركة ، « ولو أعجبتكم » لقد جاء قول الحق هنا بمقاييس الإعجاب الحسى . ليلفتنا إلى أننا لا يصح أن نهمل مقاييس خالدة ونأخذ مقاييس بائدة وزائلة .

ثم يقول الحق : « ولا تُنكحوا المشركين حتى يؤمنوا » وهذا هو النظير فى الخطاب وهو ليس متقابلاً فهو لم يخاطب المؤمنات ألا ينكحن المشركين ، إنما قال : « ولا تُنكحوا المشركين حتى يؤمنوا » وتلك دقة فى الأداء هنا ؛ لأن الرجل له الولاية فى أن يُنكح ، فيأمره بقوله له : لا تُنكح ، لكن المرأة ليس لها ولاية أن تُنكح نفسها . فنحن نعرف القاعدة الشرعية التى تقول : « لا نكاح إلا بولى » ، وهو لم يوجه حديثه للنساء ؛ لأن المرأة تتحكم فيها عاطفتها لكن وليها ينظر للأمر من مجموعة زوايا أخرى تحكم الموقف .

صحيح أننا نستأذن الفتاة البكر كى نضمن أن عاطفتها ليست مصدودة عن هذا الزواج ، لكن الأب أو ولى الأمر الرجل يقيس المسائل بمقاييس أخرى ، فلو تركنا للفتاة مقياسها لتهدم الزواج بمجرد هدوء العاطفة ، وساعة تأتى المقاييس العقلية الأخرى فلن تجد ذلك الزواج مناسباً لها فتفشل الحياة الزوجية .. لذلك يطالبنا الإسلام أن نستشير المرأة ، كيلا نأتيها بواحد تكرهه ، ولكن الذى يزوجها إلى ذلك الرجل هو وليها ؛ لأن له المقاييس العقلية والاجتماعية والخلقية التى قد لا تنظُر إليها الفتاة ؛ فقد يبهرها فى الشاب قوامه وحسن شكله وجاذبية حديثه ، لكن عندما تدخل المسألة فى حركة الحياة ودوامتها قد تجده إنساناً غير جدير بها .

ولكى تكون المسألة مزيجاً من عاطفة بنت ، وعقل أب ، وخبرة أم ، كان لابد من

استشارة الفتاة ، وأن يستنير الأب برأى الأم ، ثم يقول الأب رأيه أخيراً ، وكل زواج يأتى بهذا الأسلوب فهو زواج **يحالفه** التوفيق ، لأن المعايير كلها مشتركة ، لا يوجد معيار قد اختل ؛ فالأب بنى حكما على أساس موافقة الابنة ، أما إذا رفضت الفتاة وكانت معايير الأب صحيحة ، لكن الابنة ليس لها تقبل لهذا الرجل ؛ لذلك فلا يصح أن يتم هذا الزواج .

وكثير من الزيجات قد فشلت لأننا لم نجد من يطبق منهج الله فى الدخول إلى الزواج . وحين لا يطبقون منهج الله فى الدخول إلى الزواج ثم يُقابلون بالفشل ، فهم يصرخون منادين قواعد الإسلام لتنقذهم .

ونقول لهم : وهل دخلتم الزواج على دين الله ؟ إنكم مادمتم قد دخلتم الزواج بآرائكم المعزولة عن منهج الله فلتحلوا المسألة بآرائكم . فالدين ليس مسئولاً إلا عمّن يدخل **بمقاييسه** ، لكن أن تدخل على الزواج بغير مقاييس الله ثم تريد من الله أو من القائمين على أمر الله أن يحلوا لك المشاكل فذلك ظلم منك لنفسك وللقائمين على أمر الله . وإن لم تحدث مثل هذه المشكلات لكنا قد اتهمنا منهج الله . ولقلنا : قد تركنا منهج الله وسعدنا فى حياتنا . لذلك كان لابد أن تقع المشكلات .

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « ولاتُنكحوا المشركات حتى يؤمن » هذه قضية لها سبب ، لكن العبرة فيها بعموم موضوعها لا بخصوص سببها ، لقد كان السبب فيها هو ما رُوِىَ أنه كان هناك صحابى اسمه مرثد بن أبى مرثد الغنوى بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ليخرج منها ناسا من المسلمين . وكان يهوى إمرأة فى الجاهلية اسمها « عناق » وكانت تحبه ، وساعة رأته أرادت أن تخلو به فقال لها : ويحك إن الإسلام قد حال بيننا ، فقالت له : تزوجنى ، فقال لها : أتزوجك لكن بعد أن أستأمر وأستأذن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فلما استأمره نزل قوله تعالى : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم » .

وقيل إن قوله تعالى: « ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم » نزلت فى خنساء[1] وليدة سوداء كانت لحذيفة بن اليمان ، فقال لها حذيفة: يا خنساء قد ذكرت

(١) الخنس : انخفاض فى قصبة الأنف مع ارتفاع قليل فى طرف الأنف .

فى الملأ الأعلى مع سوادك ودمامتك وأنزل الله ذكرك فى كتابه ، فأعتقها حذيفة وتزوجها .

ويتابع الحق فيقول : « ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم » . إن المقاييس واحدة فى اختيار شريك الحياة ، إنها الرغبة فى بناء الحياة الأسرية على أساس من الخير ، وغاية كل شيء هى التى تحدد قيمته ، وليست الوسيلة هى التى تحدد قيمة الشيء ، فقد تسير فى سبيل وطريق خطر وغايته فيها خير ، وقد تسير فى سبيل مفروش بالورود والرياحين وغايته شر . ولذلك يقول الحق : « أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون » . والذين يدعون إلى النار هم أهل الشرك . أما الله فهو يدعو إلى الجنة ، والمغفرة تأتى بإذن الله أى بتيسير الله وتوفيقه . ونعرف جميعاً الحكمة التى قالها الإمام « على » كرم الله وجهه : لا خير فى خير بعده النار ، ولا شر فى شر بعده الجنة .

وقوله الحق ؛ « لعلهم يتذكرون » ترد كثيراً ، هذا التذكر ماذا يفعل ؟ إن التذكر يُشعرك بأن القضية كانت معلومة والغفلة هى التى طرأت ، لكن الغفلة إذا تنبهت إليها ، فهى تذكرك ما كنت قد نسيته من قبل ، لكن إن طالت الغفلة ، ونسى الأصل فهذه هى الطامة ، التى تنطمس بها المسألة .

إذن فالتذكر يشمل مراحل : المرحلة الأولى : أن تعرف إن لم تكن تعرف ، أو تعلم إن كنت تجهل ، والمرحلة الثانية : هى أن تتذكر إن كنت ناسياً ، أو توائم بين ما تعلم وبين ما تعمل ؛ فالتذكر يوحى لك بأن توائم ما بين معرفتك وسلوكك حتى لا تقع فى الجهل ، والجهل معناه أن تعلم ما يناقض الحقيقة . لقد أراد الله أن يصون الإنسان الذى اختار الإيمان عندما حرم عليه الزواج بواحدة من أهل الشرك .

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يضمن لمن جعله خليفة فى الأرض عقيدة واحدة يصدر عنها السلوك الإنسانى ؛ لأن العقائد إن توزعت حسب الأهواء فسيتوزع السلوك حسب الأهواء . وحين يتوزع السلوك تتعاند حركة الحياة ولا تتساند .

فيريد الحق سبحانه وتعالى أن يضمن وحدة العقيدة بدون مؤثر يؤثر فيها ؛ فشرط فى بناء اللبنة الأولى للأسرة ألاّ ينكح مؤمن مشركة ؛ لأن المشركة فى مثل هذه الحالة ستتولى حضانة الطفل لمدة طويلة هى - كما قلنا - أطول أعمار الطفولة فى الكائن الحى . ولو كان الأب مؤمناً والأم مشركة فالأب سيكون مشغولاً بحركة الحياة فتتأصل عن طريق الأم معظم القيم التى تتناقض مع الإيمان .

وأراد الحق سبحانه وتعالى أيضا ألا تتزوج المؤمنة مشركاً ؛ لأنها بحكم زواجها من مشرك ستنتقل إليه وإلى بيئته المشركة وإلى أسرته . وسينشأ طفلها الوليد فى بيئة شركية فتتأصل فيه الأشياء القيمية التى تناقض الإيمان . ويريد الحق سبحانه وتعالى بهذه الصيانة ، أى بعدم زواج المؤمن من مشركة ، وبعدم زواج المؤمنة من مشرك ، أن يحمى الحاضن الأول للطفولة . وحين يحمى الحاضن الأول للطفولة يكون الينبوع الأول الذى يصدر عنه تربية عقيدة الطفل ينبوعا واحداً ، فلا يتذبذب بين عقائد متعددة . لذلك جاء قول الحق :

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

كل ذلك حتى يصون الحق البيئة التى ينشأ فيها الوليد الجديد . وعلينا أن نفهم أن الحق سبحانه وتعالى رخص للمؤمنين فى أن ينكحوا أهل الكتاب بقوله الحق :

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن

قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾

(سورة المائدة)

وقد وقف العلماء من مسألة ترخيص الحق للمؤمنين فى أن يتزوجوا من أهل الكتاب موقفين : الموقف الأول : هو موقف مانع ؛ لأن بعض العلماء رأى أن أهل الكتاب قد ينحرفون فى معتقداتهم إلى ما يجعلهم فى الشرك ، وقالوا : وهل هناك شرك أكثر من أن تدعى الربوبية لبشر ؟ والموقف الثانى : أجاز بعض العلماء أن يتزوج الإنسان من كتابية ويجب عليه أن يسألها أهى تدين بألوهية أحد من البشر أم تدين بالله الواحد القهار ؟ فإن كانت المسألة مجرد الخلاف فى الرسول فالأمر يهون ، أما إن كانت تؤمن بألوهية أحد من البشر بجانب الله فقد دخلت فى الشرك وعلى المؤمن أن يحتاط .

وإذا كان للرجل الولاية وله أن يتزوج بكتابية فهو غالباً ما ينقلها إلى بيئته هو وستكون البيئة المؤثرة واحدة ، ووجود الولاية للأب مع الوجود فى البيئة الإيمانية سيؤثر ويخفف من تأثير الأم الكتابية على أولادها ، وإن كان على الانسان أن يتيقظ إلى أنّ هناك مسالك تتلطف وتتسلل ناحية الشرك ، فمن الخير أن يبتعد المسلم عن ذلك ، وأن يتزوج ويعصم ويعفّ فتاة مسلمة .

وحين يحمى الحق سبحانه وتعالى الحضانة الأولى للطفل فهو يريد أن يربى فى الطفل عدم التوزع ، وعدم التمزق ، وعدم التنافر بين ملكاته . وحين نضمن للطفل التواجد والنشأة فى بيئة متآلفة فهو ينشأ طفلاً سوياً . والإسلام يريد أن يحافظ على سويّة هذا الطفل . ويقول بعض الناس : ولماذا لا توجد محاضن جماعية ؟ وكأنهم بذلك يريدون أن يحلوا الإشكال .

نقول لهم : إن الإشكال لم يحل عند الذين فعلوا ذلك من قبلنا ، ولذلك فعندما نقرأ مؤلفاتهم مثل كتاب « أطفال بلا أسر » فسنجد أن الطفولة عندهم معذبة . ولماذا

نذهب بعيداً ؟ إننا عندما نتتبع كيفية النشأة الجماعية للأطفال في إسرائيل فالبحوث العلمية تؤكد على أن الأطفال يعيشون في بؤس رهيب لدرجة أن التبول اللا إرادى ينتشر بينهم حتى سن الشباب .

وكيف يغيب عن بالنا أن الطفل يظل حتى تصل سنه إلى عامين أو أكثر وهو يطلب ألا يشاركه في أمه أحد ، حتى وإن كان أخاً له فهو يغار منه فما بالك بأطفال متعددين تقوم امرأة ليست أمهم برعايتهم ؟ ولا يغني عن حنان الأم حنانُ مائة مربية ؛ فليس للمربيات جميعاً قلب الأم التي ولدت الطفل ، فالحنان الذى تعطيه الأم ليس حناناً شكلياً ولا وظيفياً ، ولكنه طبيعة حياة خلقها الله لتعطى العطاء الصحيح ، لذلك لابد من إعطاء الطفل فترة يشعر فيها بأن أمه التي ولدته له وحده ، ولا يشاركه فيها أحد حتى لو كان أخاً له ، وتمر عليه فترة بعد أن يخرج من مهد الطفولة الأولى إلى الشارع ليجد حركة الحياة ، ويجد القائمين على حركة الحياة هم الرجال وآباء أمثاله من الأطفال فيحب بعد ذلك أن يُنسب إلى أب له كيان معروف في المجتمع الخارجي .

فمن مقومات تكوين الطفل أن يشعر أن له أمّاً لا يشاركه فيها أحد ، وأنّ له أباً لا يشاركه فيه أحد . وإن شاركه فيها أحدٌ فهم إخوته ويضمهم ويشملهم جميعا حنان الأم ورعاية الأب . لقد اعترف أهل العلم بتربية الأطفال أن احتياج الطفل لأمه هو احتياج هام وأساسي للتربية لمدة عامين وبضعة من الشهور ، والحق تبارك وتعالى حين أنزل على رسوله قبل أربعة عشر قرناً من الآن ؛ القول الحكيم الصادق بيّن هذه الحقيقة واضحة في أجلى صورها :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ
ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ
ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى
تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الأحقاف)

إن الأم هى الحاضنة الطبيعية للطفل كما أرادها الحق . إذن ، فالحق يريد أن يحمى اللبنة الأولى فى تكوين المجتمع وهى الأسرة فى البناء العقدى من أن تتأثر بالشرك ، ويريد أن يحفظ للأسرة كياناً سليماً .

ويعالج الحق بعد ذلك قضية التواصل مع المرأة أثناء فترة الحيض فيأتى التشريع ليقنن هذه المسألة لأن الإسلام جاء وفى الجو الاجتماعى تياران :

تيار يرى أن الحائض هى امرأة تعانى من قذارة ، لذلك لا يمكن للزوج أن يأكل معها أو يسكن معها أو يعاشرها أو يعيش معها فى بيت واحد وكذلك أبناؤه . وتيار آخر يرى المرأة فى فترة الحيض امرأة عادية لا فرق بينها وبين كونها غير حائض أى تباشر حياتها الزوجية مع زوجها دون تحوط أو تحفظ . كان الحال ـ إذن ـ متأرجحا بين الإفراط والتفريط ، فجاء الإسلام ليضع حداً لهذه المسألة فيقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟
ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ
فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ
يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾

حين تقرأ « هو أذى » فقد أخذت الحكم ممن يُؤمنُ على الأحكام ، ولا تناقش المسألة ، ومهما قال الطب من تفسيرات وتعليلات وأسباب نقل له : لا ، الذى خلق قال : « هو أذى » . والمحيض يطلق على الدم ، ويراد به ـ أيضا ـ مكان الحيض ، ويراد به زمان الحيض .

وقوله الحق عن المحيض إنه أذى يهيء الذهن لأن يتلقى حكما فى هذا الأذى ، وبذلك يستعد الذهن للخطر الذى سيأتى به الحكم . وقد جاء الحكم بالحظر والمنع بعد أن سبقت حيثيته .

إن الحق سبحانه وتعالى وهو الخالق أراد أن تكون عملية الحيض فى المرأة عملية كيماوية ضرورية لحياتها وحياة الإنجاب . وأمر الرجال أن يعتزلوا النساء وهن حوائض ؛ لأن المحيض أذى لهم . لكن هل دم الحيض أذى للرجال أو للنساء ؟ إنه أذى للرجال والنساء معا ؛ لأن الآية أطلقت الأذى ، ولم تحدد من المقصود به . والذى يدل على ذلك أن الحيض يعطى قذارة للرجل فى مكان حساس هو موضع الإنزال عنده ، فإذا وصلت إليه الميكروبات تصيبه بأمراض خطيرة .

والذى يحدث أن الحق قد خلق رحم المرأة وفى مبيضيها عدد محدد معروف له وحده سبحانه وتعالى من البويضات ، وعندما يفرز أحد المبيضين البويضة فقد لا يتم تلقيح البويضة ، فإن بطانة الرحم المكون من أنسجة دموية تقل فيها نسبة الهرمونات التى كانت تثبت بطانة الرحم ، وعندما تقل نسبة الهرمونات يحدث الحيض .

والحيض هو دم يحتوى على أنسجة غير حية ، وتصبح منطقة المهبل والرحم فى حالة تهيج ، لأن منطقة المهبل والرحم حساسة جدا لنمو الميكروبات المسببة للالتهابات سواء للمرأة ، أو للرجل إنْ جامع زوجته فى فترة الحيض . والحيض يصيب المرأة بأذى فى قوتها وجسدها ؛ بدليل أن الله رخص لها ألا تصوم وألّا تصلى . إذن فالمسألة منهكة ومتعبة لها ، فلا يجوز أن يرهقها الرجل بأكثر مما هى عليه .

إذن فقوله تعالى : « هو أذى » تعميم بأن الأذى يصيب الرجل والمرأة . وبعد ذلك بيّن الحق أن كلمة « أذى » حيثية تتطلب حكما يرد ، إما بالإباحة وإما بالحظر ، ومادام هو أذى فلا بد أنْ يكون حظراً .

يقول عز وجل : « فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن » والذى يقول : إنّ المحيض هو مكان الحيض يبنى قوله بأن المحرم هو المباشرة الجنسية ، لكن ما فوق

السرة وما فوق الملابس فهو مباح ، فقوله الحق : « ولا تقربوهن » أى لا تأتوهن فى المكان الذى يأتى منه الأذى وهو دم الحيض . « حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ».و« يطهرن » من الطهور مصدر طَهَر يطهر ، وعندما نتأمل قوله : « فإذا تطهرن » نجد أنه لم يقل : « فإذا طهرن » ، فما الفرق بين « طهر » و« تطهر » ؟

إنّ « يطهرن » معناها امتنع عنهن الحيض ، و« تطهرن » يعنى اغتسلن من الحيض ؛ ولذلك نشأ خلاف بين العلماء ، هل بمجرد انتهاء مدة الحيض وانقطاع الدم يمكن أن يباشر الرجل زوجته ، أم لا بد من الانتظار حتى تتطهر المرأة بالاغتسال ؟.

وخروجا من الخلاف نقول : إن قوله الحق : « تطهرن » يعنى اغتسلن فلا مباشرة قبل الاغتسال . ومن عجائب ألفاظ القرآن أن الكلمات تؤثر فى استنباط الحكم ، ومثال ذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

ما المقصود إذن ؟ هل المقصود أن القرآن لا يمسكه إلا الملائكة الذين طهرهم الله من الخبث ، أو أن للبشر أيضا حق الإمساك بالمصحف لأنهم يتطهرون ؟ بعض العلماء قال : إن المسألة لابد أن ندخلها فى عموم الطهارة ، فيكون معنى « إلا المطهرون » أى الذين طهرهم مَن شرع لهم التطهير ؛ ولذلك فالمسلم حين يغتسل أو يتوضأ يكون قد حدث له أمران : التطهر والطهر .

فالتطهر بالفعل هو الوضوء أو الاغتسال ، والطهر بتشريع الله ، فكما أن الله طهر الملائكة أصلا فقد طهرنا معشر الإنس تشريعا ، وبذلك نفهم الآية على إطلاقها ونرفع الخلاف . وقول الحق فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : « حتى يَطْهُرن » أى حتى يأذن الله لهن بالطهر ، ثم يغتسلن استجابة لتشريع الله لهن بالتطهر . « فأتوهن من حيث أمركم الله » يعنى فى الأماكن الحلال .

« إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » وأراد الحق تبارك وتعالى أن يدخل عليك أنسا ، فكما أنه طلب منك أن تتطهر ماديا فهو سبحانه قبل أيضاً منك أن تتطهر معنويا بالتوبة ، لذلك جاء بالأمر حسيا ومعنويا . وبعد ذلك جاء الحق سبحانه وتعالى بحكم جديد ، هذا الحكم ينهى إشكالا أثاره اليهود .

وقد كان اليهود يثيرون أن الرجل إذا أتى امرأته من خلف ولو فى قُبلها ـ بضم القاف ـ جاء الولد أحول . و« القُبل » هو مكان الإتيان ، وليس معناه الإتيان فى الدبر والعياذ بالله كما كان يفعل قوم لوط . ولمّا كان هذا الإشكال الذى أثاره اليهود لا أساس له من الصحة فقد أراد الحق أن يرد على هذه المسألة فقال :

﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾

إن الحق سبحانه وتعالى يفسح المجال للتمتع للرجل والمرأة على أى وجه من الأوجه شريطة أن يتم الإتيان فى محل الإنبات . وقد جاء الحق بكلمة « حرث » هنا ليوضح أن الحرث يكون فى مكان الإنبات . « فأتوا حرثكم » وما هو الحرث ؟ الحرث مكان استنبات النبات ، وقد قال تعالى :

﴿ وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ ﴾

(من الآية ٢٠٥ سورة البقرة)

فأتوا المرأة فى مكان الزرع ، زرع الولد ، أما المكان الذى لا ينبت منه الولد فلا تقربوه . وبعض الناس فهموا خطأ أن قوله : « فأتوا حرثكم أنَّى شئتم » معناها إتيان المرأة فى أى مكان ، وذلك خطأ ؛ لأن قوله : « نساؤكم حرث لكم » يعنى محل

استنبـات الزرع ، والزرع بالنسبـة للمرأة والرجل هو الولد ، فأتـوها فى المكان الذى ينجب الولد على أى جهة شئت .

ويتابع الحق : « وقدموا لأنفسكم » أى إياك أن تأخذ المسـألة على أنها استمتاع جنسى فحسب ، إنما يريد الحق سبحانه وتعـالى بهذه اللذة الجنسية أن يحمى متاعب مـا ينشأ من هذه اللذة ؛ لأن الذريـة التى ستـأتى من أثر اللقـاء الجنسى سيكون لهـا متـاعب وتكاليف ، فلو لم يربطهـا الله سبحـانه وتعالى بهـذه اللذة لزهد الناس فى الجماع .

ومن هنا يربط الحق سبحانه وتعالى بـين كدح الآباء وشقائهم فى تربية أولادهم بلذة الشهـوة الجنسية حـتى يضمن بقاء النوع الإنسـانى . ومع هذا يحذرنا الحق أن نعتبر هذه اللـذة الجنسية هى الأصل فى إتيان النساء فقـال : « وقدموا لأنفسكم » ، يعنى انظروا جيـداً إلى هذه المسألة على ألا تكون هى الغاية ، بل هى وسـيلة ، فلا تقلبوا الوسيلة إلى الغـاية ، « وقدموا لأنفسكم » أى ادخروا لأنفسكم شـيئاً ينفعكم فى الأيام المقبلة .

إذن، فالأصل فى العملية الجنسية الإنجاب . « وقدموا لأنفسكم » أى لا تأخذوا المتاع اللحظى العاجل على أنه هو الغاية بل خذوه لما هو آت . وكيف نقدم لأنفسنا ؟ أو ماذا نفـعل ؟ حتى لا نشـقى بـمَنْ يأتى ، وعليك أن تتـبين هذه العـملية فـقدم لنفسك شيـئاً يريحك ، وافعل ما علمنا رسول الله صلى الله عليـه وسلم .. ساعة تأتى لهذه النعـمة وتقتـرب من زوجتك لابد أن تسمى الله وتقـول : « اللهم جنبنى الشيطان وجنب الـشيطان ما رزقـتنى » ، وعندما يأتى المسلم أهله وينشـأ وليده فلن يكون للشيطان عليه دخل . وقال بعض العلماء : لا يمكن أن يؤثر فيه سحر ، لماذا كل ذلك ؟ .

لأنك ساعة اسـتنبته أى زرعته ، ذكـرت المُنْبِتَ وهو الله عز وجل . وما دمت ذكرت المنبت الخالق فقد جعلت لابنك حصانة أبدية . وعلى عكس ذلك ينشأ الطفل الذى ينسى والده الله عندما يباشر أهله فيقع أولاده فريسة للشياطين .

« وقدموا لأنفسكم » أى قدموا لها مـا يريحكم وما يطيل أمد حياتكم وأعمالكم فى

الحياة ؛ لأنك عندما تقبل على المسألة بنية إنجاب الولد ، وتذكر الله وتستعيذ من الشيطان فينعم عليك الخالق بالولد الصالح ، هذا الولد يدعو لك ، ويعلم أولاده أن يدعوا لك ، وأولاد أولاده يدعون لك ، وتظل المسألة مسلسلة فلا ينقطع عملك إلى أن تقوم الساعة ، وهنا تكون قدمت لنفسك أفضل ما يكون التقديم .

وهب أنك رُزقت المولود ثم مات ففجعت به واسترجعت واحتسبته عند ربك ، إنك تكون قد قدمته ، ليغلق عليك بابا من أبواب النيران . إذن فكل أمر لابد أن تذكرفيه « وقدموا لأنفسكم » .

ويقول الحق : « واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين » معنى « اتقوا الله » أى إياكم أن تغضبوا ربكم فى أى عمل من هذه الأعمال ، وكن أيها المسلم فى هذه التقوى على يقين من أنك ملاقى الله ، ولا تشك فى هذا اللقاء أبداً . ومادمت ستتقى الله وتكون على يقين أنك تلاقيه لم يبق لك إلا أن تُبشَّر بالجنة . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ ﴾

وفى الآية ثلاثة أشياء : أولا : أن تبروا ، أى أن تفعلوا البر . والبر قد يكرهه الإنسان لأنه شاق على النفس . ثانيا : أن تتقوا ، أى أن تتجنبوا المعاصى ، والتقوى تكون أيضا شاقة فى بعض الأحيان . ثالثا : أن تصلحوا بين الناس ، أى أن تصلحوا ذات البيْن ، وقد يكون فى الإصلاح بين الناس مئونة وذلك بعد أن تمتنعوا أن تجعلوا الله عرضة للقسم .

وحين يقول الحق : « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم » فالعرضة هى الحجاب ،



وهى ما يعترض بين شيئين ، « وعرضة » هى - أيضا - الأمر الصالح لكل شىء ، فيقال : « فلان عرضة لكل المهمات » . أى صالح. والعرضة - كما عرفنا - هى ما اعترض بين شيئين ، كأن يضع الإنسان يده على عينيه فلا يرى الضوء ، هنا تكون اليد « عُرضة » بين عينى الإنسان والشمس . إن الإنسان يحجب بذلك عن نفسه الضوء .

كأن الحق يقول : « أنا لا أريد أن تجعلوا اليمين عرضة بين الإنسان وفعل الخير والبر والتقوى » . فعندما يطلب منك واحد أن تبر من أساء إليك فقد تقول : « أنا أقسمت ألا أبر هذا الإنسان » إنك بذلك جعلت اليمين بالله مانعاً بينك وبين البر .

ويريد الحق بذلك القول أن ينبهنا إلى أن القسم به لا يجوز فى منع البر أو صلة الرحم أو إصلاح بين الناس . . ومن حلف على شىء فرأى غيره خيرا منه فليفعل الخير وليكفر عن يمينه،لماذا ؟ لأن المؤمن عندما يحلف على ألا يفعل خيراً فهو يضع الله مانعاً بينه وبين الخير ، وبذلك يكون قد ناقض المؤمن نفسه بأن جعل المانع هو الحلف بالله . إن الله هو صاحب الأمر بالبر والتقوى والإصلاح بين الناس . لذلك فالحق يقول : « ولاتجعلوا الله عُرضة لأيمانكم » . أى أن الحق يريد أن يحمى عمليات البر والتقوى والإصلاح بين الناس .

إنك إن حلفت أيها المؤمن ألا تفعل هذه العمليات،فالحق يريد لك أن تحنث فى هذا القسم وأن تفعل البر والتقوى والإصلاح بين الناس حتى لا تتناقض مع تشريع الله . ونحن عندما نجد المجتمع وقد صنع فيه كل فرد البر ، واتقى فيه كل إنسان المعاصى ، ورأى فيه كل إنسان نزاعاً بين جماعتين فأصلح هذا النزاع ، أليس هذا دخولا فى السلم كافة . إذن فالحق يريد أن يستبقى للناس ينابيع الخير وألا يسدوها أمام أنفسهم .

إن الحق هو الآمر بألا يجعل المؤمن اليمين مانعاً بين الإنسان والبر ، أو بين الإنسان والتقوى ، أو بين الإنسان والإصلاح بين الناس . ويتساهل الإسلام فى

مسألة التراجع والحنث في البر فيقول السلف الصالح : « لا حنث خير من البر ». إذن فالمجتمع الذى فيه صنع البر ، وتقوى المعاصى ، والصلح بين المتخاصمين يدخل فى إطار :

﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾

(من الآية ٢٠٨ سورة البقرة)

والإنسان قد يتعلل بأى سبب حتى يبتعد عن البر أو التقوى أو الإصلاح بين الناس ، بل يعمل شيئاً يريحه ويخلع عليه أنه ممتثل لأمر الله ، ولنضرب لذلك مثلا . سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه بعد أن جاء مسطح بن أثاثة واشترك مع من خاضوا فى الإفك الذى اتهموا فيه أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها .

وخلاصة الأمر أن عائشة رضى الله عنها زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم . كانت قد خرجت مع الرسول الكريم فى غزوة « بنى المصطلق » وكان الأمر بالحجاب قد نزل ، لذلك خرجت عائشة رضى الله عنها فى هودج .

وقام الرسول بغزوته وحان وقت العودة . وفقدت عائشة عقداً لها . وكانت رضى الله عنها خفيفة الوزن ؛ لأن الطعام فى تلك الأيام كان قليلا . راحت عائشة رضى الله عنها تبحث عن عقدها المفقود ، وعندما حملوا هودج عائشة رضى الله عنها لم يفطنوا أن عائشة ليست به . ووجدت عائشة عقدها المفقود ، وكان جيش رسول الله قدابتعد عنها . وظنت أنهم سيفتقدونها فيرجعون إليها . وكان خلف الجيش صفوان ابن المعطل السلمى وعرفته عائشة وأناخ راحلته وعادت عائشة إلى المدينة . ودار حديث الإفك بوساطة عبدالله بن أُبَىّ بن سلول رأس النفاق .

وكان الغم والحزن يصيبان السيدة عائشة طوال مدة كبيرة وأوضح الحق كذب هذا الحديث . وذاع ما ذاع عن أم المؤمنين عائشة وهى زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن تكون بنت أبى بكر . وأبو بكر صِدّيق رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولو أن غير عائشة حدث لها ما حدث لعائشة لكان موقف أبى بكر هو موقفه عندما جاء قريبه مسطح بن أثاثة واشترك فى حديث الإفك مع من اشتركوا ثم يبرىء الله عائشة وينزل القول الذى يثبت براءة أم المؤمنين فى حديث الإفك ، وحين يبرئها الله يأتى أبو بكر وكان ينفق على مسطح فيقطع عنه النفقة ويقول : « والله لا أنفق عليه أبداً » لماذا ؟ لأنه اشترك فى حديث الإفك . والمسألة فى ظاهرها ورع . لذلك سيمتنع عن النفقة على مسطح بن أثاثة لأن مسطحاً خاض فى الإفك . لكن انظر إلى مقاييس الكمال والجمال والفضائل عند الله فقد أوضح الحق أن هذا طريق ، وذاك طريق آخر ، فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة النور)

فإذا كنت تحب أن يغفر الله لك ، أفلا تغفر لمن فعل معك سيئة ؟ . ومادمت تريد أن يغفر الله لك فاغفر للناس خطأهم . قالها الحق عز وجل لأبى بكر ؛ لأنه وقف موقفاً من رجل خاض فى الإفك مع من خاض ومع ذلك يبلغه أن ذلك لا يصح .

قوله تعالى : « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا » لا تقل :إنى حلفت بالله على ألا أفعل ذلك الخير،لا . افعله فالله يرضى لك أن تحنث وتكفر عن يمينك .

« ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم » . إن الله عز وجل يبلغنا : أنا لا أريد أن تجعلوا الحلف بى عُرضة ، يعنى حاجزاً أو مانعاً عن فعل الخير . مثلاً لو طُلب منك أن تبر شخصاً أساء إليك فلا تقل : حلفت ألا أبرّ به لأنه لا يستحق ، عندها تكون قد جعلت اليمين بالله مانعاً للبر . وكأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يقول لك : لا ، أنا متجاوز عن اليمين بى ؛ إن حلفت ألا تبر أو لا تتقى أو لا تصل رحماً أو لا تصلح بين اثنين ، أنا تسامحت فى اليمين .

والحديث يقول : (من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه)[١] وهكذا يحمى الله سبحانه وتعالى فعل البر ويحمى التقوى ويحمى عمليات الإصلاح بين الناس ، ولو كنت قد حلفت بالله ألا تفعلها،لماذا ؟ لأنك عندما تحلف بالله ألا تفعل ، وتجعل الله سبحانه وتعالى هو المانع ، فقد ناقضت التشريع نفسه ؛ لأن الله هو الآمر بالبر والإصلاح والتقوى ، فلا تجعل يمين البشر مانعا من تنفيذ منهج رب البشر .

« ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس » إن حلفت على ترك واجب وجب أن ترجع فى اليمين . احنث فيه وكفر عنه ، والحكم نفسه يسرى على الذى يمنع ممتلكاته كالدابة أو الماكينة أو السيارة من انتفاع الناس بها بحجة أنه حلف ألا يعيرها لأحد ، وذلك أمر يحدث كثيراً فى الأرياف .

ويختم الحق سبحانه وتعالى الآية بالقول الكريم : « والله سميع عليم » . إنه سبحانه سميع باليمين الذى حلفته ، وعليم بنيتك إن كانت خيراً أو شراً فلا تتخذ اليمين حجة لأن تمنع البر والتقوى والإصلاح . والحق سبحانه وتعالى عندما يتكلم عن اليمين يعطينا أصلاً من أصول اعتبار اليمين هل هو يمين حقا أو لغو ، ومن رحمة الله أنه سبحانه وتعالى لم يأخذ إلا باليمين الذى عُقد القلب عليه ، أى الذى يقصد صاحبه ألا يحنث فيه ، أما لغو اليمين فقد تجاوز الله عنه .

مثلاً ، الأيمان الدارجة على ألسنة الناس كقولهم : « والله لو لم تفعل كذا لفعلت معك كذا » ، « والله سأزورك » ، « والله ما كان قصدى » أو الحلف بناءً على الظن ؛ كأن تحلف بقولك : « والله حدث هذا » وأنت غير متأكد من تمام حدوثه ، لكن ليس فى مقصدك الكذب .

أما اليمين الغموس فهى الحلف والقسم الذى تعرف كذبه وتحلف بعكس ما تعرف ، كأن تكون قد شاهدت واحداً يسرق أو يقتل وتحلف بالله أنه لم يسرق أو لم يقتل . من أجل ذلك كله يحسم الله سبحانه وتعالى هذه القضية بقوله :

(١) هذا الحديث أخرجه الإمام مسلم والترمذى والإمام أحمد فى مسنده عن أبى هريرة .

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾

وكان من المناسب أن تأتى هذه الآية بعد كل ما سبق لأنه سبحانه أوضح لنا اليمين التى لا تقع وكأنه قال لنا : ارجعوا فيها واحنثوا وسأقبل رجوعكم فى مقابل أن تبروا وتتقوا وتصلحوا ، فإذا كان قد قبل تراجعنا عن هذا اليمين فلأن له مقابلا فى فعل الخير. وقوله الحق : « بما كسبت قلوبكم » هو المعنى نفسه لقوله تعالى :

﴿ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة المائدة)

أى الشيء المعقود فى النفس والذى رسخ داخل نفسك ، لكن الشيء الذى يمر على اللسان فلا يؤاخذنا الله به . « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » والأيمان جمع يمين ، واليمين : هو الحلف أو القسم ، وسمى يمينا ؛ لأنهم كانوا قديماً إذا تحالفوا ضرب كل امرىء منهم يمينه على يمين صاحبه ، وذلك لأن اليمين هى الجارحة الفاعلة .

وبالمناسبة ، فالجارحة الفاعلة إياك أن تظن أنها تفعل بالرياضة والتدريب ، وإنما هى تفعل بالخلق أى كما خلقها الله ، فهى مجبرة على الفعل حسب خلقتها .

ولذلك عندما تجد إنسانا ويده اليمنى لا تعمل ويزاول أعماله بيده اليسرى فلا تحاول أن تجعله يستخدم اليمنى بدلا من اليسرى ؛ لأن محاولتك عبث لن يجدى ؛ لأن السبب فى أنه يستخدم اليسرى بدلا من اليمنى سبب خلقى ، فالجهاز الخاص بالتحكم فى الحركة فى المخ هو الذى يقر هذا الأمر : إن كان مخلوقا فى النصف الأيمن من المخ كانت اليد اليمنى هى الفاعلة ، وإن كان مخلوقا فى النصف

الأيسر من المخ فاليد اليسرى هي التي تعمل .

لذلك تجد الـذى يكتب بيده اليـسرى يتقن الكتـابة بها أفـضل من الذى يكتب باليمنى فى بعـض الأحيان ، ومن هنا نقـول : إنه من الخطأ أن تحاول تغيـير سلوك الذى يعمل بيده اليسرى بدلاً من اليمنى ؛ لأن ذلك عبث لن يصل لنتيجة .

وأحياناً تجد الجهاز المتحكم فى حـركة اليدين موجوداً فى منتصف ووسط المخ، فيرسل حركات مـتوازنة لليد اليمنى واليد اليسرى معـاً ، ولذلك تجد شخصاً يكتب بيديه اليمنى واليسرى معاً بالسرعة نفسها وبالإتقان نفسه ، ويؤدى بهما الأعمال بتلقائية عادية ، ولله فى خلقه شئون ، فهو يعطينـا الدليل على أنه لا تحكمه قواعد ، فهو قادر على أن يجـعل اليد اليـمنى تعمـل ، وقادر على أن يجـعل اليد اليـسرى تعـمل، أو يجعلهما يعـملان معاً بالقوة نفسهـا ، أو يجعل كلتا اليدين غير قابـلتين للعمل . إنها ليست عملية آلية خارجة عن إرادة الله ، بل كل شيء خاضع لإرادته سبحانه .

« لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » المقصود به الحلف ، والحلف من معانيه التقوية ، وهي مأخوذة من الحِلْف ، وهو أن يتـحالف الناس على عمل ما . ونحن عندما نتحـالف على عمل فنحن نقسِّم العمل بيننا ، وعندمـا نفعل ذلك يسهل علينا جميعاً أن نفعله .

« لا يؤاخذكم الله باللغـو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كـسبت قلوبكم والله غفور حليم » والكسب عملية إرادية . لأنك ساعـة تقسم بالله دون أن تقصد فهو لا يؤاخذك ، وهذا دليل عـلى أن الله واسع حليم . ويقول الحق سبـحانه وتعـالى بعد ذلك :

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ ﴾

يؤلون : أى يحلفون ألا يقربوا أزواجهن فى العملية المخصوصة ، ويريد الرجل أحيانا أن يؤدب زوجته فيهجرها فى الفراش بلا يمين ، وبدون أن يحلف . وبعض الناس لا يستطيعون أن يمتنعوا عن نسائهم من تلقاء أنفسهم ، فيحلفون ألا يقربوهن حتى يكون اليمين مانعا ومشجعا له على ذلك . وكان هذا الأمر مألوفا عند العرب قبل الإسلام .

كان الرجل يمتنع عن معاشرة زوجته فى الفراش أى فترة من الزمن يريدها ، وبعضهم كان يحلف ألا يقرب زوجته زمنا محدداً ، وقبل أن ينتهى هذا الزمن يحلف يمينا آخر ليزيد المدة فترة أخرى ، وهكذا حتى أصبحت المسألة عملية إذلال للمرأة ، وإعضالا لها ، وامتناعا عن أداء حقها فى المعاشرة الزوجية . وكان ذلك إهدارًا لحق الزوجة فى الاستمتاع بزوجها .

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن ينهى هذه المسألة ، وهو سبحانه لا ينهيها لحساب طرف على طرف ، وإنما بعدل الخالق الحكيم الرحيم بعباده . وكان من الممكن أن يحرمها ويحرمها نهائيا ويمنع الناس منها . لكنه سبحانه عليم بخفايا وطبيعة النفوس البشرية ، فقد ترى امرأة أن تستغل إقبال الرجل عليها ، إما لجمال فيها أو لتوقد شهوة الرجل ، فتحاول أن تستذله ؛ لذلك أعطى الله للرجل الحق فى أن يمتنع عن زوجته أربعة أشهر ، أمّا أكثر من ذلك فالمرأة لا تطيق أن يمتنع زوجها عنها .

« للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم » والإسلام يريد أن يبنى الحياة الزوجية على أساس واقعى لا على أفكار مجنحة ومجحفة لا تثبت أمام الواقع ، فهو يعترف بالميول فيعليها ولكن لا يهدمها ، ويعترف بالغرائز فلا يكتمها ولكن يضبطها .

وهناك فرق بين الضبط والكبت ؛ فإن الكبت يترك الفرصة للداء ليستشرى خفيا حتى يتفجر فى نوازع النفس الإنسانية تفجرا على غير ميعاد وبدون احتياط ، لكن الانضباط يعترف بالغريزة ويعترف بالميول ، ويحاول فقط أن يهديها ولا يهدمها . ويخضع البشر فى كل أعمالهم لهذه النظرية حتى فى صناعتهم ، فالذين يصنعون

المراجل البخارية مثلا يجعلون فى تلك المراجل التى يمكن أن يضغط فيها الغاز ضغطا فيفجرها يجعلون لها متنفسا حتى يمكن أن يخفف الضغط الزائد إن وُجد ، وقد يصممون داخلها نظاما آليا لا يتدخل فيه العقل بل تحكم الآلة نفسها .

والحق سبحانه وتعالى وضع نظاما واضحا فى خلقه الذين خلقهم ، وشرع لهم تكوين الأسرة على أساس سليم . وبنى الإسلام هذا النظام أولا على سلامة العقيدة ونصاعتها ووحدتها حتى لا تتوزع المؤثرات فى مكونات الأسرة ، لذلك منع المسلم من أن يتزوج من مشركة ، وحرم على المسلمة أن تتزوج مشركا . وبعد ذلك علمنا معنى الالتقاء الغريزى بين الزوجين . ولقد أراد الحق سبحانه وتعالى ألا يطلق العنان للغريزة فى كل زمان التواجد الزوجى ، فجعل المحيض فترة يحرم فيها الجماع وقال :

﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾

(من الآية ٢٢٢ سورة البقرة)

وهكذا يضبط الحق العلاقة الجنسية بين الزوجين ضبطا سليما نظيفا .

الحق سبحانه وتعالى يعلم أن النفس البشرية ذات أغيار ؛ لأن الإنسان حادث له بداية ونهاية ، وكل ما يكون حادثا لابد أن يطرأ عليه تغيير . فإذا ما التقى الرجل بالمرأة . كان لابد من أن يتحدد هذا اللقاء على ضوء من منهج الله ؛ لأن اللقاء إن تم على منهج البشر وعواطفهم كان المصير إلى الفشل ؛ لأن مناهج البشر متغيرة وموقوتة ، ولذلك يجب أن يكون لقاء الرجل بالمرأة على ضوء معايير الله .

فالله يعلم أن للنفس نوازع ومتغيرات ، ومن الجائز جدا أن يحدث خلاف بين الزوجين ، فيجعل الله سبحانه وتعالى متنفسا يتنفس فيه الزوج للتأديب الذى ينشد التهذيب والإبقاء ، فشرع للرجل إن رأى فى امرأته إذلالا له بجمالها وبحسنها ، وقد يكون رجل له مزاج خاص ورغبة جامحة فى هذه العملية ؛ لذلك شرع الله له فترة من الفترات أن يحلف ألا يقرب امرأته ، ولم يجعل الله تلك الفترة مطلقة ، إنما قيدها بالحلف حتى يكون الأمر مضبوطا .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

فالحق يريد العلاج لا القسوة . فلو لم يكن الرجل مضبوطا بيمين فقد يُغير رأيه بأن يأتي زوجته ، ولذلك قال الحق : « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر » أي إنّ لك أيها الزوج أن تحلف ألا تقرب زوجتك أربعة أشهر لكن إن زادت المدة على أربعة أشهر فهي لن تكون تأديبا بل إضرارا . والخالق عز وجل يريد أن يؤدب لا أن يضر . فإذا ما تجاوزت المدة يكون الزوج متعديا ولا حق له .

إن الحق سبحانه وتعالى هو خالق الميول والعواطف والغرائز ويقنن لها التقنين السليم . إنه عز وجل يترك لنا ما يدلنا على ذلك ، ففي خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يمر عمر في جوف الليل فيسمع امرأة تقول الأبيات المشهورة :

تطاول هذا الليل واسود جانبه
وأرقني إلا خليل ألاعبه
فوالله لولا الله تخشى عواقبه
لزلزل من هذا السرير جوانبه

معنى ذلك أن المرأة تعاني من الوحشة إلى الرجل ، وتوشك المعاناة أن تدفعها إلى سلوك غير قويم ، لكن تقوى الله هي التي تمنعها من الانحراف . ومن الجائز أن نتساءل كيف سمع عمر هذه المرأة وهو يسير في الشارع ، وأقول : إن المرأة التي تأتي عندها هذه الأحاسيس تترنم في سكون الليل ، وعندما يسكن الليل لا تكون فيه ضجة فيسهل سماع ما يقال داخل البيوت ، ألم يسمع عمر كلام المرأة التي تجادل ابنتها في غش اللبن ؟

ولما سمع الفاروق كلام هذه المرأة التي تعاني من وحشة إلى الرجل ، ذهب بفطرته السليمة والمعيّنة المشرقة إلى ابنته حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وقال لها : كم تصبر المرأة على بعد الرجل ؟ فقالت : من ستة شهور إلى أربعة أشهر .

فسَنّ عمر سنةً أصبحت دستورا فيما بعد ، وهي ألا يبعد جندي من جنود المسلمين عن أهله أربعة أشهر . إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر » سبق حادثة عمر ، ثم ترك الحق لواقع الحياة أن يبين لنا

صدق ما قننه لنا ، ويأتي عمر ليستنبط الحكم من واقع الحياة .

« فإن فاءوا » أى فإن رجع الرجل ، وأراد أن يقترب من زوجته قبل مضى الأربعة أشهر ؛ فللرجل أن يكفر عن يمينه وتنتهى المسألة . ولكن إذا مرت الشهور الأربعة وتجاوزت المقاطعة مدتها يؤمر الزوج بالرجوع عن اليمين أو بالطلاق ، فإن امتنع الزوج طلقها الحاكم ، وقال بعض الفقهاء : إن مضى مدة الأربعة أشهر دون أن يرجع ويفيء يجعلها مطلقة طلقة واحدة بائنة . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾

واختلف العلماء ؛ هل تطلق الزوجة طلقة بائنة أو طلقة رجعية ؟ ومعنى « طلاق رجعى » مأخوذ من اللفظ نفسه ، أى أن الزوج له الحق أن يراجع امرأته دون إذن منها أو رضاً . أما الطلاق البائن فإنه لا عودة إلا إذا عَقَد عليها عقدا جديدا بمهر جديد .

والطلقة فى الإيلاء بينونة صغرى وهى التى تحتاج إلى عقد ومهر جديدين ، هذا إذا لم يسبق طلاقان . والبينونة الكبرى وهى التى توصف بأنها ذات الثلاث ، فالزوجة فيها تطلق ثلاث مرات ، فلا يصح أن يعيدها الزوج إلا إذا تزوجت زوجا غيره ، وعاشت معه حياة زوجية كاملة ، ثم طلقها لأى سبب من الأسباب ، وبعد ذلك يحق لزوجها القديم أن يراجعها ويعيدها إليه بعقد ومهر جديدين ، لكن بعد أن يكتوى بغيرة زواجها من رجل آخر . والحق سبحانه وتعالى يعرض هذه المسألة فيقول :

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فالإسلام دين واقعى يعطى الزوج المسلم أشياء تنفس عن غضبه ، وأشياء تمكنه من أن يؤدب زوجته ، ولكن الإسلام لا يحب أن يتمادى الرجل فى التأديب . وإذا تمادى وتجاوز الأربعة الأشهر نقول له : لابد أن يوجد حد فاصل .

وبعد ذلك ينتقل الحق سبحانه وتعالى فى التكليف إلى أن يتكلم عن الطلاق وقد تكلم من قبل عن الزواج والإيلاء حتى وصل الطلاق .

وعندما نتأمل موقف الإسلام من الطلاق نجده يتكلم كلاما واقعيا يناسب الميول الإنسانية ؛ لأننا مادمنا أغيارا فمن الممكن أن يطرأ على حياة الزوجين أحداث أو مشاعر لم تكن فى الحسبان ساعة الزواج . ويجوز أن يكون الإنسان فى ساعة الزواج مدفوعا بحرارة ملكة واحدة ، وبعد ذلك عندما يجىء واقع الحياة تتملكه ملكات متعددة ، وقد تسيطر عليه المسألة الجنسية ، وتدفعه للزواج ، وفى سبيل إرضاء شهوته الجنسية قد يهمل بقية ملكات نفسه ، فإذا ما دخل واقع الزواج وهدأت شِرّة وحرارة غرائز الإنسان تنتبه نفس الإنسان إلى مقاييس أخرى يريد أن يراها فى زوجته فلا يجدها ويتساءل ما الذى أخفاها عنه ؟

أخفاها سعار وعرامة النظرة الجنسية ، فقد نظر للمرأة قبل الزواج من زاوية واحدة ، ولم ينظر لباقى الجوانب . مثلا قد يجد الزوج أن أخلاق الزوجة تتنافر مع أخلاقه ، وقد يجد تفكيرها وثقافتها تتنافر مع تفكيره وثقافته ، وربما وجد عدم التوافق العاطفى بينه وبينها ولم يحدث تآلف نفسى بينهما ، والعواطف - كما نعلم - ليس لها قوانين .

فمن الجائز أن يكون الرجل غير قادر على الاكتفاء بوليمة جنسية واحدة ، فهو لذلك لا يبنى حياته على طهر ، وإنما يريد من امرأته أن تكون طاهرة عفيفة فى حياتها معه ، بينما يعطى لنفسه الحرية فى أن يعدد ولائمه الجنسية مع أكثر من امرأة ، وربما يحدث العكس ، وذلك أن يجد الرجل أنّ امرأة واحدة تكفيه ، لكن المرأة تريد أكثر من رجل .

وقد يكون الرجل طاهر الأسلوب فى الحياة ، وتكون زوجته راغبة فى أن يأتيها بالمال

من أى طريق، فيختلفان . وقد تكون المرأة طاهرة الأسلوب فى الحياة فلا ترضى أن يتكسب زوجها من مال حرام .

من هنا يأتى الشقاق، إن الشقاق يأتى عندما يريد أحد الزوجين أن تكون حياتهما نظيفة طاهرة، مستقيمة، ولا يرى الآخر ذلك . مثل هذه الصورة موجودة فى الواقع حولنا ، فكم من بيوت تشقى عندما تشقى عندما تختفى الوحدة الأسرية ، وتختلف نظرة أحد الزوجين للأمور عن آخر .

وهذا هو سبب الشقاق الذى يحدث بين الزوجين عندما لايكتفى أحد الزوجين بصاحبه . ولو اتفق رجل وامرأته على العفاف ، والطهر ، والخيرية لاستقامت أمور حياتهما . ولذلك يأتى الإسلام بتشريعاته السامية لتناسب كل ظروف الحياة فيقول الحق سبحانه :

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) ﴾

الآية كلها تتضمن أحكاماً تكليفية، والحكم التكليفى الأول هو : «والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء» ولنا أن نلحظ أن الحكم لم يرد بصيغة الأمر ولكن جاء فى صيغة الخبر ، فقال : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء»، وحين يريد الحق سبحانه وتعالى حكماً لازما لايأتى له بصيغة الأمر الإنشائى ، ولكن يأتى له

بصيغة الخبر ، هذا آكد وأوثق للأمر كيف ؟

معنى ذلك أن الحق سبحانه وتعالى حين يأمر فالأمر يصادف من المؤمنين به امتثالاً ، ويُطبق الامتثال في كل الجزئيات حتى لا تشذ عنه حالة من الحالات فصار واقعا يُحكى وليس تكليفا يُطلب ، ومادام قد أصبح الأمر واقعا يُحكى فكأن المسألة أصبحت تاريخا يُروى هو : « والمطلقات يتربص بأنفسهن ثلاثة قروء » . ويجوز أن نأخذ الآية على معنى آخر هو أن الله قد قال : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن » فيكون كلاماً خبرياً .

وقلنا إن الكلام الخبرى يحتمل الصدق والكذب ، إن الله قد قال ذلك فمن أراد أن يصدق كلام الله فلينفذ الحكم ، ومن أراد أن يبارز الله بالتكذيب ولا يصدقه فلا ينفذ الحكم ، ويرى فى نفسه آية عدم التصديق وهى الخسران المبين ، أليس ذلك أكثر إلزاما من غيره ؟ ومثل ذلك قوله تعالى :

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة النور)

إن هذا وإن كان كلاما خبريا لكنه تشريع إنشائى يحتمل أن تطيع وأن تعصى ، ولكن الله يطلب منا أن تكون القضية هكذا « الخبيثات للخبيثين » يعنى أن ربكم يريد أن تكون « الخبيثات للخبيثين » وأن تكون « الطيبات للطيبين » وليس معنى ذلك أن الواقع لابد أن يكون كما جاء فى الآية ، إنما الواقع يكون كذلك لو نفذنا كلام الله وسيختلف إذا عصينا الله وتمردنا على شرعه . والمعنى نفسه فى قوله تعالى :

﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

أى اجعلوا من يدخل البيت الحرام آمناً . ويحتمل أن يعصى أحد الله فلا يجعل البيت الحرام آمناً . إذن فقوله الحق : « والمطلقات يتربص بأنفسهن ثلاثة قروء » هو

حكم تكليفي يستحق النفاذ لمن يؤمن بالله ، وقوله : « يتربصن » أي ينتظرن ، واللفظ هنا يناسب المقام تماما ، فالمتربصة هي المطلقة ، ومعنى مطلقة أنها مزهود فيها ، وتتربص وتنتظر انتهاء عدتها حتى ترد اعتبارها بصلاحيتها للزواج من زوج آخر . ولم ينته القول الكريم بقوله : « يتربصن » وإنما قال : « يتربصن بأنفسهن » مع أن المتربصة هي نفسها المطلقة ؛ ذلك لأن النفس الواعية المكلفة والنفس الأمارة بالسوء تكونان في صراع على الوقت وهو « ثلاثة قروء » ، « وقروء » جمع « قرء » وهو إما الحيضة وإمّا الطهر الذى بين الحيضتين . وقوله الحق سبحانه وتعالى : « ثلاثة قروء » ما المقصود به ؟

هل هو الحيضة أو الطهر ؟ إن المقصود به الطهر ؛ لأنه قال : « ثلاثة » بالتاء ، ونحن نعرف أن التاء تأتى مع المذكر ، ولا تأتي مع المؤنث ، و« الحيضة » مؤنثة و« الطهر » مذكر ، إذن ، « ثلاثة قروء » هى ثلاثة أطهار متواليات . والعلة هى استبراء الرحم وإعطاء مهلة للزوجين فى أن يراجعا نفسيهما ، فربما بعد الطهر الأول أو الثانى يشتاق أحدهما للآخر ، فتعود المسائل لما كانت عليه ، لكن إذا مرت ثلاثة أطهار فلا أمل ولا رجاء فى الرجوع .

ثم يقول الحق بعد ذلك : « ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن » وما معنى الخلق ؟ الخلق هو إيجاد شيء كان معدوماً ، وهذا الشيء الذى كان معدوما إما أن يكون حملاً وإما أن يكون حيضا ، وللحامل عدة جاءت فى قوله الحق .

﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾

(من الآية ٤ سورة الطلاق)

أما المرأة الحائل وهى التى بدون حمل ، فعدتها أن تحيض وتطهر ثلاث مرات . وهناك حالة ثالثة هى :

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ﴾

(من الآية ٤ من سورة الطلاق)

أى أن المرأة التى انقطعت عنها الدورة الشهرية فعدتها «ثلاثة أشهر» الحكم نفسه للصغيرة التى لم تحض بعد ، أى عدتها ثلاثة أشهر . إذن فنظام العدة له حالات :

- إن كانت غير حامل فعدتها ثلاثة قروء أى ثلاثة أطهار إن كانت ممن يحضن
- إن كانت حاملا فعدتها أن تضع حملها .
- وإن لم تكن حاملا وقد بلغت سن اليأس ولم تعد تحيض ، أو كانت صغيرة لم تصل لسن الحيض ، هذه وتلك عدتها ثلاثة أشهر .

وقوله تعالى : «ولايحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن» يدل على أن المرأة لها شهادتها لنفسها فى الأمر الذى يخصها ولا يطلع عليه سواها . وهى التى تقرر المسألة بنفسها، فتقول : أنا حامل أولا ، وعليها ألا تكتم ذلك ، فقد يجوز أن تكون حاملا وبعد ذلك تكتم ما في بطنها حتى لا تنتظر طول مدة الحمل وتتزوج رجلاً آخر فينسب الولد لغير أبيه ، فغالبا مايستمر الحمل تسعة أشهر ولكن فيه استثناء فهناك حمل مدته سبعة شهور ، وأحيانا ستة شهور . وقد تتزوج المرأة المطلقة بعد ثلاثة شهور وتدعى أنها حامل من الزواج الجديد وأن حملها لم يستمر سوى سبعة أشهر أو ستة أشهر .

وبعضنا يعرف قصة الحامل فى ستة شهور ، فقد جاءوا بامرأة لسيدنا عثمان رضي الله عنه لأنها ولدت لستة أشهر ، فأراد أن يقيم عليها حد الزنى ، فتدخل الإمام على ابن أبى طالب وقال : كيف تقيم عليها الحد لأنها ولدت لستة أشهر ، ألم تقرأ قول الحق سبحانه وتعالى؟ قال عثمان : وماذا قال الحق فى ذلك؟ فقرأ الإمام على قول الله :

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾

(من الآية ٢٣٣ سورة البقرة)

أى أنها ترضع الوليد لمدة أربعة وعشرين شهرا ، وفى اية أخرى قال الحق :

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

فإذا أخذنا من الآية الأولى أربعة وعشرين شهرا وهى مدة الرضاع وطرحناها من الثلاثين شهرا التى تجمع بين الحمل والرضاع فى الآية الثانية فهمنا أن الحمل قد يكون ستة أشهر . هنا قال سيدنا عثمان متعجبا : والله ما فطنت لهذا .

إذن فحمل الستة الشهور أمر ممكن ، ومن هنا نفهم الحكمة فى قوله تعالى : « ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن » ، حتى لا تدعى المرأة أنها ليست حاملا وتتزوج رجلا آخر وتنسب إليه ولدا ليس من صلبه ويترتب على ذلك أكثر من إشكال ، منها ألا يرث الولد من الأب الأول ، وأن محارمه لم تعد محرمة عليه ، فأخته من أبيه لم تعد أخته ، وكذلك عماته وخالاته وتنقلب الموازين ، هذا من جانب الأب الأصلى .

أما من جانب الزوج الثانى فالطفل يكتسب حقوقا غير مشروعة له ، سيرث منه ، وتصبح محارم الرجل الثانى محارمه فيدخل عليهن بلا حق ويرى عوراتهن ، وتحدث تداخلات غير مشروعة .

إذن فقوله الحق : « ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن » هو قول يريد به الحق أن تقوم الحياة على طهر وعلى شرف وعلى عفاف ، ولا يعتدى أحد على حقوق الآخر . هذا بالنسبة للحمل . فكيف يكون الحال بالنسبة للحيض ؟

أيضا لا يحل لها أن تكتم حيضها لتطيل زمن العدة مع زوجها . ويقول الحق : « إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر » . فما علاقة الإيمان هنا بالحكم الشرعى ؟ إنها علاقة وثيقة ؛ لأن الحمل أو الحيض مسائل خفية لا يحكمها قانون ظاهر ، إنما الذى يحكمها هو عملية الإيمان ، ولذلك قيل : « الغيب لا يحرسه إلا غيب » ومادام الشىء غائباً فلن يحرسه إلا الغيب الأعلى وهو الله تعالى .

ويتابع الحق : « وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك » والبعل هو الزوج ، وهو الرب والسيد والمالك ، وفى أثناء فترة التربص يكون الزوج أحق برد زوجته إلى عصمته ، وقوله تعالى : « وبعولتهن أحق بردهن » هل يعنى ذلك أن هناك أناساً يمكن أن

يشـاركوا الزوج فى الرد ؟ لأن الحق جـاء بكلمـة « أحق » وفى ظاهرها تعطى الحق لغيـر الأزواج أن يراجعوا ؟ لا ، إنما المقصـود هو أنه لا حق لأحد هنا إلا للزوج ، فـالرد خـلال العدة مـن حق الزوج ، فليس للزوجـة أن تقـول : لا ، وليس لولى الزوجة أن يقول : لا . فـالزوج إذا أراد مراجعة زوجتـه وأبت وامتنعت هى وجب إيثار وتقديم رغبـته على رغبتها ، وكان هو أحق منهـا ، ولا ينظر إلى قولها ، فإنه ليس لهـا فى هذا الأمر حق فـقد رضيـت به أولاً . أما إذا انتـهت العدة فـالصورة تخـتلف ، لا بد من الولى ، ولا بد من عـقد ومـهر جـديدين واشـتراط مـوافقـة الزوجة .

« وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصـلاحاً » هذا إن أرادوا إصلاحاً . والإرادة عمل غيبى ، فكأنها تهديد للزوجين ، إن التشريع يجيز لهما العودة ، لكن إذا كان الزوج يريد أن يردها ليوقع بها الضرر لسبب فى نفسه فالدين يقول له : لا ، ليس لك ذلك . وإن كان القضاء يجيز له ردها ، إلا أن الله يحرم عليه ذلك الظلم. إن من حق الزوج أن يرد زوجتـه رداً شرعياً للعـفة والإحصان ولغـرض الزوجية لا لشىء آخر ، أما غير ذلك كالإضرار بها والانتقام منها فلا يجيز له الدين ذلك .

أما قضائياً، فالقضاء يعطيـه الحق فى ردها ولا يستطيع أحد أن يقف أمامه مهما كانت الأسبـاب الكامنة فى نفسه ، لكن عليه أن يتحـمَّل وزر ذلك العمل . ويتابع الحق : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » أى أن للزوجة مثل ما للزوج ، لكن ما الذى لهن وما الذى عليهن ؟

المثلية هنا فى الجنس ، فكل منهـما له حق على الآخر حسب طبيـعته ، الزوج يقدم للزوجـة بعضاً من خدمـات ، والزوجة تقدم له خـدمات مقابلة ؛ لأن الحـياة الزوجية مبنيـة على توزيع المسئوليات ، إن الرجل عليه مسئـوليات تقتضيها طبـيعته كرجل ، والمرأة عليهـا مسئوليات تحتـمها طبيعتـها كأنثى . والرجل مطالب بالكدح والسعى من أجل الإنفاق . والمرأة مطالبة بأن توفر للرجل البيت المناسب ليسكن إليها عندما يعود من مهمته فى الحياة . ولذلك يقول الله عز وجل :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً

﴿ وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الروم)

والسكن إلى شيء هو نقيض التحرك ، ومعنى « لتسكنوا إليها » أى إنكم تتحركون من أجل الرزق طوال النهار ثم تعودون للراحة عند زوجاتكم ، فالرجل عليه الحركة ، والمرأة عليها أن تهيء له حسن الإقامة ، وجمال العشرة وحنان وعطف المعاملة . فالمسئوليات موزعة توزيعاً عادلاً ، فهناك حق لك هو واجب على غيرك ، وهناك حق لغيرك وهو واجب عليك .

ويقول الحق : « وللرجال عليهن درجة » وهى درجة الولاية والقوامة . ودرجة الولاية تعطينا مفهوما أعم وأشمل ، فكل اجتماع لابد له من قَيِّم ، والقوامة مسئولية وليست تسلطاً ، والذى يأخذ القوامة فرصة للتسلط والتحكم فهو يخرج بها عن غرضها ؛ فالأصل فى القوامة أنها مسئولية لتنظيم الحركة فى الحياة .

ولا غضاضة على الرجل أن يأتمر بأمر المرأة فيما يتعلق برسالتها كامرأة وفى مجالات خدمتها ، أى فى الشئون النسائية ، فكما أن للرجل مجاله ، فللمرأة مجالها أيضاً . والدرجة التى من أجلها رُفع الرجل هى أنه قوام أعلى فى الحركة الدنيوية ، وهذه القوامة تقتضى أن ينفق الرجل على المرأة تطبيقاً لقول الحق :

﴿ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة النساء)

إذن فالإنفاق واجب الرجل ومسئوليته ، وليعلم أن الله عزيز لا يحب أن يستذل رجل امرأة هى مخلوق لله ، والله حكيم قادر على أن يقتص للمرأة لو فهم الرجل أن درجته فوق المرأة هى للاستبداد ، أو فهمت المرأة أن وجودها مع الرجل هى منة منها عليه ، فلا استذلال فى الزواج ؛ لأن الزواج أساسه المودة والمعروف . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) ﴾

هنا يتحدث الحق سبحانه وتعالى عن الطلاق بعد أن تحدث عن المطلقة فى عدتها وكيفية ردها ومراجعتها ، وإنه سبحانه يتحدث عن الطلاق فى حد ذاته والطلاق مأخوذ من الانطلاق والتحرر ، فكأنه حل عقدة كانت موجودة وهى عقدة النكاح ، وعقدة النكاح هى العقدة التى جعلها الله عقداً مغلظاً وهى الميثاق الغليظ ، فقال تعالى :

﴿ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [سورة النساء]

أنه ميثاق غليظ لأنه أباح للزوجين عورات الآخر ، في حين أنه لم يقل عن الإيمان إنه ميثاق غليظ ، قال عنه : «ميثاق» فقط ، فكأن ميثاق الزواج أغلظ من ميثاق الإيمان . والحق سبحانه وتعالى يريد أن يربى فى الناس حل المشكلات بأيسر الطرق . لذلك شرع لنا أن نحل عقدة النكاح ، ونهاية العقدة ليست كبدايتها ، ليست جذرية ، فبداية النكاح كانت أمراً جذريا ، أخذناه بإيجاب وقبول وشهود وأنت حين تدخل فى الأمر تدخله وأنت دارس لتبعاته وظروفه ، لكن الأمر فى عملية الطلاق يختلف ؛ فالرجل لايملك أغمار نفسه ، فربما يكون السبب فيها هيناً أو لشىء

كان يمكن أن يمر بغير الطلاق ؛ فيشاء الحق سبحانه وتعالى أن يجعل للناس أناة وروية في حل العقدة فقال : « الطلاق مرتان » يعني مرة ومرة ، ولقائل أن يقول : كيف يكونْ مرتين ، ونحن نقول ثلاثة ؟ وقد سأل رجلٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال يا رسول الله قال الله تعالى : « الطلاق مرتان » فلم صار ثلاثا ؟

فقال صلى الله عليه وسلم مبتسماً : « فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » . فكأن معنى « الطلاق مرتان » ، أي أن لك في مجال اختيارك طلقتين للمرأة ، إنما الثالثة ليست لك ، لماذا ؟ لأنها من بعد ذلك ستكون هناك بينونة كبرى ولن تصبح مسألة عودتها إليك من حقك ، وإنما هذه المرأة قد أصبحت من حق رجل آخر . .

﴿ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ﴾

(من الآية ٢٣٠ سورة البقرة)

أما قول الرجل لزوجته أنت « طالق ثلاثاً » يُعتبر ثلاث طلقات أم لا ؟ نقول : إن الزمن شرط أساسي في وقوع الطلاق ، يطلق الرجل زوجته مرة ، ثم تمضي فترة من الزمن ، ويطلقها مرة أخرى فتصبح طلقة ثانية ، وتمضي أيضا فترة من الزمن وبعد ذلك نصل لقوله : « فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » ولذلك فالآية نصها واضح وصريح في أن الطلاق بالثلاث في لفظ واحد لا يوقع ثلاث طلقات ، وإنما هي طلقة واحدة ، صحيح أن سيدنا عمر رضي الله عنه جعلها ثلاث طلقات ؛ لأن الناس استسهلوا المسألة ، فرأى أن يشدد عليهم ليكفوا ، لكنهم لم يكفوا ، وبذلك نعود لأصل التشريع كما جاء في القرآن وهو « الطلاق مرتان » .

وحكمة توزيع الطلاق على المرات الثلاث لا في العبارة الواحدة ، أن الحق سبحانه يعطي فرصة للتراجع . وإعطاء الفرصة لا يأتي في نفس واحد وفي جلسة واحدة . إن الرجل الذي يقول لزوجته : أنت طالق ثلاثا لم يأخذ الفرصة ليراجع نفسه ولو اعتبرنا قولته هذه ثلاث طلقات لتهدمت الحياة الزوجية بكلمة . ولكن عظمة التشريع في أن الحق سبحانه وزع الطلاق على مرات حتى يراجع الإنسان نفسه ، فربما أخطأ في المرة الأولى ، فيمسك في المرة الثانية ويندم . وساعة تجد التشريع يوزع أمراً يجوز أن يحدث ويجوز ألا يحدث ، فلا بد من وجود فاصل زمني

بين كل مرة . وبعض المتشدقين يريدون أن يبرروا للناس تهجمهم على منهج الله فيقولون : إن الله حكم بأن تعدد الزوجات لا يمكن أن يتم فقال :

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة النساء)

ويقولون : إنّ الله اشترط فى التعدد العدل ، ثم حكم بأننا لن نستطيع أن نعدل بين الزوجات مهما حرصنا ، فكأنه رجع فى التشريع ، هذا منطقهم . ونقول لهم : أكملوا قراءة الآية تفهموا المعنى ، إن الحق يقول : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » ثم فرع على النفى فقال :

﴿ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة النساء)

ومادام النفى قد فُرّع عليه فقد انتفى ، فالأمر كما يقولون : نفى النفى إثبات . أن الاستطاعة ثابتة وباقية وكان قوله تعالى: « فلا تميلوا كل الميل » إشارة إليها . وكذلك الأمر هنا « الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أوتسريح بإحسان » . فمادام قد قال : « فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » وقال: « الطلاق مرتان » أى أن لكل فعل زمناً ، فذلك يتناسب مع حلقات التأديب والتهذيب ، وإلا فالطلاق الثلاث بكلمة واحدة فى زمن واحد ، يكون عملية قسرية واحدة ، وليس فيها تأديب أو إصلاح أو تهذيب ، وفى هذه المسألة يقول الحق : « ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً » لأن المفروض فى الزوج أن يدفع المهر نظير استمتاعه بالبضع ، فإذا ما حدث الطلاق لا يحل للمطلق أن يأخذ من مهره شيئاً ، لكن الحق استثنى فى المسألة فقال : « إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به » .

فكأن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يجعل للمرأة مخرجاً إن أريد بها الضرر وهى لا تقبل هذا الضرر . فيأتى الحق ويشرع : مادام قد خافا ألا يقيما حدود الله ، فقد أذن لها أن افتدى نفسك أيتها المرأة بشيء من مال،ويكره أن يزيد على المهر إلّا إذا كان ذلك ناشئا عن نشوز منها ومخالفة للزوج فلا كراهة إذن فى الزيادة على المهر .

وقد جاء الواقع مطابقاً لما شرع الله عندما وقعت حادثة « جميلة » أخت «عبدالله بن أبى » حينما كانت زوجة لعبد الله بن قيس ، فقد ذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : « أنا لا اتهمه فى دينه ولا خلقه ولكن لا أحب الكفر فى الإسلام » وهى تقصد أنها عاشت معه وهى تبغضه ، لذلك لن تؤدى حقه وذلك هو كفر العشير أى إنكار حق الزوج وترك طاعته .

وهي قد قالت : إنها لا تتهمه لا فى دينه ولا فى خلقه لتعبر بذلك عن معانٍ عاطفية أخرى ، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلم منها ذلك ، فقالت : لقد رفعت الخباء فوجدته فى عدة رجال فرأيته أشدهم سواداً وأقصرهم قامة وأقبحهم وجهاً ، فقال لها صلى الله عليه وسلم : « أتردين حديقته » ؟ فقالت : وإن شاء زدته ، فقال صلى الله عليه وسلم : لا حاجة لنا بالزيادة ، ولكن رُدِّى عليه حديقته .

ويُسمى هذا الأمر بالخلع ، أى أن تخلع المرأة نفسها من زوجها الذى تخاف ألا تؤدى له حقاً من حقوق الزوجية ، إنها تخلع نفسها منه بمال حتى لا يصيبه ضرر ، فقد يريد أن يتزوج بأخرى وهو محتاج إلى ما قدم من مهر لِمَنْ تريد أن تخلع نفسها منه . ويتابع الحق سبحانه : « ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً » وهذا الشيء هو الذى قال عنه الله فى مكان آخر :

﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

ويتابع الحق الآية بقوله : « إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله » والمقصود هنا هما الزوجان ، ومن بعد ذلك تأتى مسئولية أولياء أمر الزوجين والمجتمع الذى يهمه أمرهما فى قوله : « فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » .

وحدود الله هى ما شرعه لعباده حداً مانعاً بين الحل والحرمة . وحدود الله إما أن ترد بعد المناهى ، وإما أن ترد بعد الأوامر ، فإن وردت بعد الأوامر فإنه يقول :

« تلك حدود الله فلا تعتدوها » أى آخر غايتكم هنا ، ولا تتعدوا الحد ، ولكن إن جاءت بعد النواهى يقول : « تلك حدود الله فلا تقربوها » ، لأن الحق يريد أن يمنع النفس من تأثير المحرمات على النفس ، فتلح عليها أن تفعل ، فإن كنت بعيداً عنها فالأفضل أن تظل بعيداً .

وانظر جيداً فيما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الحلال بيّن وإن الحرام بين وبينهما أمور مشبهات فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله فى أرضه محارمه »(١) .

ومادامت الحدود تشمل مناهى الله وتشمل أوامر الله فكل شىء مأمور به وكل شىء منهى عنه يجب أن يظل فى مجاله من الفعل فى « افعل » ومن النهى فى « لا تفعل » . وإذا انتقل نظام (افعل) إلى دائرة (لا تفعل) وانتقل ما يدخل فى دائرة « لا تفعل » إلى دائرة « افعل » ، هنا يختل نظام الكون ، ومادام نظام الكون أصابه الخلل فقد حدث الظلم ؛ فالظلم هو أن تنقل حق إنسان وتعطيه لإنسان آخر ، وتشريع الطلاق حد من حدود الله ، فإن حاولت أن تأتى بأمر لا يناسب ما أمر الله به فى تنظيم اجتماعى فقد نقلت المأمور به إلى حيز المنهى عنه ، وبذلك تحدث ظلماً .

والحق سبحانه وتعالى حينما يعالج قضايا المجتمع يعالجها علاجاً يمنع وقوع المجتمع فى الأمراض والآفات ، والبشر إن أحسنا الظن بهم فى أنهم يشرعون للخير وللمصلحة ، فهم يشرعون على قدر علمهم بالأشياء ، لكننا لا نأمن أن يجهلوا شيئاً يحدث ولا يعرفوه ، فهم شرّعوا لِمَا عرفوا ، وإذا شرعوا لما عرفوا وفوجئوا بأشياء لم يعرفوها ماذا يكون الموقف ؟ إن كانوا مخلصين بحق داسوا على كبرياء غرورهم التشريعى وقالوا: نُعَدِّل ما شرعنا ، وإن ظلوا فى غلوائهم فمن الذى يشقى ؟ إن المجتمع هو الذى يشقى بعنادهم .

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

والحق سبحانه وتعالى لا يتهم الناس جميعاً فى أن منهم من لا يريد الخير ، ولكنْ هناك فرق بين أن تريد خيراً وألّا تقدر على الخير . أنت شرعت على قدر قدرتك وعلمك . ونعرف جميعاً أن شقاء التجارب فى القوانين الاجتماعية النظرية تقع على المجتمع .

ونعرف جيداً أن هناك فرقاً بين العلم التجريبى المعملى والكلام النظرى الأهوائى ؛ فالعلم التجريبى يشقى به صاحب التجربة ، إن العالِم يكد ويتعب فى معمله وهوالذى يشقى ويضحى بوقته وبماله وبصحته ويعيش فى ذهول عن كل شىء إلا تجربته التى هو بصددها ، فإذا ما انتهى إلى قضية اكتشافية فالذى يسعد باكتشافه هو المجتمع . لكن الأمر يختلف فى الأشياء النظرية ؛ لأن الذى يشقى بأخطاء المقننين من البشر هو المجتمع ، إلى أن يجىء مقنن يعطف على المجتمع ويعدل خطأ من سبقه .

أما الحق سبحانه وتعالى فقد جاءنا بتشريع يحمى البشر من الشقاء ، فالله ـ سبحانه ـ يتركنا فى العالم المادى التجريبى أحراراً . ادخلو المعمل وستنتهون إلى أشياء قد تتفقون عليها ، لكن إياكم واختلافات الأهواء ؛ لذلك تولى الله عز وجل تشريع ما تختلف فيه الأهواء ، حتى يضمن أن المجتمع لا يشقى بالخطأ من المشرعين ، لفترة من الزمن إلى أن يجىء مشرع آخر ويعدل للناس ما أخطأ فيه غيره .

لذلك نجد فى عالمنا المعاصر الكثير من القضايا النابعة من الهوى ، ويتمسك الناس فيها بأهوائهم ، ثم تضغط عليهم الأحداث ضغطا لا يستطيعون بعدها أن يضعوا رءوسهم فى الرمال ، بل لابد أن يواجهوها ، فإذا ما واجهوها فإنهم لا يجدون حلاً لها إلا بما شرعه الإسلام ، ونجد أنهم التقوا مع تشريعات الإسلام .

إن بعضاً من الكارهين للإسلام يقولون : أنتم تقولون عن دينكم : إنه جاء ليظهر على كل الأديان ، مرة يقول القرآن :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الفتح)

ومرة يقول القرآن :

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الصف)

ويستمر هؤلاء الكارهون للإسلام فى قولهم ويضيفون : إن إسلامكم لم يظهر على الدين كله حتى الآن بدليل أن هناك الملايين لم يدخلوا الإسلام ؟ ونقول لهم : أو يظهر على الدين كله بأن يؤمن الناس بالإسلام جميعاً ،لا ، لو فطنوا إلى قول الله : « ولو كره الكافرون » لعلموا أن إظهار الإسلام على الدين لابد أن يلازمه وجود كافرين كارهين ، ومادام الإسلام موجوداً مع كافرين كارهين ، فهو لن يظهر كدين ، ولكنه يظهر عليهم ـ أى يغلبهم ـ كنظام يضطرون إليه ليحلوا مشكلات مجتمعاتهم الكافرة ، فسيأخذون من أنظمة وقوانين الإسلام وهم كارهون ، ولذلك نجدهم يستقون قوانينهم وإصلاحاتهم الاجتماعية من تعاليم الإسلام .

ولو كانوا سيأخذونه كدين لما قال الحق : « ولو كره الكافرون » أو « ولو كره المشركون » لأنهم عندما يعتنقونه كدين فلن يبقى كاره أو مشرك . لكن حين يقول سبحانه : « ولو كره الكافرون » و« ولو كره المشركون » فذلك يعنى : أن اطمئنوا يا من آمنتم بمحمد صلى الله عليه وسلم وأخذتم الإسلام ديناً ، إن تجارب الحياة ستأتى لتثبت لدى الجاحدين صدق دينكم ، وصدق الله فى تقنينه لكم ، وسيضطر الكافرون والمشركون إلى كثير من قضايا إسلامكم ليأخذوها كنظام يحلون به مشاكلهم رغم عنادهم وإصرارهم على أن يكونوا ضد الإسلام .

وضربنا على ذلك مثلاً بما حدث فى إيطاليا التى بها الفاتيكان قبلة الكاثوليك الروحية ؛ فقد اضطروا لأن يشرعوا قوانين تبيح الطلاق ، وحدث مثل ذلك فى أسبانيا وغيرها من الدول . انظر كيف تراجعوا فى مبادىء كانوا يعيبونها على الإسلام ! لقد اضطرتهم ظروف الحياة لأن يقننوا إباحة الطلاق تقنيناً بشرياً لا بتقنين إلهى . ومثل هذه الأحداث تبين لنا مدى ثقتنا فى ديننا ، وأن مشكلات البشرية فى بلاد الكفر والشرك لن يحلها إلا الإسلام ، فإن لم يأخذوه كدين فسيضطرون إلى أخذه كنظام .

ومن شرف الإسلام ألا يأخذوه كدين ؛ لأنهم لو آمنوا به لكانت أفعالهم وقوانينهم تطبيقا للإسلام من قوم مسلمين ، ولكن أن يظلوا كارهين للإسلام ثم يأخذوا من مبادىء الدين الذى يكرهونه ما يصلح مجتمعاتهم الفاسدة فذلك الفخر الأكبر للإسلام . إن هذا هو مفهوم قول الحق : « ولو كره الكافرون » و« ولو كره المشركون » وإذا ما جاء لك أحد فى هذه المسألة فقل له : من شرف الإسلام أن يظل فى الدنيا مشرك ، وأن يظل فى الدنيا هؤلاء الكفار ثم يرغموا ليحلوا مسائل مجتمعاتهم بقضايا الإسلام ، والإسلام يفخر بأنه سبقهم منذ أربعة عشر قرناً إلى ما يلهثون وراءه الآن بعد مضى كل هذا الزمن . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ ﴾

وسبق أن قال الحق : « الطلاق مرتان » وبعدها قال : « فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » . وهنا يتحدث الحق عن التسريح بقوله : « فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره » . وذلك حتى يبين لنا أنه إن وصلت الأمور بين

الزوجين إلى مرحلة اللا عودة فلابد من درس قاس ؛ فلا يمكن أن يرجع كل منهما للآخر بسهولة . لقد أمهلهما الله بتشريع البينونة الصغرى التى يعقبها مهر وعقد جديدان فلم يرتدعا ، فكان لابد من البينونة الكبرى ، وهى أن تتزوج المرأة بزوج آخر وتجرب حياة زوجية أخرى . وبذلك يكون الدرس قاسياً .

وقد يأخذ بعض الرجال المسألة بصورة شكلية ، فيتزوج المرأة المطلقة ثلاثاً زواجاً كامل الشروط من عقد وشهود ومهر ، لكن لا يترتب على الزواج معاشرة جنسية بينهما ، وذلك هو « المحلل » الذى نسمع عنه وهو ما لم يقره الإسلام .

فمن تزوج على أنه محلل ومن وافقت على ذلك المحلل فليعلما أن ذلك حرام على الاثنين ، فليس فى الإسلام محلل ، ومن يدخل بنية المحلل لا تجوز له الزوجة ، وليس له حقوق عليها ، وفى الوقت نفسه لو طلقها ذلك الرجل لا يجوز لها الرجوع لزوجها السابق ، لأن المحلل لم يكن زوجاً وإنما هو تمثيل زوج ، والتمثيل لا يُثبت فى الواقع شيئاً . ولذلك قال الحق : « فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره » .

والمقصود هنا النكاح الطبيعى الذى ساقت إليه الظروف دون افتعال ولا قصد للتحليل . وعندما يطلقها ذلك الرجل لظروف خارجة عن الإرادة وهى استحالة العشرة ، وليس لأسباب متفق عليها ، عندئذ يمكن للزوج السابق أن يتزوج المرأة التى كانت فى عصمته وطلقها من قبل ثلاث مرات .

« فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون » أى أن يغلب على الظن أن المسائل التى كانت مثار خلاف فيما مضى قد انتهت ووصل الاثنان إلى درجة من التعقل والاحترام المتبادل ، وأخذا درساً من التجربة تجعل كلا منهما يرضى بصاحبه . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ

سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ
ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ
نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ
يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾

ولنلاحظ قوله : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن » ونسأل : هل إذا بلغت الأجل وانتهت العدة ، هل يوجد بعدها إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ؟ ، هل يوجد إلا التسريح ؟. إن هناك آية بعد ذلك تقول :

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾

(من الآية ٢٣٢ من سورة البقرة)

إذن نحن أمام آيتين كل منهما تبدأ بقوله : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن » . لكن تكملة الآية الأولى هو : « فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف » وتكملة الآية الثانية هو : « فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن » . ما سر هذا الاختلاف إذن ؟

نقول : إن البلوغ يأتي بمعنيين ، المعنى الأول : أن يأتي البلوغ بمعنى المقاربة مثل قوله تعالى : « إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم » . أي عندما تقارب القيام إلى الصلاة فافعل ذلك . والمعنى الثاني : يطلق البلوغ على الوصول الحقيقي والفعلي . إن الإنسان عندما يكون مسافرا بالطائرة ويهبط في بلد الوصول فهو يلاحظ أن الطيار يعلن أنه قد وصل إلى البلد الفلاني . إذن مرة يطلق البلوغ على القرب ومرة أخرى يطلق على البلوغ الحقيقي .

وفى الآية الأولى « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف » هنا طلق الرجل زوجته لكن عدتها لم تنته بل قاربت على الانتهاء قربا يمكنه أن يسرحها أو يمسكها بإحسان ، وأصبح للزوج قدر من زمن العدة يبيح له أن يمسك أو يسرح ، لكنه زمن قليل . إن الحق يريد أن يتمسك الزوج بالإبقاء إلى آخر لحظة ويستبقى أسباب الالتقاء وعدم الانفصال حتى آخر لحظة ، وهذه علة التعبير بقوله : « فبلغن أجلهن » أى قاربن بلوغ الأجل . إن الحق يريدنا أن نتمسك باستبقاء الحياة الزوجية إلى آخر فرصة تتسع للإمساك ، فهى لحظة قد ينطق فيها الرجل بكلمة يترتب عليها إما طلاق ، وإما عودة الحياة الزوجية .

أما الآية الثانية وهى قوله تعالى : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن » فالله سبحانه وتعالى يريد أن يحصر مناقشة الأسباب فى الانفصال أو الاستمرار بين الزوج والزوجة فقط فلا تتعدى إلى غير الزوج والزوجة ؛ لأن بين الاثنين من الأسباب ما قد تجعل الواحد منهما يُلين جانبه للآخر .

لكن إذا ما دخل طرف ثالث ليست عنده هذه فسوف تكبر فى نفسه الخصومة ولا توجد عنده الحاجة فلا يبقى على عشرة الزوجين . فإذا ما دخل الأب أو الأخ أو الأم فى النزاع فسوف تشتعل الخصومة ، وكل منهم لا يشعر بإحساس كل من الزوجين للآخر ، ولا بليونة الزوج لزوجته ، ولا بمهادنة الزوجة لزوجها ، فهذه مسائل عاطفية ونفسية لا توجد إلا بين الزوج والزوجة ، أما الأطراف الخارجية فلا يربطها بالزوج ولا بالزوجة إلا صلة القرابة . ومن هنا فإن حرص تلك الأطراف الخارجية على بقاء عشرة الزوجين لا يكون مثل حرص كل من الزوجين على التمسك بالآخر .

ولذلك يجب أن نفهم أن كل مشكلة تحدث بين زوج وزوجته ولا يتدخل فيها أحد تنتهى بسرعة بدون أم أو أب أو أخ ، ذلك لأنه تدخل طرف خارجى لا يكون مالكا للدوافع العاطفية والنفسية التى بين الزوجين ، أما الزوجان فقد تكفى نظرة واحدة من أحدهما للآخر لأن تعيد الأمور إلى مجاريها . فقد يُعجب الرجل بجمال

المرأة ويشتاق إليها ، فينسى كل شيء . وقد ترى المرأة فى الرجل أمراً لا تحب أن تفقده منه فتنسى ما حدث بينهما ، وهكذا .

لكن أين ذلك من أمها وأمه ، أو أبيها وأبيه ؟ ليس بين هؤلاء وبين الزوجين أسرار وعواطف ومعاشرة وغير ذلك .

ولهذا فأنا أنصح دائما بأن يظل الخلاف محصوراً بين الزوج والزوجة ؛ لأن الله قد جعل بينهما سيالاً عاطفيا . والسيال العاطفى قد يسيل إلى نزوع ورغبة فى شىء ما ، وربما تكون هذه الرغبة هى التى تصلح وتجعل كلا من الطرفين يتنازل عن الخصومة والطلاق . ولذلك شاءت إرادة الله عز وجل ألا يطلق الرجل زوجته وهى حائض ، لماذا ؟

لأن المرأة فى فترة الحيض لا يكون لزوجها رغبة فيها ، وربما ينفر منها ، لكن يريد الحق عز وجل ألا يطلق الرجل زوجته إلا فى طهر لم يسبق له أن عاشرها فيه معاشرة الزوج زوجته وبعد أن تغتسل من الحيض ، وذلك حتى لا يطلقها إلا وهو فى أشد الأوقات رغبة لها .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن تكون الخلافات بين الزوج والزوجة فى إطار الحياة الزوجية ، حتى يحفظها سياج المحبة والمودة والرحمة . لكن تدخل الأطراف الأخرى يحطم هذا السياج ، أيا كان الطرف أما أو أبا أو أخا .

ويقول الحق : « ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا » أى لا تبق أيها الرجل على الحياة الزوجية من أجل الإضرار بالمرأة وإذلالها ، ومعنى الضرار أنك تصنع شيئا فى ظاهره أنك تريد الخير وفى الباطن تريد الشر . ولذلك أطلق اللفظ على « مسجد الضرار » فظاهر بنائه أنه مسجد بنى للصلاة فيه ، وفى الباطن كان الهدف منه هو الكفر والتفريق بين المؤمنين . وكذلك الضرار فى الزواج ؛ يقول الرجل أنا لا أريد طلاقها وسأعيدها لبيتها ، يقول ذلك ويُبيت فى نفسه أن يعيدها ليذلها وينتقم منها ، وذلك لا يقره الإسلام ؛ بل وينهى عنه .

إن الحق عز وجل يحذر من مثل هذا السلوك فيقول : « ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه » فإياك أن تظن أنك حين تعتدى على زوجتك بعد أن تراجعها أنك ظلمتها هى ، لا ، إنما أنت تظلم نفسك ؛ لأنك حين تعتدى على إنسان فقد جعلت ربه فى جانبه ، فإن دعا عليك قبل الله دعوته ، وبذلك تحرم نفسك من رضا الله عنك ، فهل هناك ظلم أكثر من الظلم الذى يأتيك بسخط الله عليك .

ويتابع الحق سبحانه وتعالى : « ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزوا » أى خذوا نظام الله على أنه نظام جاء ليحكم حركة الحياة حكما بلا مراوغة وبلا تحليق فى خيال كاذب ، إنما هو أمر واقعى ، فلا يصح أن يهزأ أحد بما أنزله الله من أنظمة تصون حياة وكرامة الإنسان رجلا كان أو امرأة .

« واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به » ونعمة الله عليهم التى يذكرهم الله بها فى معرض الحديث عن الطلاق هى أنه - سبحانه - يلفتهم إلى ما كانوا عليه قبل أن يشرع لهم أين كان حظ المرأة فى الجاهلية فى أمور الزواج والطلاق ، وما أصبحت عليه بعد نزول القرآن ؟ لقد صارت حقوقها مصونة بالقرآن .

إن الحق عز وجل يمتن على المؤمنين ليلفت نظرهم إلى حالتهم قبل الإسلام ؛ فقد كان الرّجل يطلق امرأته ويعيدها ، ثم يطلقها ويعيدها ولو ألف مرة دون ضابط أو رابط . وكان يحرم عليها المعاشرة الزوجية شهوراً ويتركها تتعذب بلوعة البعد عنه ، ولا تستطيع أن تتكلم .

وكانت المرأة إذا مات زوجها تنفى من المجتمع فلا تظهر أبدا ولا تخرج من بيتها وكأنها جرثومة ، وقبل ذلك كله كانت مصدر عار لأبيها ، فكان يقتلها قبل أن تصل إلى سن البلوغ بدعوى الحرص على عرضه وشرفه .

باختصار كان الزواج أقرب إلى المهازل منه إلى الجد ، فجاء الإسلام ، فحسم

الأمور حتى لا تكون فوضى بلا ضوابط وبلا قوانين . فاذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم بالإسلام ، وانظروا إلى ما أنعم به عليكم من نظام أسرى يلهث العالم شرقه وغربه ليصل إلى مثله .

كنتم أمة بلا حضارة وبلا ثقافة ، تعبدون الأصنام وتقيمون الحرب وتشعلونها بينكم على أتفه الأسباب وأدونها ، وتجهلون القراءة والكتابة ، ثم ينزل الله عليكم هذا التشريع الراقى الناضج الذى لم تصل إليه أية حضارة حتى الآن . ألا تذكرون هذه النعمة التى أنتم فيها بفضل من الله ؟ لذلك قال سبحانه : « واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به » والكتاب هو القرآن ، والحكمة هى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويختتم الحق تلك الآية الكريمة بقوله : « واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم » .

فإياكم أن تتهموا دينكم بأنه قد فاته شيء من التشريع لكم ، فكل تشريع جاهز فى الإسلام ، لأن الله عليم بما تكون عليه أحوال الناس ، فلا يستدرك كون الله فى الواقع على ما شرع الله فى كتابه ، لأنه سبحانه خالق الكون ومنزل التشريع . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾

« فبلغن أجلهن » هنا أى فانتهت العدة ، ولم يستنفد الزوج مرات الطلاق ، ولم يعد للزوج حق فى أن يراجعها إلا بعد عقد ومهر جديدين . هب أن الزوج أراد أن

يعيد زوجته إلى عصمته مرة أخرى ، وهنا قد يتدخل أهل اللدد والخصومة من الأقارب ، ويقفون فى وجه إتمام الزواج ، والزوجان ربما كان كل منهما يميل إلى الآخر ، وبينهما سيال عاطفى ونفسى لا يعلمه أحد ، لكن الذين دخلوا فى الخصومة من الأهل يقفون فى وجه عودة الأمور إلى مجاريها ، خوفا من تكرار ما حدث أو لأسباب أخرى ، وتقول هؤلاء : مادام الزوجان قد تراضيا على العودة فلا يصح أن يقف أحد فى طريق عودة الأمور إلى ما كانت عليه .

وقوله الحق : « فلا تعضلوهن » نعرف منه أن العضل هو المنع ، والكلام للأهل والأقارب وكل من يهمه مصلحة الطرفين من أهل المشورة الحسنة . « أن ينكحن أزواجهن » أى الذين طلقوهن أولا .

والمعنى : لا تمنعوا الأزواج أن يعيدوا إلى عصمتهم زوجاتهم اللائى طلقوهن من قبل . وليعلم الأهل الذين يصرون على منع بناتهم من العودة لأزواجهن أنهم بالتمادى فى الخصومة يمنعون فائدة التدرج فى الطلاق التى أراد ؛ حكمة الله .

إن حكمة التشريع فى جعل الطلاق مرة ، ومرتين هى أن من لم يصلح فى المرة الأولى قد يصلح فى المرة الثانية ، وإذا كان الله العليم بنفوس البشر قد شرع لهم أن يطلقوا مرة ومرتين ، وأعطى فسحة من الوقت لمن أخطأ فى المرة الأولى ألا يخطىء فى الثانية ، لذلك فلا يصح أن يقف أحد حجر عثرة أمام إعادة الحياة الزوجية من جديد .

وقوله الحق : « أن ينكحن أزواجهن » ونلحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى ينسب النكاح للنسوة ، فقال : « ينكحن » وهذا يقتضى رضاء المرأة عن العودة للزوج فلا يمكن أن يطلقها أولا ثم لا يكون لها رأى فى العودة إليه .

« إذا تراضوا بينهم بالمعروف » ومادامو تراضوا ورأوا أن عودة كل منهما للآخر أفضل ، فليبتعد أهل السوء الذين يقفون فى وجه رضا الطرفين ، وليتركوا الحلال يعود إلى مجاريه . « ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى

لكم وأطهر » إن هذا تشريع ربكم وهو موعظة لكم يا من تؤمنون بالله ربا حكيما مشرعا وعالما بنوازع الخير فى نفوس البشر .

وكلمة « وأطهر » تلفتنا إلى حرمة الوقوف فى وجه المرأة التى تريد أن ترجع لزوجها الذى طلقها ثم انتهت العدة ، وأراد هو أن يتزوجها من جديد ، إن الحق يبلغنا : لا تقفوا فى وجه رغبتها فى العودة لأى سبب كان ، لماذا يارب ؟

وتأتى الإجابة فى قوله الحق : « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » تأمل جمال السياق القرآنى وكيف خدم قوله تعالى : « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » المعنى الذى تريده الآيات . إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون أن فى عودة الأمور لمجاريها بين الزوجين أزكى وأطهر . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) ﴾

انظر إلى عظمة الإسلام ها هوذا الحق سبحانه يتكلم عن إرضاع الوالدات لأولادهن بعد عملية الطلاق ، فالطلاق يورث الشقاق بين الرجل والمرأة ، والحق

سبحانه وتعالى ينظر للمسألة نظرة الرحيم العليم بعباده، فيريد أن يحمى الثمرة التى تنتج من الزواج قبل أن يحدث الشقاق بين الأبوين، فيبلغنا : لاتجعلوا شقاقكم وخلافكم وطلاقكم مصدر تعاسة للطفل البرىء الرضيع .

وهذا كلام عن المطلقات اللاتى تركن بيوت أزواجهن، لأن الله يقول بعد ذلك : «وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف» ومادامت الآية تحدثت عن «رزقهن وكسوتهن» فذلك يعنى أن المرأة ووليدها بعيدة عن الرجل، لأنها لو كانت معه لكان رزق الوليد وكسوته أمرا مفروغا منه . والحق سبحانه يفرض هناحقا للرضيع ، وأمه لم تكن تستحقه لولا الرضاع . وبعض الناس فهموا خطأ أن الرزق والكسوة للزوجات عموما ونقول لهم : لا . إن الرزق والكسوة هنا للمطلقات اللاتى يرضعن فقط .

ويريد الحق سبحانه أن يجعل هذا الحق أمرا مفروغا منه ، فشرع حق الطفل فى أن يتكلفة والده بالرزق والكسوه حتى يكون الأمر معلوما لديه حال الطلاق .

وقوله تعالى : «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين» نلحظ فيه أنه لم يأت بصيغة الأمر فلم يقل : ياوالدات أرضعن ، لأن الأمر عرضة لأن يطاع وأن يعصى، لكن الله أظهر المسألة فى أسلوب خبرى على أنها أمر واقع طبيعى ولا يخالف .

ويقول الحق : «وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن» ولنتأمل عظمة الأداء القرآني فى قوله : «وعلى المولود له» إنه لم يقل : «وعلى الوالد» وجاء بـ«المولود له» ليكلفه بالتبعات فى الرزق والكسوة ، لأن مسئولية الإنفاق على المولود هى مسئولية الوالد وليست مسئولية الأم ، وهى قد حملت وولدت وأرضعت والولد يُنسب للأب فى النهاية يقول الشاعر :

فإنّما أمهات الناس أوعية
مستودعات وللأباء أبناء

ومادام المولود منسوباً للرجل الأب، فعلى الأب رزقه وكسوته هو وعليه أيضا رزق

وكسوة أمه التى ترضعه بالمعروف المتعارف عليه بما لا يسبب إجحافاً وظلماً للأب فى كثرة الإنفاق ، ويقول الحق : « لا تكلف نفس إلا وسعها » هنا الحديث عن الأم والأب . فلا يصح أن ترهق المطلقة والد الرضيع بما هو فوق طاقته ، وعليها أن تكتفى بالمعقول من النفقة .

ويتابع الحق : « لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده » ولازال الحق يُذكرُ الأب بأن المولود له هو ، وعليه ألا يضر والدة الطفل بمنع الإنفاق على ابنه ، وألا يتركها تتكفف الناس من أجل رزقه وكسوته ، وفى الوقت نفسه يُذكرُ الأم : لا تجعلى رضيعك مصدر إضرار لأبيه بكثرة الإلحاح فى طلب الرزق والكسوة .

إنه عز وجل يضع لنا الإطار الدقيق الذى يكفل للطفل حقوقه ، فهناك فرق بين رضيع ينعم بدفء الحياة بين أبوين متعاشرين ، ووجوده بين أبوين غير متعاشرين .

والحق سبحانه وتعالى يعطينا لفتة أخرى هى أن والد المولود قد يموت فإذا ما مات الوالد فمن الذى ينفق على الوليد الذى فى رعاية أمه المطلقة ؟ هنا يأتينا قول الحق بالجواب السريع : « وعلى الوارث مثل ذلك » .

إن الحق يقرر مسئولية الإنفاق على من يرث والد الرضيع ، صحيح أن الرضيع سيرث فى والده ، لكن رعاية الوليد اليتيم هى مسئولية من يرث الوصاية وتكون له الولاية على أموال الأب إن مات . وهكذا يضمن الله عز وجل حق الرضيع عند المولود له وهو أبوه إذا كان حيا ، وعند من يرث الأب إذا تُوفى .

وبذلك يكون الله عز وجل قد شرَّع لصيانة أسلوب حياة الطفل فى حال وجود أبويه ، وشرع له فى حال طلاق أبويه وأبوه حىٌ ، وشرع له فى حال طلاق أبويه ووفاة أبيه . ويتابع الحق : « فإن أرادا فصالا عن تراضٍ منهما وتشاور فلا جناح عليهما » .

انظر إلى الرحمة فى الإسلام ؛ فطلاق الرجل لزوجته لا يعنى أن ما كان بينهما قد

انتهى ، ويضيع الأولاد ويشقون بسبب الطلاق ، فقوله تعالى : « عن تراضٍ منهما وتشاور » دليل على أن هناك قضية مشتركة مازالت بين الطرفين وهى ما يتصل برعاية الأولاد ، وهذه القضية المشتركة لابد أن يُلاحظ فيها حق الأولاد فى عاطفة الأمومة ، وحقهم فى عاطفة الأبوة ، حتى ينشأ الولد وهو غير محروم من حنان الأم أو الأب ، وإن اختلفا حتى الطلاق .

إن عليهما أن يلتقيا بالتشاور والتراضى فى مسألة تربية الأولاد حتى يشعروا بحنان الأبوين ، ويكبر الأولاد دون آلام نفسية ، ويفهمون أن أمهم تقدر ظروفهم ، وكذلك والدهم وبرغم وجود الشقاق والخلاف بينهما فقد اتفقا على مصلحة الأولاد بتراضٍ وتشاور .

إن ما يحدث فى كثير من حالات الطلاق من تجاهل للأولاد بعد الطلاق هى مسألة خطيرة ؛ لأنها تترك رواسب وآثارا سلبية عميقة فى نفوس الأولاد ، ويترتب عليها شقاؤهم وربما تشريدهم فى الحياة . وما ذنب أولاد كان الكبار هم السبب المباشر فى مجيئهم للحياة ؟ أليس من الأفضل أن يوفر الآباء لهم الظروف النفسية والحياتية التى تكفل لهم النشأة الكريمة ؟ إن منهج الله أمامنا فلماذا لا نطبقه لنسعد به وتسعد به الأجيال القادمة ؟

والحق سبحانه وتعالى قال فى أول الآية : « والوالدت يرضعن أولادهن حولين كاملين » لكن ماذا يكون الحال إن نشأت ظروف تقلل من فترة الرضاعة عن العامين ؟ أو نشأت ظروف خاصة جعلت فترة الرضاعة أطول من العامين ؟ هنا يقول الحق : « فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما » .

إنه جل وعلا يبين لنا أن الفصال أى الفطام يجب أن يكون عن تراض وتشاور بين الوالدين ولا جناح عليهما فى ذلك . ويقول الحق : « وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف » ، و« أن تسترضعوا أولادكم » أى أن تأتوا للطفل بمرضعة ، فإن أردتم ذلك فلا لوم عليكم فى ذلك .

إن المطلق حين يوكل إلى الأم أن ترضع وليدها فالطفل يأخذ من حنان الأم

الموجود لديها بالفطرة ، لكن هب أن الأم ليست لديها القدرة على الإرضاع أو أن ظروفها لا تسعفها على أن ترضعه لضعف فى صحتها أو قوتها، عند ذلك فالوالد مُطالب أن يأتى لابنه بمرضعة ، وهذه المرضعة التى ترضع الوليد تحتاج إلى أن يعطيها الأب ما يُسخيها ويجعلها تقبل على إرضاع الولد بأمانة ، والإشراف عليه بصدق .

ويختم الحق هذه الآية الكريمة بقوله : « واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير » ، إن الحق يحذر أن يأخذ أحد أحكامه ويدعى بظاهر الأمر تطبيقها ، لكنه غير حريص على روح هذه الأحكام ، مثال ذلك الأب الذى يريد أن يدلس على المجتمع ، فعندما يرى الأب مرضعة ابنه أمام الناس فهو يدعى أنه ينفق عليها ، ويعطيها أجرها كاملا ، ويقابلها بالجفاوة والتكريم بينما الواقع يخالف ذلك .

إن الله يحذر من يفعل ذلك : أنت لا تعامل المجتمع وإنما تعامل الله « والله بما تعملون بصير » . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ ﴾

والعدة ـ كما عرفنا ـ هى الفترة الزمنية التى شرعها الله بعد زواج انتهى بطلاق أو بوفاة الزوج . والعدة إما أن تكون بعد طلاق ، وإما بعد وفاة زوج ، فإن كانت العدة بعد طلاق فمدتها ثلاثة قروء ، والقرء ـ كما عرفنا ـ هو الحيضة أو الطهر ، فإن كانت المطلقة صغيرة لم تحض بعد أو كانت كبيرة تعدت سن الحيض فالعدة تنقلب من القروء إلى الأشهر وتصبح « ثلاثة أشهر » .

وعرفنا أن من حق الزوج أن يراجع زوجته بينه وبين نفسه دون تدخل الزوجة أو ولى أمرهاله ذلك فى أثناء فترة العدة فى الطلاق الرجعى ، فإن انتهت عدتها فقد سقط حقه فى مراجعة الزوجة بنفسه ، وله أن يراجعها ، ولكن بمهر وعقد جديدين مادام قد بقى له حق أى لم يستنفد مرات الطلاق .

وقد قلنا : إن تعدت الطلقات اثنتين وأصبحت هناك طلقة ثالثة فلا بد من زوج آخر يتزوجها بالطريقة الطبيعية لا بقصد أن يحللها للزوج الأول . وأما عدة المتوفى عنها زوجها فقد عرفنا أن القرآن ينص على أنها تتربص بنفسها أربعة أشهر وعشرا ، هذا إن لم تكن حاملا ، فإن كانت حاملا فعدتها أبعد الأجلين ، فإن كان الأجل الأبعد هو أربعة أشهر وعشرا فتلك عدتها ، وإن كان الأجل الأبعد هو الحمل فعدتها أن ينتهى الحمل . لكن أليس من الجائز أن يموت زوجها وهى فى الشهر التاسع من الحمل فتلد قبل أن يدفن ؟ وهل يعنى ذلك أن عدتها انتهت ؟ لا ، إنها تنتهى بأبعد الأجلين وهو فى هذه الحالة مرور أربعة أشهر وعشرا ، وإن قال بعض الفقهاء:إن عدة الحامل بوضع الحمل .

لكن إذا لم يكن زوجها متوفًى عنها فعدتها أن تضع حملها ، وإن شاءت أن تتزوج بعد ذلك فلها ذلك ولو بعد لحظة . وبعض الناس يفسرون الحكمة من جعل عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرا ، فيقولون : لأنها إن كانت حاملا بذكر فسيظهر حملها عندما يتحرك بعد ثلاثة أشهر ، وإن كانت حاملا بأنثى فستتحرك بعد أربعة أشهر ونعطيها مهلة عشر ليال .

ونقول لهم : جزاكم الله خيرا على تفسيركم ، لكن العدة هنا ليست لاستبراء الرحم ؛ لأنها لو كانت لاستبراء الرحم لانتهت عدة المرأة بمجرد ولادتها . ولو كان الأمر للتأكد من وجود حمل أو عدمه ، لكانت عدتها ثلاث حيضات إن كانت من ذوات الحيض ، وإن كانت من غير ذوات الحيض لصغر أو لكبر سن لكانت عدتها ثلاثة أشهر . لكن الله اختصها بأربعة أشهر وعشر وفاءً لحق زوجها عليها وإكراما لحياتها الزوجية .

إذن فالله عز وجل جعل المتوفى عنها زوجها تتربص أقصى مدة يمكن أن تصبر عليها

المرأة . فالمرأة ساعة تكون متوفى عنها زوجها لا تخرج من بيتها ولا تتزين ولا تلقى أحداً وفاءً للزوج ، فإذا انتهت عدتها أى مضت عليها الأربعة الأشهر والعشرة ، « فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن » وهو يعنى أن تتزين فى بيتها وتخرج دون إبداء زينة وأن يتقدم لها من يريد خطبتها . وقوله تعالى : « أربعة أشهر وعشرا » والمقصود بهذه المدة أربعة أشهر وعشر ليال .

وهنا لفتة تشريعية إيمانية تدل على استطراق كل حكم شرعى فى جميع المكلفين وإن لم يكن الحكم ماسا لهم ؛ فالمتوفى عنها زوجها تربصت أربعة أشهر وعشرا وبلغتها فى مدة العدة ، وكان من حكم الله عليها ألا تتزين وألا تكتحل وألا تخرج من بيتها وفاءً لحق زوجها فإذا بلغت الأجل وانتهى قال : « فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن » ، ولم يقل : فلا جناح عليهن .

لقد وجه الخطاب هنا للرجال ؛ لأن كل مؤمن له ولاية على كل مؤمنة ، فإذا رأى فى سلوكها أو أسلوب عنايتها بنفسها ما ينافى العدة فله أن يتدخل . مثلا إذا رآها تتزين قال لها أو أرسل إليها من يقول لها : لماذا تتزينين ؟ إن قول الله : « فلا جناح عليكم » يجعل للرجال قوامة على المتوفى عنها زوجها ، فلا يقولون : لا دخل لنا ؛ لأن الحكم الإيمانى حكم مستطرق فى كل مؤمن وعلى كل مؤمن . فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴾

(من الآية ٣ سورة العصر)

إن قوله الحق : « تواصوا » لا يعنى أن قوما خُصوا بأنهم يُوصون غيرهم وقوما آخرين يُوصيهم غيرهُم ، بل كلٍ واحد منا موصٍ فى وقت ؛ وموصًى من غيره فى وقت آخر ، هذا هو معنى « وتواصوا » .

فإذا رأيت فى غيرك ضعفا فى أى ناحية من نواحى أحكام الله ، فلك أن توصيه . وكذلك إن رأى غيرُك فيك ضعفا فى أى ناحية من النواحى فله أن يوصيك ، وعندما نتواصى جميعا لا يبقى لمؤمن بيننا خطأ ظاهر .

إذن فالآية لا تُخصُّ بالوصاية جماعة دون أخرى إنما الكل يتواصون ، لأن الأغيار البشرية تتناوب الناس أجمعين . فأنت فى فترة ضعفى رقيب على ، فتوصينى . وأنا فى فترة ضعفك رقيب عليك ، فأوصيك . ولذلك جاء قول الحق : « فلا جناح عليكم » إنه سبحانه لم يوجه الخطاب للنساء ، ولكن خاطب به المؤمنين ولم يخص بالخطاب أولياء أمور النساء فحسب وإنما ترك الحكم للجميع حتى لا يقول أحد : لا علاقة لى بالمرأة التى توفى عنها زوجها ولتفعل ما تشاء . إن لها أن تتزين بالمتعارف عليه إسلاميا فى الزينة ، ولها أن تتجمل فى حدود ما أذن الله لها فيه .

ويختتم الحق هذه الآية بقوله : « والله بما تعملون خبير » أى والله أعلم بما فى نفسها وبما فى نيتها . وهب أنها فعلت أى فعل على غير مرأى من أحد فلا تعتقد أن المجتمع وإن لم يشهد منها ذلك أن المسألة انتهت ، لا ، إنّ الله عليم بما تفعل وإن لم يطلع عليها أحد من الناس .

إن الحق سبحانه وتعالى قد حمى بكل التشريعات السابقة حق الزوج حتى تنتهى العدة ، وحق المتوفى عنها زوجها فى أثناء العدة ، وحمى أيضا بكلِّ التشريعات كرامة المرأة . وجعل المرأة حرما لا يقترب منه أحد يخدش حجابها ، إنّ عليها عدة محسوبة فى هذا الوقت لرجل آخر ، فلا يحق لأحد أن يقترب منها .

لماذا ؟ لأن المرأة خاصة إذا كانت مطلقة قد تتملكها رغبة فى أن تثأر لنفسها ولكرامتها ، وربما تعجلت التزوج ، وربما كانت مسائل الافتراق أو الخلاف ناشئة عن اندساس رغبة راغب فيها ، وبمجرد أن يتم طلاقها وتعيش فترة العدة فقد يحوم حولها الراغبون فيها ، أو تستشرف هى من ناحيتها من تراه صالحا كزوج لها . ولذلك يفرض الحق سياجا من الزمن ويجعل العدة كمنطقة حرام ليحمى المرأة حماية موضوعية لا شكلية .

التشريع ـ لإنه من إله رحيم ـ لا يهدر عواطف النفس البشرية : لا من ناحية الذى يرغب فى أن يتزوج ، ولا من ناحية المرأة التى تستشرف أن تتزوج ، فيعالج هذه المسألة بدقة وبحزم وبحسم معا فيقول ـ جل شأنه ـ :

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ
أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ
وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ
وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ ﴾

و« عرضتم » مأخوذة من التعريض . والتعريض : هو أن تدل على شيء لا بما يؤديه نصا ، ولكن تعرض به تلميحا .

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يجعل للعواطف تنفيسا من هذه الناحية ، والتنفيس ليس مجرد تعبير عن العاطفة ، ولكنه رعاية للمصلحة ، فمن الجائز أنه لو حزم التعريض لكان فى ذلك ضياع فرصة الزواج للمرأة ، أو قد يفوت - هذا المنع - الفرصة على من يطلبها من الرجال ؛ لذلك يضع الحق القواعد التى تفرض على الرجل والمرأة معا أدب الاحتياط ، وكأنه يقول لنا : أنا أمنعكم أن تخطبوا فى العدة أو تقولوا كلاما صريحا وواضحا فيها ، لكن لا مانع من التلميح من بعيد .

مثلا يثنى الرجل على المرأة ؛ ويعدد محاسنها بكلام لا يعد خروجا على آداب الإسلام مثل هذا الكلام هو تلميح وتعريض ، وفائدته أنه يعبر عما فى نفس قائله تجاه المطلقة فتعرف رأيه فيها ، ولو لم يقل ذلك فربما سبقه أحد إليها وقطع عليه السبيل لإنفاذ ما فى نفسه ، ومنعه من أن يتقدم لخطبتها بعد انتهاء العدة ، وقد يدفعه ذلك لأن يفكر تفكيرا آخر للتعبير بأسلوب وشكل خاطىء .

إذن فالتعريض له فائدة فى أنه يُعرف المطلقة رأى فلان فيها حتى إن جاءها غيره لا توافق عليه مباشرة . وهكذا نرى قبساً من رحمة الحق سبحانه وتعالى بنا ، بأن جعل العدة كمنطقة حرام تحمى المرأة ، وجعل التعريض فرصة للتعبير عن العاطفة التى تؤسس مصلحة من بعد ذلك .

إن الحق يقول : « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء » والخطبة مأخوذة من مادة « الخاء » و« الطاء » و« الباء » وتدل على أمور تشترك فى عدة معالم : منها خُطبة بضم الخاء ، ومنها خَطْب وهو الأمر العظيم ، ومنها المعنى الذى نحن بصدده وهو الخطبة بكسر الخاء . وكل هذه المعالم تدل على أن هناك الأمر العظيم الذى يُعالج ، فالخطب أمر عظيم يهز الكيان ، وكذلك الخُطبة لا يلقيها الخطيب إلا فى أمر ذى بال ، فيعظ المجتمع بأمر ضرورى .

والخطبة كذلك أمر عظيم ؛ لأنه أمر فاصل بين حياتين : حياة الانطلاق ، وحياة التقيد بأسرة وبنظام . وكلها معان مشتركة فى أمر ذى بال ، وأمر خطير . وهو سبحانه وتعالى يقول : « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم » أى لا جناح عليكم أن وضعتم فى أنفسكم أمرا يخفى على المرأة ، وللمسلم أن يكتن ويخفى فى نفسه ما يشاء ، ولكن ما الذى يُدرى ويعلم المطلقة أنها فى بالك يا من أسررت أمرها فى نفسك ؟ إنك لابد أن تلمح وأن تعرض بأسلوب يليق باحترام المرأة .

ويقول الحق : « علم الله أنكم ستذكرونهن » ، إن الذى خلقك يعلم أنها مادامت فى بالك ، ومات زوجها عنها أو طلقها فقد أصبحت أملا بالنسبة لك ، فلو أنه ضيق عليك لعوق عواطفك ، ولضاعت منك الفرصة لأن تتخذها زوجة من بعد ذلك ، ولهذا أباح الحقُّ التعريضَ حتى لا يقع أحدكم فى المحظور وهو « لا تواعدوهن سرا » بأن تأخذوا عليهن العهد ألا يتزوجن غيركم ، أو يقول لها : تزوجينى. بل عليه أن يعرض ولا يفصح ولا يصرح. إن المواعدة فى السر أمر منهى عنه، لكن المسموح به هو التعريض بأدب ، « إلا أن تقولوا قولا معروفا » كأن يقول : « يا سعادة من ستكون له زوجة مثلك » . ومثل ذلك من الثناء الذى يُطرب المرأة .

ونعلم جميعا أن المرأة فى مثل حال المطلقة أو المتوفى عنها زوجها تملك شفافية وألمعية تلتقط بها معنى الكلام ومراده .

ويتابع الحق : « ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله » وهكذا نرى أن مجرد العزم الأكيد أمر نهى عنه . والعزم مقدم على الفعل فإذا نهى عنه كان النهى عن الفعل أقوى وأشد وأنهى ، فلك أن تنوى الزواج منها وتتوكل على الله ، لكن لا تجعله أمرا مفروغا منه ، إلا بعد أن تتم عدتها ، فإن بلغ الكتاب أجله وانتهت عدتها فاعزموا عقدة النكاح . فكأن عقدة النكاح تمر بثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : وهى التعريض أى التلميح .

والمرحلة الثانية : هى العزم الذى لا يصح ولا يستقيم أن يتم إلا بعد انتهاء فترة العدة .

والمرحلة الثالثة : هى العقد .

والمقصود بهذه المراحل أن يأخذ كل طرف فرصته للتفكير العميق فى هذا الأمر الجاد ، فإن كان التفكير قد هدى إلى العزم فإن للإنسان أن يعقد بعد انتهاء العدة ، وإن كان التفكير قد اهتدى إلى الابتعاد وصرف النظر عن مثل هذا الأمر فللإنسان ما يريد .

ويريد الحق من هذه المراحل أن يعطى الفرصة فى التراجع إن اكتشف أحد الطرفين فى الآخر أمرًا لا يعجبه . وكل هذه الخطوات تدل على أن العقد لا يكون إلا بعزم ، فلا يوجد عقد دون عزم ، إن الحق يريد من المسلم ألا يقدم على عقدة النكاح إلا بعد عزم . والعزم معناه التصميم على أنك تريد الزواج بحق الزواج وبكل مسئولياته ، وبكل مهر الزواج ، ومشروعيته ، وإعفافه ؛ فالزواج بدون أرضية العزم مصيره الفشل .

ومعنى العزم : أن تفكر فى المسألة بعمق وروية فى نفسك حتى تستقر على رأى أكيد ، ثم لك أن تقبل على الزواج على أنه أمر له ديمومة وبقاء لا مجرد شهوة طارئة ليست لها أرضية من عزيمة النفس عليها .

ولذلك فإن الزواج القائم على غير رويّة ، والمعلق على أسباب مؤقتة كقضاء الشهوة لا يستمر ولا ينجح . ومثل ذلك زواج المتعة ؛ فالعلة فى تحريم زواج المتعة أن المقدم عليه لا يريد به الاستمرار فى الحياة الزوجية ، ومادام لا يقصد منه الديمومة فمعناه أنه هدف للمتعة الطارئة .

والذين يبيحون زواج المتعة مصابون فى تفكيرهم ؛ لأنهم يتناسون عنصر الإقبال بديمومة على الزواج ، فما الداعى لأن تقيد زواجك بمدة ؟ إن النكاح الأصيل لا يُقيد بمثل هذه المدة . وتأمل حمق هؤلاء لتعلم أن المسألة ليست مسألة زواج ، إنما المسألة هى تبرير زنى ، وإلا لماذا يشترط فى زواج المتعة أن يتزوجها لمدة شهر أو أكثر ؟

إن الإنسان حين يشترط تقييد الزواج بمدة فذلك دليل على غباء تفكيره وسوء نيته ؛ لأن الزواج الأصيل هو الذى يدخل فيه بديمومة ، وقد ينهيه بعد ساعة إن وجد أن الأمر يستحق ذلك ، ولن يعترض أحد على مثل هذا السلوك ، فلماذا تقيد نفسك بمدة ؟ إن المتزوج للمتعة يستخدم الذكاء فى غير محله ، قد يكون ذكيا فى ناحية ولكنه قليل الفطنة فى ناحية أخرى .

إن على الإنسان أن يدخل على الزواج بعزيمة بعد تفكير عميق وروية ثم ينفذ العزم إلى عقد . حذار أن تضع فى نفسك مثل هذا الزواج المربوط على مطامع وأهداف فى نفسك كعدم الديمومة أو لهدف المتعة فقط ، فكل ما يفكر فيه بعض الناس من أطماع شهوانية ودنيوية هى أطماع زائلة . اصرف كل هذه الأفكار عنك ؛ لأنك إن أردت شيئاً غير الديمومة فى الزواج ، وإرادة الإعفاف ؛ فالله سبحانه وتعالى يعلمه وسيرد تفكيرك نقمة عليك فاحذره .

إن الله سبحانه لا يحذر الإنسان من شىء إلا إذا كان مما يغضبه سبحانه . لذلك يذيل الحق هذه الآية الكريمة بقوله : « واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم » . وهو سبحانه يعلم ضعف النفس البشرية وأنها قد تضعف فى بعض الأحيان ، فإن كان قد حدث منها شىء فالله يعطيها الفرصة فى أن يتوب صاحبها لأنه سبحانه هو الغفور الحليم . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ ﴾

نحن نلاحظ أن الكلام فيما تقدم كان عن الطلاق للمدخول بها ، أو عن المرأة التى دخل بها زوجها ومات عنها . ولكن قد تحدث بعض من المسائل تستوجب الطلاق لامرأة غير مدخول بها . وتأتى هذه الآية لتتحدث عن المرأة غير المدخول بها ، وهى إما أن يكون الزوج لم يفرض لها صداقاً ، وإما أن يكون قد فرض لها صداقاً .

والطلاق قبل الدخول له حكمان : فُرضت فى العقد فريضة ، أو لم تفرض فيه فريضة ، فكأن عدم فرض المهر ليس شرطاً فى النكاح ، بل إذا تزوجته ولم يفرض فى هذا الزواج مهر فقد ثبت لها مهر المثل والعقد صحيح . ودليل ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول : « لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة » ومعنى ذلك أنها كانت زوجة ولم يحدث دخول للزوج بها .

ولنا أن نسأل ما هو المس ؟ ونقول : فيه مس ، وفيه لمس ، وفيه ملامسة . فالإنسان قد يمس شيئاً ، ولكن الماس لا يتأثر بالممسوس ، أى لم يدرك طبيعته أو حاله هل هو خشن أو ناعم ؟ دافىء أو بارد ، وإلى غير ذلك .

أما اللمس فلابد من الإحساس بالشىء الملموس ، أما الملامسة فهى حدوث التداخل بين الشيئين . إذن فعندنا ثلاث مراحل : الأولى هى : مس . والثانية : لمس . والثالثة : ملامسة . كلمة « المس » هنا دلت على الدخول والوطء ، وهى أخف من اللمس ، وأيسر من أن يقول : لامستم أو باشرتم ، ونحن نأخذ هذا

المعنى ؛ لأن هناك سياقا قرآنيا فى مكان آخر قد جاء ليكون نصا فى معنى ، ولذلك نستطيع من سياقه أن نفهم المعنى المقصود بكلمة « المس » هنا ، فقد قالت السيدة مريم :

﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾

(من الآية ٢٠ سورة مريم)

إن القرآن الكريم يوضح على لسان سيدتنا مريم أن أحداً من البشر لم يتصل بها ذلك الاتصال الذى ينشأ عنه غلام ، والتعبير فى منتهى الدقة ، ولأن الأمر فيه تعرض لعورة وأسرار ؛ لذلك جاء القرآن بأخف لفظ فى وصف تلك المسألة وهو المس ، وكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يثبت لها إعفافاً حتى فى اللفظ ، فنفى مجرد مس البشر لها ، وليس الملامسة أو المباشرة برغم أن المقصود باللفظ هو المباشرة ؛ لأن الآية بصدد إثبات عفة مريم .

ولنتأمل أدب القرآن فى تناول المسألة فى الآية التى نحن بصددها ؛ فكأن الحق سبحانه وتعالى يعبر عن اللفظ بنهاية مدلوله وبأخف التعبير .

والحق يقول : « أو تفرضوا لهن فريضة » وتعرف أن « أو » عندما ترد فى الكلام بين شيئين فهى تعنى « إما هذا وإما ذاك » ، فهل تفرض لهن فريضة مقابل المس ؟ . إن الأصل المقابل فى « ما لم تمسوهن » هو أن تمسوهن . ومقابل « تفرضوا لهن فريضة » هو : أن لا تفرضوا لهن فريضة . كأن الحق عز وجل يقول ؛ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن سواء فرضتم لهن فريضة أو لم تفرضوا لهن فريضة . وهكذا يحرص الأسلوب القرآنى على تنبيه الذهن فى ملاحظة المعانى .

ولنا أن نلاحظ أن الحق قد جاء بكلمة « إن » فى احتمال وقوع الطلاق ، و« إن » ـ كما نعرف ـ تُستخدم للشك ، فكأن الله عز وجل لا يريد أن يكون الطلاق مجترءاً عليه ومحققاً ، فلم يأت بـ« إذا » ، بل جعلها فى مقام الشك حتى تُعزز الآية قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق »(١) .

---

(١) رواه أبو داود والبيهقى والحاكم عن ابن عمر .

ثم يقول الحق عز وجل بعد ذلك : « ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره » أى إنك إذا طلقت المرأة قبل الدخول ، ولم تفرض لها فريضة فأعطها متعة . وقال العلماء فى قيمة المتعة : إنها ما يوازى نصف مهر مثيلاتها من النساء ؛ لأنه كان من المفروض أن تأخذ نصف المهر ، ومادام لم يُحَدَّد لها مهرٌ فلها مثل نصف مهر مثيلاتها من النساء . ويقول الحق : « على الموسع قدره وعلى المقتر قدره » أى ينبغى أن تكون المتعة فى حدود تناسب حالة الزوج ؛ فالموسع الغنى : عليه أن يعطى ما يليق بعطاء الله له ، والمقتر الفقير : عليه أن يعطى فى حدود طاقته .

وقول القرآن : « الموسع » مشتق من « أوسع » واسم الفاعل « موسع » واسم المفعول « مُوسع عليه » ، فأى اسم من هؤلاء يطلق على الزوج ؟ إن نظرت إلى أن الرزق من الحق فهو « موسع عليه » ، وإن نظرت إلى أن الحق يطلب منك أن توسع حركة حياتك ليأتيك رزقك ، وعلى قدر توسيعها يكون اتساع الله لك ، فهو « موسع » .

إذن فالموسع : هوالذى أوسع على نفسه بتوسيع حركة أسبابه فى الحياة . والإقتار هو الإقلال ، وعلى قدر السعة وعلى قدر الإقتار تكون المتعة . والحق سبحانه وتعالى حينما يطلب حكماً تكليفياً لا يقصد إنفاذ الحكم على المطلوب منه فحسب ، ولكنه يوزع المسئولية فى الحق الإيمانى العام ؛ فقوله : « ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره » يعنى إذا وُجد من لا يفعل حكم الله فلا بد أن تتكاتفوا على إنفاذ أمر الله فى أن يمتع كل واحد طلق زوجته قبل أن يدخل بها . والجمع فى الأمر وهو قوله : « ومتعوهن » دليل على تكاتف الأمة فى إنفاذ حكم الله . وبعد ذلك قال :

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ

وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

أى مادام لم يدخل بها ولم يتمتع بها فلا تأخذ المهر كله ، إنما يكون لها النصف من المهر . ولنعلم أن هناك فرقاً بين أن يوجد الحكم بقانون العدل ، وبين أن يُنظر فى الحكم ناحية الفضل ، وأحكى هذه الواقعة لنتعلم منها :

ذهب اثنان إلى رجل ليحكم بينهما فقالا : احكم بيننا بالعدل . قال : أتحبون أن أحكم بينكما بالعدل ؟ أم بما هو خير من العدل ؟ فقالا : وهل يُوجد خير من العدل ؟ قال : نعم . الفضل .

إن العدل يعطى كل ذى حق حقه ، ولكن الفضل يجعل صاحب الحق يتنازل عن حقه أو عن بعض حقه . إذن فالتشريع حين يضع موازين العدل لا يريد أن يحرم النبع الإيمانى من أريحية الفضل ؛ فهو يعطيك العدل ، ولكنه سبحانه يقول بعد ذلك : « ولا تنسوا الفضل بينكم » ؛ فالعدل وحده قد يكون شاقاً وتبقى البغضاء فى النفوس ، ولكن عملية الفضل تنهى المشاحة والمخاصمة والبغضاء .

والمشاحة إنما تأتى عندما أظن أنى صاحب الحق ، وأنت تظن أنك صاحب الحق ، ومن الجائز أن تأتى ظروف تزين لى فهمى ، وتأتى لك ظروف تزين لك فهمك ، فحين نتمسك بقضية العدل لن نصل إلى مبلغ التراضى فى النفوس البشرية . ولكن إذا جئنا للفضل تراضينا وانتهينا .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن » أى من قبل أن تدخلوا بهن « وقد فرضتم لهن فريضة » يعنى سميتم المهر « فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون » والمقصود بـ « يعفون » هو الزوجة المطلقة .

إن بعض الجهلة يقولون والعياذ بالله : إن القرآن فيه لحن . وظنوا أن الصحيح فى اللغة أن يأتى القول : إلا أن يعفوا بدلا من « إلا أن يعفون » . وهذا اللون

من الجهل لا يفرق بين « واو الفعل » و« واو الجمع » إنها هنا « واو الفعل » فقول الحق : « إلا أن يعفون » مأخوذة من الفعل « عفا » و« يعفو » .

وهكذا نفهم أن للزوجة أن تعفو عن نصف مهرها وتتنازل عنه لزوجها. ويتابع الحق: « أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح » والمقصود به الزوج وليس الولى ، لأن سياق الآية يُفهم منه أن المقصود به هو الزوج ، مع أن بعض المفسرين قالوا : إنه ولى الزوجة . ولنا أن نعرف أن الولى ليس له أن يعفو فى مسألة مهر المرأة ؛ لأن المهر من حق الزوجة ، فهو أصل مال ، وأصل رزق فى حياة الناس ؛ لأنه نظير التمتع بالبضع .

ولذلك تجد بعض الناس لا يصنعون شيئاً بصداق المرأة ، ويدخرونه لها بحيث إذا مرض واحد اشترت له من هذا الصداق ولو قرص اسبرين مثلا ؛ لأنه علاج من رزق حلال ، فقد يجعل الله فيه الشفاء . فالمرأة تحتفظ بصداقها الحلال لمثل هذه المناسبات لتصنع به شيئا يجعل الله فيه خيراً ، لأنه من رزق حلال لا غش فيه ولا تدليس .

وأرد على المفسرين الذين نادوا بأن ولى الزوجة هو الذى يعفو وأقول : لماذا يأتى الله بحكم تتنازل فيه المرأة عن حقها وأن تعفو عن النصف ، والرجل لا يكون أريحياً ليعفو عن النصف ؟ لماذا تجعل النساء الغرم كله على المرأة ؟ هل من المنطقى أن تعفو النساء أو يعفو الذى بيده عقد النكاح يعنى أولياء الزوجة ، فنجعل العفو يأتى من الزوجة ومن أوليائها ؛ أى من جهة واحدة ؟

إن علينا أن نحسن الفهم لسياق الفضل الذى قال الله فيه : « ولا تنسوا الفضل بينكم » ، إن التقابل فى العفو يكون بين الاثنين ، بين الرجل والمرأة ، ونفهم منه المقصود بقوله تعالى : « أو يعفوَ الذى بيده عقدة النكاح » أنه هو الزوج ، فكما أن للمرأة أن تعفوَ عن النصف المستحق لها فللزوج أن يعفو أيضا عن النصف المستحق له .

ويقول الحق : « وأن تعفوا أقرب للتقوى » ؛ لأن من الجائز جدا أن يظن أحد الطرفين أنه مظلوم ، وإن أخذ النصف الذى يستحقه . لكن إذا لم يأخذ شيئا فذلك أقرب للتقوى وأسلم للنفوس . ولنا أن نتذكر دائما فى مثل هذه المواقف قول الحق :

« ولا تنسوا الفضل بينكم » فحتى فى مقام الخلاف الذى يؤدى إلى أن يفترق رجل عن امرأة لم يدخل بها يقول الله : « ولا تنسوا الفضل بينكم » أى لا تجعلوها خصومة وثأراً وأحقاداً ، واعلموا أن الحق سبحانه يجعل من بعض الأشياء أسبابا مقدورة لمقدور لم نعلمه . وهذه المسألة تجعل الإنسان لا يعتقد أن أسبابه هى الفاعلة وحدها .

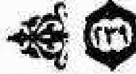
ومثال ذلك : قد نجد رجلا قد أعجب بواحدة رآها فتزوجها ، أو واحدة أخرى رآها شاب ولم تعجبه ، ثم جاء لها واحد آخر فأعجب بها ، معنى ذلك أن الله عز وجل كتب لها القبول ساعة رأت الشاب أهلاً لها ورآها هى أهلاً له . ولذلك كان الفلاحون قديما يقولون : لا تحزن عندما يأتى واحد ليخطب ابنتك ولا تعجبه ؛ لأنه مكتوب على جبهة كل فتاة:أيها الرجال عفوا ـ بكسر العين وتشديد الفاء ـ عن نساء الرجال ؛ فهى ليست له ، ولذلك فليس هذا الرجل من نصيبها . وعلينا ألا نهمل أسباب القدر فى هذه الأمور ؛ لأن هذا أدعى أن نحفظ النفس البشرية من الأحقاد والضغائن .

ويختم الحق الآية بقوله : « إن الله بما تعملون بصير » إنه سبحانه يعلم ما فى الصدور وما وراء كل سلوك . وبعد ذلك تأتى آية لتثبت قضية إيمانية ، هذه القضية الإيمانية هى أن تكاليف الإسلام كلها تكاليف مجتمعة ، فلا تستطيع أن تفصل تكليفا عن تكليف ، فلا تقل : « هذا فرض تعبدى » و« هذا مبدأ مصلحىّ » و« هذا أمر جنائى » ، لا . إن كل قضية مأمور بها من الحق هى قضية إيمانية تُكَوِّنُ مع غيرها منهجا متكاملا .

فبعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الطلاق يقول :

﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾



ثم يعود إلى الأسرة وإلى المتوفى عنها زوجها فيقول :

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾

(سورة البقرة)

إذن فالحق سبحانه وتعالى فصَّل بآية : « حافظوا على الصلوات . . » بين قضية واحدة هي قضية الفراق بين الزوجين وقسمها قسمين ، وأدخل بينهما الحديث عن الصلاة ، وذلك لينبهنا إلى وحدة التكاليف الإيمانية ، ونظرا لأن الحق يتكلم هنا عن أشياء كل مظاهرها إما شقاق اختيارى بالطلاق ، وإما افتراق قدرى بالوفاة ، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يدخل الإنسان فى العملية التعبدية التى تصله بالله الذى شرع الطلاق والصلاة وقدر الوفاة .

ولماذا اختار الله الصلاة دون سائر العبادات لتقطع سياق الكلام عن تشريع الطلاق والفراق ؟ لأن الصلاة هى التى تهب المؤمنين الاطمئنان ، إن كانت أمور الزواج والطلاق حزبتهم وأهمتهم فى شقاق الاختيار فى الطلاقات التى وقعت أو عناء الافتراق بالوفاة . ولن يربط على قلوبهم إلا أن يقوموا لربهم ليؤدوا الصلاة ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من يفعل ذلك ، كان إذا ما حزبه أمر قام إلى الصلاة .

إن المؤمن يذهب إلى الخالق الذى أجرى له أسباب الزواج والطلاق والفراق ؛

ليسأله أن يخفف عنه الهم والحزن . ومادام المؤمن قد اختار الذهاب إلى من يُجرى الأقدار فله أن يعرف أن الله الذى أجرى تلك الأقدار عليه لم يتركها بلا أحكام ، بل وضع لكل أمر حكما مناسبا ، وما على المؤمن إلا أن يأخذ الأمور القدرية برضا ثم يذهب إلى الله قانتا وخاشعا ومصليا . لأن المسألة مسألة الطلاق أو الوفاة فيها فزع وفراق اختيار أو فراق الموت القدرى .

ويأتى قوله تعالى : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » فنفهم أن المقصود فى الآية هى الصلوات الخمس ، فما المقصود بالصلاة الوسطى ؟

ساعة يأتى خاص وعام مثل قوله تعالى :

﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة نوح)

فكم مرة دخل الأب والأم هنا ؟ لقد دخلوا فى قوله تعالى : «اغفر لى ولوالدى » ، وفى قوله : « ولمن دخل بيتى » ، وفى قوله : « وللمؤمنين والمؤمنات » ، أى دخلوا ثلاث مرات .

إذن فإيجاد عام بعد خاص ، يعنى أن يدخل الخاص فى العام فيتكرر الأمر بالنسبة للخاص تكراراً يناسب خصوصيته .

وقوله تعالى : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » تفهم ذلك المعنى . فإذا سألنا : ما معنى حافظوا ؟ الجواب - إذن - يقتضى أن نفهم أن عندنا « حفظا » يقابل « النسيان » ، و« حفظا » يقابله « التضييع » ، والاثنان يلتقيان ، فالذى حفظ شيئا ونسيه فإنه قد ضيعه . والذى حفظ مالا ثم بدده ، لقد ضيعه أيضاً ، إذن كلها معانٍ تلتقى فى فقد الشىء ، فالحفظ معناه أن تضمن بقاء شىء كان عندك ؛ فإذا ما حفظت آية فى القرآن فلا بد أن تحفظها فى نفسك ، ولو أنعم الله عليك بمال فلا بد أن تحافظ عليه .

وقوله : « حافظوا على الصلوات » معناه لا تضيعوها . ويُحتمل أيضاً معنى آخر هو أنكم قد ذقتم حلاوة الصلاة فى القرب من معية ربكم ، وذلك أجدر وأولى أن تتمسكوا بها أكثر ، وذلك القول يسرى على الصلوات الخمس التى نعرفها .

قوله تعالى : « والصلاة الوسطى » ذكر للخاص بعد العام ، فكأن الله أمر بالمحافظة على ذلك الخاص مرتين ، مرة فى دائرة العموم ومرة أخرى أفردها الله بالخصوص . وما العلة هنا فى تفرد الصلاة الوسطى بالخصوص ؟ إن « وسطى » هى تأنيث « أوسط » ، والأوسط والوسطى هى الأمر بين شيئين على الاعتدال ، أى أن الطرفين متساويان ، ولا يكون الطرفان متساويين فى العدد ـ وهى الصلوات الخمس ـ إلا إذا كانت الصلوات وتراً ؛ أى مفردة ؛ لأنها لو كانت زوجية لما عرفنا الوسطى فيها ، ومادام المقصود هو وسط الخمس ، فهى الصلاة الثالثة التى يسبقها صلاتان ويعقبها صلاتان ، هذا إن لاحظت العدد ، باعتبار ترتيب الأول والثانى والثالث والرابع والخامس .

وإذا كان الاعتبار بفرضية الصلاة فإن أول صلاة فرضها الله عز وجل هى صلاة الظهر ، هذا أول فرض ، وبعده العصر ، فالمغرب ، فالعشاء ، فالفجر . فإن أخذت الوسطى بالتشريع فهى صلاة المغرب وهذا رأى يقول به كثير من العلماء .

وإن أخذت الوسطى بحسب عدد ركعات الصلاة فستجد أن هناك صلاة قوامها ركعتان هى صلاة الفجر وصلاة من أربع ركعات هى صلاة الظهر والعصر والعشاء ، وصلاة من ثلاث ركعات هى صلاة المغرب . والوسط فيها هى الصلاة الثلاثية ، وهى وسط بين الزوجية والرباعية فتكون هى صلاة المغرب أيضا . وإن أخذتها بالنسبة للنهار فالصبح أول النهار والظهر بعده ثم العصر والمغرب والعشاء ، فالوسطى هى العصر .

وإن أخذتها على أنها الوسط بين الجهرية والسرية فيحتمل أن تكون هى صلاة الصبح أو صلاة المغرب ؛ لأن الصلوات السرية هى الظهر والعصر ، والجهرية هى المغرب والعشاء والفجر . وبين العشاء والظهر تأتى صلاة الصبح ، أو صلاة المغرب باعتبار أنها تأتى بين الظهر والعصر من ناحية ، والعشاء والصبح من ناحية أخرى .

وإن أخذتها لأن الملائكة تجتمع فيها فهى فى طرف النهار والليل فذلك يعنى صلاة العصر أو صلاة الصبح . إذن ، فالوسط يأتى من الاعتبار الذى تُحسب به إن كان عدداً أو تشريعا ، أو عدد ركعات ، أو سرية أو جهرية أو بحسب نزول ملائكة ا. ر والليل ، وكل اعتبار من هؤلاء له حكم .

ولماذا أخفى الله ذكرها عنا ؟ نقول : أخفاها لينتبه كل منا ويعرف أن هناك فرقا بين الشىء لذاته ، والشىء الذى يُبهم فى سواه ؛ ليكون كل شىء هو الشىء فيؤدى ذلك إلى المحافظة على جميع الصلوات .

فما دامت الصلاة الوسطى تصلح لأن تكون الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء فذلك أدعى للمحافظة على الصلوات جميعا . فإبهام الشىء إنما جاء لإشاعة بيانه . ولذلك أبهم الله ليلة القدر للعلة نفسها وللسبب نفسه ، فبدل أن تكون ليلة قدر واحدة أصبحت ليالى أقدار .

كذلك قوله تعالى : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » أى على الصلوات الخمس بصفة عامة وكل صلاة تنفرد بصفة خاصة . ويريد الحق سبحانه أن نقوم لكل صلاة ونحن قانتون ، والأمر الواضح هو « وقوموا لله قانتين » وأصل القنوت فى اللغة هو المداومة على الشىء ، وقد حض وحث القرآن الكريم على ديمومة طاعة الله ولزوم الخشوع والخضوع ، ونرى ذلك فى قول الحق الكريم :

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩ ﴾

(سورة الزمر)

إن الحق سبحانه يبلغ رسوله صلى الله عليه وسلم ليبلغنا نحن المسلمين المؤمنين برسالته أن نقارن بين الذى يخشع لله فى أثناء الليل فيقضيه قائما وساجدا يرجو رحمة ربه ، وبين الذى يدعو ربه فى الضراء وينساه فى السراء ، هل يستوى الذين يعلمون حقوق الله فيطيعوه ويوحدوه والذين لا يعلمون فيتركوا النظر والتبصر فى أدلة قدرات

الله ؟ إن السبيل إلى ذكر الله هو تجديد الصلة به والوقوف بين يديه مقيمين للصلاة .

ونحن نتلقى الأمر بإقامة الصلاة حتى فى أثناء القتال ، لذلك شرع لنا صلاة الخوف ، فالقتال هو المسألة التى تخرج الإنسان عن طريق أمنه ، فيقول سبحانه : « فإن خفتم فرجالا أو ركبانا » ، إننا حتى فى أثناء القتال والخوف لا ننسى ذكر الله ؛ لأننا أحوج ما نكون إلى الله أثناء مواجهتنا للعدو ، ولذلك لا يصح أن نجعل السبب الذى يوجب أن نكون مع الله مبررا لأن ننسى الله .

وكذلك المريض ، مادام مريضاً فهو مع معية الله ، فلا يصح أن ينقطع عن الصلاة ؛ لأنه لا عذر لتاركها ، حتى المريض إن لم يستطع أن يصلى واقفا صلى قاعدا ، فإن لم يستطع قاعدا ؛ فليصل مضطجعا ، ويستمر معه الأمر حتى لو اضطر للصلاة برموش عينيه . كذلك إن خفتم من عدوكم صلوا رجالا ، يعنى سائرين على أرجلكم أو ركبانا و« رجالا » جمع « راجل » أى يمشى على قدميه ، ومثال ذلك قوله الحق :

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الحج)

لقد كان الناس يؤدون فريضة الحج سيرا على الأقدام أو ركبانا على إبل يضمرها السفر من كل مكان بعيد . إذن فالراجل هو من يمشى على قدميه . والأرجل مخلوقة لتحمل بنى الإنسان : الواقف منهم ، وتقوم بتحريك المتحرك منهم ، فإن كان الإنسان واقفا حملته رجلاه ، وإن كان ماشيا فإن رجليه تتحركان . والمقصود هنا أن الصلاة واجبة على المؤمنين سائرين على أقدامهم أو ركبانا .

هذه المسألة قد فصلها الحق سبحانه وتعالى فى صلاة الخوف بأن قسم المسلمين قسمين : قسما يصلى مع النبى عليه الصلاة والسلام فى الركعة الأولى ، ثم يتمون الصلاة وحدهم ويأتى القسم الآخر ليأتم بالرسول فى الركعة التى بعدها حتى تنتهى الصلاة بالنسبة للرسول صلى الله عليه وسلم ، وينتظرهم حتى يفرغوا من صلاتهم ويسلم بهم ، فيكون الفريق الأول أخذ فضل البدء مع الرسول ، والفريق الآخر أخذ فضل الانتهاء من الصلاة مع الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان ذلك فى غزوة ذات الرقاع

فكلٌ من الفرقتين كانت تقف فى وجه العدو للحراسة فى أثناء صلاة الفرقة الأخرى .

ولى رأى فى هذه المسألة هو أن صلاة الخوف بالصور التى ذكرها الفقهاء إنما كانت للمعارك التى يكون فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لا يصح أن يكون هناك جيش يصلى خلف النبى صلى الله عليه وسلم ويحرم الباقى من أن يصلى خلفه ، لذلك جعل الله بركة الصلاة مع رسول الله للقسمين .

لكن حينما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى فمن الممكن أن يكون للواقفين أمام العدو إمام وللآخرين إمام ، إذن كان تقسيم الصلاة وراء الإمام فى صلاة الخوف إنما كان لأن الإمام هو الإمام الأعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يشأ الله أن يحجب قوما عن الصلاة مع رسول الله عن قوم آخرين ، فقسم الصلاة الواحدة بينهم . لكن فى وقتنا الحالى الذى انتظمت فيه المسائل ، وصار كل الناس على سواء ، ولم يعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا ، لذلك يصح أن تُصلى كل جماعة بإمام خاص بهم .

وقوله الحق : « فإن خفتم فرجالا أو ركبانا » نفهم منه أن الصلاة لا تسقط حتى عند لقاء العدو ، فإذا حان وقت الصلاة فعلى المؤمن أن يصليها إذا استطاع فإن لم يستطع فليكبر تكبيرتين[1] ويتابع الحق فيقول : « فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون » أى اذكروا الله على أنه علمكم الأشياء التى لم تكونوا تعلمونها ، فلو لم يعلمكم فماذا كنتم تصنعون ؟

وبعد ذلك يعود الحق لسياق الحديث عن المتوفى عنها زوجها فيقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ

(١) أنظر تفسير القرطبى للآية الكريمة رقم ٢٣٩ - سورة البقرة .

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾

فى آية سابقة قال الحق :

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾

(سورة البقرة)

إذن نحن أمام حكمين للذين يتوفون ويذرون أزواجا ، حكم أن تتربص بنفسها أربعة أشهر وعشرا ، وحكم آخر بأن للزوج حين تحضره الوفاة أو أسبابها أو مقدماتها أن ينصح ويوصى بأن تظل الزوجة فى بيته حولا كاملا لا تهاج ، وتكون الأربعة الأشهر والعشر فريضة وبقية الحول والعام وصية ، إن شاءت أخذتها وإن شاءت عدلت عنها .

« والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية » هذه وصية من الزوج عندما تحضره الوفاة .

إذن فالمتوفى عنها زوجها بين حكمين : حكم لازم وهو فرض عليها بأن تظل أربعة أشهر وعشرا ، وحكم بأن يوصى الزوج بأن تظل حولا كاملا لا تهاج إلا أن تخرج من نفسها . و« غير إخراج » أى لا يخرجها أحد . « فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم » . إن لها الخيار أن تظل عاما حسب وصية زوجها ، ولها الخيار فى أن تخرج بعد الأربعة الأشهر والعشر .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ ﴾

إن لكل المطلقات فى أى صورة من الصور متاعا ، ولكنه سبحانه قد بين المتاع فى كل واحدة بدليل أنه أوضح لنا : إن لم تفرضوا لهن فريضة فقال : « ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره » . وإن كنتم فرضتم لها مهرًا فنصف ما فرضتم ، فكأن الله قد جعل لكل حالة حكما يناسبها ، ولكل مطلقة متعة بالقدر الذى قاله سبحانه . وعندما نتأمل قول الحق من بعد ذلك :

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ﴾

فنحن نعرف مما سبق أن الآيات هى الأمور العجيبة ، والحق سبحانه وتعالى حين ينبه العقل إلى استقبال حكم بالتعقل يكون العقل المحض لو وجه فكره إلى دراسة أسباب هذا الموضوع فلن ينتهى إلا إلى هذا الحكم . ولذلك تجد أن الحق سبحانه وتعالى يترك لبعض المشادات فى التعامل والثارات فى الخصومة أن تخرج عن حكم ما شرع الله فى أى شىء من الأشياء التى تقدمت ، ثم يصيب المجتمع شر من المخالفة ، وكأنه بذلك يؤكد حكمته فى تشريع ما شرع . وإلا لو لم تحدث من المخالفات شرور لقال الناس : إنه لا داعى للتشريع . ولتركوا التشريع دون أن يصيبهم شر .

إذن فحين لا نلتزم بالتشريع فالمنطق والكمال الكونى أن تحدث الشرور ؛ لأنه لو لم تحدث الشرور لاتهم الناس منهج الله وقالوا : إننا لم نلتزم يارب بمنهجك ، ومع ذلك لا شرور عندنا . فكأن الشرور التى نجدها فى المجتمع تلفتنا إلى صدق الله وكمال حكمته فى تحديد منهجه . وهكذا يكون المخالفون لمنهج الله مؤيدين لمنهج الله . وبعد ذلك ينتقل الحديث إلى علاج قضية إيمانية وهو أن الله حين يقدر قدرا لا يمكن لمخلوق أن يفلت من هذا القدر ، يقول سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى على ما يتعلق بالأسرة المسلمة فى حالة علاج الفراق فى الزواج إما بالطلاق وإما بالوفاة ، أراد الحق سبحانه وتعالى للأمة الإسلامية أن تعرف أن أحداً لن يفر من قدر الله إلا إلى قدر الله ، فالأمة الإسلامية هى الأمة التى أمنها على حمل رسالة ومنهج السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة ، فلم يعد محمد صلى الله عليه وسلم يأتى ولا نبى يُبعث . ولا بد لمثل هذه الأمة أن تُربى تربية تناسب مهمتها التى حملها الله إياها . ولا بد أن يضع الحق سبحانه وتعالى بين يدى هذه الأمة كل ما لاقته وصادفته مواكب الرسل فى الأمم السابقة ليأخذوا العبرة من المواقف ويتمثلوا المنهج لا من نظريات تُتلى ولكن من واقع قد دُرس ووقع فى المجتمع .

أراد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى أساس المسألة وهو أنه سبحانه واهب الحياة ولا أحد غيره ، وواهب الحياة هو الذى يأخذها . ولم يضع لهبة الحياة سبباً عند

الناس . وإنما هو سبحانه الذى يحيى ويميت . وفى الحياة والموت استبقاء للنوع الإنسانى ، ولكن استبقاء حياة الأفراد إنما ينشأ بالقوت الذى ينشأ من التمول .

ويعالج الحق هذه المسألة بواقع سبق أن عاشه موسى عليه السلام مع قومه وهم بنو إسرائيل ، ونعرف أن قصة موسى مع قومه قد أخذت أوسع قصص القرآن ؛ لأنها الأمة التى أتعبت الرسل ، وأتعبت الأنبياء ، وكان لا بد أن يعرض الحق هذا الأمر برمته على أمة محمد صلى الله عليه وسلم من واقع ما حدث ، فقال سبحانه : « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت » . ونعرف من هذا القول أن علة الخروج إنما كانت مخافة أن يموتوا . أما عن سبب هذا الموت فلم تتعرض له الآيات ، وإن تعرض المفسرون له وقالوا كلاما طويلاً ، فمنهم من قال : إنهم خرجوا هربا من وباء يحل بالبلد خشية أن يموتوا ، وبعضهم قال : إنهم خرجوا فراراً من عدو قد سُلط عليهم ليستأصلهم ، المهم أنهم أرادوا أن يفروا خوفا من الموت .

إذن فالقرآن يعالج تلك المسألة من الزاوية التى تهم ، ولكن ما هو السبب ولماذا الخروج ؟ فذلك أمر لا يهم ؛ لأن القرآن لا يعطى تاريخا ، فلم يقل متى كانت الوقائع ولا زمنها ، ولا على يد من كان هذا ، ولا يحدد أشخاص القضية ، كل ذلك لا يهتم به القرآن . والذين يتعبون أنفسهم فى البحث عن تفاصيل تلك الأمور فى القصص القرآنى إنما يحاولون أن يربطوا الأشياء بزمن مخصوص ، ومكان مخصوص ، وأشخاص مخصوصة .

ونقول لهم : إن القرآن لو أراد ذلك لفعل ، ولو كان ذلك له أصل فى العبرة والعظة لبيّنه الحق لنا ، وأنتم تريدون إضعاف مدلول القصة بتلك التفاصيل ؛ لأن مدلول القصة إن تحدد زمنها ، فربما قيل : إن الزمان الذى حدثت فيه كان يحتمل أن تحدث تلك المسألة والزمن الآن لم يعد يحتملها ، وربما قيل : إن هذا المكان الذى وقعت فيه يحتمل حدوثها ، إنما الأمكنة الأخرى لا تحتمل . وكذلك لو حددها بشخصيات معينة لقيل : إنّ القصص لا يمكن أن تحدث إلا على يد هذه الشخصيات ؛ لأنها فلتات فى الكون لا تتكرر .

إن الله حين يبهم فى قصة ما عناصر الزمان والمكان والأشخاص وعمومية الأمكنة إنه ـ سبحانه ـ يعطى لها حياة فى كل زمان وفى كل مكان وحياة مع كل شخص ، ولا يستطيع أحد أن يقول : إنها مشخصة . وأضرب دائما هذا المثل بالذين يحاولون أن يعرفوا زمن أهل الكهف ومكان أهل الكهف وأسماء أهل الكهف وكلب أهل الكهف . نقول لهؤلاء : أنتم لا تثرون القصة ، لأنكم عندما تحددون لها زمانا ومكانا وأشخاصا فسيقال : إنها لا تنفع إلا للزمان الذى وقعت فيه .

ولذلك إذا أراد الحق أن يبهم فقد أبهم ليعمم ، وإن أراد أن يحدد فهو يشخص . ومثال ذلك قوله تعالى :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة التحريم)

لم يحدد الحق هنا اسم أى امرأة من هاتين المرأتين ، بل ذكر فقط الأمر المهم وهو أن كلا منها كانت زوجة لرسول كريم ، ومع ذلك لم يستطع نوح عليه السلام أن يستلب العقيدة الكافرة من زوجته ، ولم يستطع لوط عليه السلام أن يستلب العقيدة الكافرة من زوجته ، بل كانت كل من المرأتين تتآمر ضد زوجها ـ وهو الرسول ـ مع قومها ، لذلك كان مصير كل منها النار ، والعبرة من القصة أن اختيار العقيدة هو أمر متروك للإنسان ، فحرية العقيدة أساس واضح من أسس المنهج .

وأيضا قال سبحانه فى امرأة فرعون :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة التحريم)

لم يذكر اسمها ؛ لأنه لا يهمنا فى المسألة ، المهم أنها امرأة من ادعى الألوهية ،

ومع ذلك لم يستطع أن يقنع امرأته بأنه إله . لكن حينما أراد أن يشخص قال في مريم عليها السلام :

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة التحريم)

لقد ذكرها الحق وذكر اسم والدها ، ذلك لأن الحدث الذى حدث لها لن يتكرر في امرأة أخرى . فالذين يحاولون أن يُقوّوا القصة بذكر تفاصيلها نقول لهم : أنتم تُفقرون القصة ؛ فالمهم هو أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يقول : إنهم خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت . ونريد أن نقف موقفا لغويا عند قول الحق : « ألم تر » .

أنت تقول لإنسان : « ألم تر » يعنى ألم ير بعينيه ، وبالله هل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهل المؤمنون معه والمؤمنون بعده إلى أن تقوم الساعة رأوا هذه المسألة ؟ لا . لقد وصلتهم بوسيلة السماع وليس بالرؤية . ونحن نعلم أن الرؤية تكون بالعين ، والسماع يكون بالأذن ، والتذوق يكون باللسان ، والشم يكون بالأنف ، واللمس يكون باليد ، إن هذه هى الوسائل التى تعطى للعقل إدراكا وإحساسا لكى يعطى معنويات ، وفى ذلك اقرأ قوله تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

إذن فوسيلة العلم تأتى من الحواس ، وسيدة الحواس هى العين ؛ لأنه من الممكن أن تسمع شيئا من واحدٍ بتجربته هو ، لكن عندما ترى أنت بنفسك فتكون التجربة خاصة بك ، ولذلك يقال : « ليس مَن رأى كمن سمع » ، فإذا أراد الحق أن يقول : ألم تعلم يا من أخاطبك بالقرآن خبر هؤلاء القوم ؟ فهو سبحانه يأتى بها على هذه الصورة : « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم » ويعنى ألم تعلم والعلم هنا بأى وسيلة ؟ بالسمع .

ولماذا لم يختصر سبحانه المسافة ويقول : « ألم تسمع » بدلا من « ألم تر » ؟ . إنه فى قوله : « ألم تر » يخبرك بشىء سابق عن وجودك أو بشىء متأخر عن وجودك ، فعليك أن تستقبله استقبالك لما رأيته ؛ لأن الله الذى خلق الحواس هو ـ سبحانه ـ أصدق من الحواس ، ولذلك جاء قوله تعالى فى سورة الفيل :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ ﴾

(سورة الفيل)

إننا نعرف أن النبى صلى الله عليه وسلم ولد فى عام الفيل ولم ير هذه الحادثة فكيف يقول الله له ألم تر ؟ إن المعنى من ذلك هو « ألم تعلم » ؟ « ألم تسمع منى » ولم يقل « ألم تسمع » ؟ لكى يؤكد له أنه سيقول له حدثا هو لم يره ولكن الحق سيخبره به ، وإخبار الحق له كأنه يراه . فكأن الله يقول : إن هذه مسألة مفروغ منها وساعة أخبرك بها فكأنك رأيتها .

ونحن نسمع فى حياتنا قول الناس : إن فلانا ألمعى . ومعنى ذلك أنه يحدثك حديثا كأنه رأى أو سمع .

الألمعى الذى يظن بك الظن   كأن قد رأى وقد سمعا

ويحدثنا الحق عن هؤلاء القوم فيقول : « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم » . إنه سبحانه يخبرنا بأن الأمر الذى يفرون منه لاحق بهم ، لأنه لا يحتاط من قدر الله أحد ، لذلك أماتهم الله ثم أحياهم ليتعظوا . ولو أخر الله الإحياء إلى يوم البعث فلن تؤثر العبرة ؛ لأنه بعد يوم القيامة لا اعتبار ولا تكليف ، وكل ذلك لا قيمة له .

وقوله تعالى : « حذر الموت » بيان لعلة الخروج ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لهم أن هذه قضية لا ينفع فيها الحذر ، أنتم خرجتم خوفا من الموت سأميتكم ، والذى كنتم تطلبونه بعد الموت سأحدث لكم غيره ، لذلك أحياهم إحياء آخر حتى يتحسروا ، ويأخذوا أجلهم المكتوب « ثم أحياهم » حتى يبين لكم أن أمر الموت بيده

سبحانه سواءً كان خوفهم من الموت نابعا من أعدائهم أو من وباء وطاعون، فالأمر في جوهره لايختلف، ولو أن الآية ذكرت أنهم خرجوا خوفا من وباء ما كنا فهمنا منها احتمال خروجهم خوفا من أعدائهم . إذن إبهام السبب المباشر فى القصة أعطاها ثراءً .

وقوله تعالى: «وهم ألوف» يبين لنا مدى الخيبة والغباء الذى كانوا فيه ، لأنهم كيف يخرجون خائفين من الأعداد وهم ألوف مؤلفة . ولم يظهر واحد من هؤلاء الألوف ليقول لهم : إن الموت والحياة بيد الله. «ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا » .

وساعة تأمر مأمورا منك بأمر فلا بد أن يكون عندك طلاقة قدرة أن تفعل، وهل إذا قلت لأحد : مت ، سيموت؟إذا أمات نفسه فقد قتلها، وفرق كبير بين الموت والقتل . إنما الموت يأتى بلا سبب من الميت ، و لكن القتل ربما يكون بسبب الانتحار أو بأى وسيلة أخرى ، المهم أنه قتل للنفس وليس موتا .

ويوضح لنا الحق الفرق بين القتل والموت حين يقول :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ولقدجاءت هذه الآية فى مجال استخلاص العبر من هزيمة أحُد حين شاع بين المسلمين أن رسول الله ﷺ قد قتل ، ففكر بعض منهم فى الارتداء ، وجاء قول الحق سبحانه موضحا أن رسول الله ﷺ هو نبى سبقه رسل جاءوا بالمنهج ، والأمة المسلمة التى أمنها الله على تمام المنهج لايصح أن يهتز الإيمان فيها بموت الرسول الكريم ؛ لأن من ينقلب ويرتد فلن يضر الله شيئاً ، إنما الجزاء سيكون للشاكرين العارفين فضل منهج الله .

ولنا أن نعرف أن الحق سبحانه جاء بالموت كمقابل للقتل ، وأوضح فى الآية

التالية أمر الموت حين قال :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فأمر الموت مرهون بمشيئة الله وطلاقة قدرته وتحديده لكل أجل بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر ، وسيلقى كل إنسان نتيجة عمله، فمن عمل للدنيا فقط نال جزاءه فيها ، ومن عمل للآخرة فسيجزيه الله فى دنياه وآخرته .

لذلك يصدر الأمر من الحق بقوله : « فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم » فلم يكن بإرادتهم أن يصنعوا موتهم ، أو أمر عودتهم إلى الحياة ، لكنه أمر تسخيرى . إنهم يموتون بطلاقة قدرته المتمثلة فى « كن فيكون » . ويعودون إلى الحياة بتمام طلاقة القدرة المتمثلة فى « كن فيكون » . فليس لهم رأى فى مسألة الموت أو العودة للحياة ، إنه أمر تسخيرى ، كما قال الحق من قبل للأرض والسماء :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة فصلت)

لقد شاءت قدرته أن يخلق السماء على هيئة دخان فوُجدت ، وخلقه للسماوات والأرض على وفق إرادته وهو هين عليه بمنزلة ما يقال للشىء احضر راضيا أو كارها ، فيسمع الأمر ويطيعه . وهذه أمور تسخيرية من الخالق الأكرم ، وليس للمخلوق من سماوات وأرض وما بينهما إلا الامتثال للأمر التسخيرى من الخالق عز وجل . فعندما يقول الحق سبحانه : « موتوا ثم أحياهم » فهذا أمر تسخيرى بالموت ، وأمر تسخيرى بعودتهم إلى الحياة .

وأليس الموت هو ما خافوه وفروا منه واحتاطوا بالهرب منه ؟ نعم ، لكن لا أحد

بقادر على أن يحتاط على قدر الله ؛ لأن الحق أراد لهم أن يعرفوا أن أحداً لا يفر من قدر الله إلا لقدر الله . ولذلك فسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما أراد للناس ألا تذهب إلى أرض فيها الطاعون . قالوا له :

- أتفر من قدر الله ؟
قال عمر : نعم : نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله .

إن ذلك يجعل الإنسان فى تسليم مطلق بكل جوارحه لله . صحيح على الإنسان أن يحتاط ، ولكن القدر الذى يريده الله سوف ينفذ . والمؤمن يأخذ بالأسباب ، ويسلم أمره إلى الله .

وقد يقول قائل : لماذا لم يترك الله هؤلاء القوم من بنى إسرائيل ليموتوا وإلى أن يأتى البعث يوم القيامة ليحاسبهم ؟

وأقول : لقد أراد الحق سبحانه بالأمر التسخيرى بالإحياء ثانية أن توجد العبرة والعظة ، ولتظل ماثلة أمام أعين الخلق ومحفوظة فى أكرم كتاب حفظه الله منهجا للناس وهو القرآن الكريم . إن الحق أراد بالأمر عظة واعتبارا وتجربة يموتون بأمر تسخيرى ، ويعودون إلى الحياة بأمر تسخيرى آخر ، ثم يعيشون الحياة المقدرة لهم ويموتون بعدها حتف أنوفهم ، ولتظل عبرة ماثلة أمام كل مؤمن حق ، فلا يخاف الموت فى سبيل الله .

لقد أراد الله بهذه التجربة أن نستخدم قضية الجهاد فى سبيل الله ، فلا يظن ظان أن القتال هو الذى يسبب الموت ، إنما أمر الموت والحياة بيد واهب الحياة . وهاهو ذا قول خالد بن الوليد على فراش الموت باقيا ليعرفه كل مؤمن بالله :

- لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى جسدى شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنه برمح ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت العَيْر ، فلا نامت أعين الجبناء .

• إذن فأمر الحياة والموت ليس مرهونا بقتال أو غيره ، إنما هو محدد بمشيئة الله .

ولننظر إلى تذييل الآية حين يقول الحق: «إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لايشكرون». وما الفضل؟ إنه أن تتلقى عطاءً يزيد على حاجتك. والحق سبحانه وتعالى لايعطى الناس فقط على قدر حاجتهم إنما يعطيهم ماهو أكثر من حاجتهم. إذن فلو مات هؤلاء القوم الذين خرجوا من ديارهم خوفا من وباء أو عدو لكان هذا الموت فضلا من عند الله؛ لأنهم لو ماتوا بالوباء لماتوا شهداء، وهذا فضل من الله. ولو ماتوا فى لقاء عدو وحاربوا فى سبيل الله لنالوا الشهادة أيضا، وذلك فضل من الله.

لماذا يكون مثل هذا الموت فضلا من الله؟ لأننا جميعا سوف نموت، فإن مات الإنسان استشهادا فى سبيله فهذا عطاء زائد. لكن أكثر الناس لايشكرون؛ لأنهم لايعلمون مدى النعمة فيما يجريه الحق سبحانه وتعالى عليهم من أمور؛ لأن الناس لو علمت مدى النعمة فيما يجريه الحق عليهم من أحداث بما فيها الإحياء والأماتة، لشكروا الله على كل مايجريه عليهم، فالحق سبحانه وتعالى لايجرى على البشر، وهم من صنعته إلا مايصلح هذه الصنعة، وإلا ماهو خير لهذه الصنعة.

لقد استبقى الحق سبحانه هذه العبرة بما أجراه على بعض من بنى إسرائيل لنرى أن القتال فى سبيل الله هو من نعم الله على العباد، فلا مهرب من قضاء الله. وهاهو ذا الشاعر العربى يقول:

ألا أيها الزاجرى أحضر الوغى ... وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى

فإن كنت لاتستطيع دفع منيتى ... فدعنى أبادرها بما ملكت يدى

إن الشاعر يسأل من يوجه له الدعوة لا إلى القتال، ولكن إلى الاستمتاع بملذات الحياة قائلاً: مادمت لاتملك لى خلوداً فى هذه الحياة ولا أنت بقادر على رد الموت عنى فدعنى أقاتل فى سبيل الله بما تملكه يداى.

وبعد الحديث عن محاولة هرب بعض من بنى إسرائيل من قدر الله فأجرى عليهم الموت تسخيراً وأعادهم إلى الحياة تسخيرا، وهذا درس واضح للمؤمنين الذين سيأتى

إليهم الأمر بالقتال فى سبيل الله . فلا تبالوا أيها المؤمنون إن كان القتال يجلب لكم الموت ؛ لأن الموت يأتى فى أى وقت. بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ ﴾

إنه الأمر الواضح بالقتال فى سبيل الله دون مخافة للموت . لماذا ؟ لأن واهب الحياة وكاتب الأجل سميعٌ عليم ، سميع بأقوال من يقاتل وعليم بنواياه .

وكان الجهاد قديما عبئا ثقيلا على المجاهد ؛ لأنه كان يتحمل نفقة نفسه ويتحمل المركبة ـ حصانا أو جملا ـ ويتحمل سلاحه ، كان كل مجاهد يُعِدّ عدته للحرب ، فكان ولا بد إذا سمح لنفسه أن تموت فمن باب أولى أن يسمح بماله ، وأن يجهز عدته للحرب ، وعلى ذلك كان القتال بالنفس والمال أمراً ضروريا .

وقوله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله » أى قاتلوا بأنفسكم ثم عرج إلى الأموال فقال :

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾

ساعة تسمع « يقرض الله » فذلك أمر عظيم ؛ لأنك عندما تقرض إنسانا فكأنك تقرض الله ، ولكن المسألة لا تكون واضحة ، لماذا ؟ لأن ذلك الإنسان سيستفيد استفادة مباشرة ، لكن عندما تنفق فى سبيل الله فليس هناك إنسان بعينه تعطيه ، وإنما أنت تعطى المعنى العام فى قضية التدين ، وتعاملك فيها يكون مع الله . كأنك تقرض الله حين تنفق من مالك لتعد نفسك للحرب .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا بكلمة القرض على أنه يطلب منا عملية ليست سهلة على النفس البشرية ، وهو سبحانه يعلم بما طبع عليه النفوس . والقرض فى اللغة معناه قضم الشيء بالناب ، وهو سبحانه وتعالى يعلم أن عملية الإقراض هى مسألة صعبة ، وحتى يبين للناس أنه يعلم صعوبتها جاء بقوله : « يقرض » ، إنه المقدر لصعوبتها ، ويقدر الجزاء على قدر الصعوبة .

« من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا » . وما هو القرض الحسن ؟ وهل إذا أقرضت عبداً من عباد الله لا يكون القرض حسنا ؟

أولا إذا أقرضت عبداً من عباد الله فكأنك أقرضت الله ، صحيح أنت تعطى الإنسان ما ييسر له الفرج فى موقف متأزم ، وصحيح أيضا أنك فى عملية الجهاد لا تعطى إنسانا بعينه وإنما تعطى الله مباشرة ، وهو سبحانه يبلغنا : أن من يقرض عبادى فكأنه أقرضنى . كيف ؟ لأن الله هو الذى استدعى كل عبد له للوجود ، فإذا احتاج العبد فإن حاجته مطلوبة لرزقه فى الدنيا ، فإذا أعطى العبد لأخيه المحتاج فكأنه يقرض الله المتكفل برزق ذلك المحتاج .

وقوله تعالى : « يقرض الله » تدلنا على أن القرض لا يضيع ؛ لأن القرض شيء تخرجه من مالك على أمل أن تستعيده ، وهو سبحانه وتعالى يطمئنك على أنه هو الذى سيقترض منك ، وأنه سيرد ما اقترضه ، لكن ليس فى صورة ما قدمت وإنما فى صورة مستثمرة أضعافا مضاعفة ، إن الأصل محفوظ ومستثمر ، ولذلك يقول : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة » ، إنها أضعاف كثيرة بمقاييس الله عز وجل لا بمقاييسنا كبشر .

والتعبير بالقرض الحسن هنا يدلنا على أن مصدر المال الذى تقرض منه لا بد أن يكون من حلال ، ولذلك قيل للمرأة التى تتصدق من مال الزنا : « ليتها لم تزن ولم تتصدق » .

وقيل :إن القرض ثوابه أعظم من الصدقة ، مع أن الصدقة يجود فيها الإنسان بالشيء كله ، فى حين أن القرض هو دين يسترجعه صاحبه ، لأنّ الألم فى إخراج الصدقة يكون لمرة واحدة فأنت تخرجها وتفقد الأمل فيها ، لكن القرض تتعلق نفسك به ، فكلما صبرت مرة أتتك حسنة ، كما أن المتصدق عليه قد يكون غير محتاج ، ولكن المقترض لا يكون إلا محتاجا .

والقرض من المال الذى لديك يجعل المال يتناقص ، لذلك فالله يعطيك أضعافا مضاعفة نتيجة هذا القرض ، وذلك مناسب تماما لقوله تعالى : « يقبض ويبسط » التى جاء بها فى قوله تعالى : « والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون » أى ساعة تذهب إليه ويأخذ كل منا حقه بالحساب أى أن المال الذى تقرض منه ينقص فى ظاهر الأمر ولكن الله ـ سبحانه ـ يزيده ويبسطه أضعافا مضاعفة وفى الآخرة يكون الجزاء جزيلا .

ثم ينتقل الله عز وجل إلى قضية أخرى يستهلها بقوله سبحانه : « ألم تر » تأكيدا للخبر الذى سيأتى بعدها على أنه أمر واقع وقوع الشيء المرئى ، يقول سبحانه :

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟
لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ
هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ
قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا

مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾

إن الحق سبحانه يبلغنا بوسيلة السماع عنه ، وعلينا أن نتلقى ذلك الأمر كأننا نراه بالعين ، فماذا نرى ؟ « ألم تر إلى الملأ » ، ما معنى الملأ ؟ هي من ملأ يعنى ازدحم الإناء ، ولم يعد فيه مكان يتحمل زائداً . وأن الظرف قد شُغل بالمظروف شغلا لم يعد يتسع لسواه . وكلمة « ملأ » تُطلق على أشراف القوم . وأشراف القوم كأنهم هم الذين يملأون حياة الوجود حولهم ولا يستطيع غيرهم أن يزاحمهم . و« الملأ » من أشراف الوجوه والقوم يجلسون للتشاور .

« ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى » أى ألم يأتك خبر وجوه القوم وأشرافهم من بعد موسى عليه السلام مثلا فى عصر « يوشع » أو « حزقيل أو شمويل » أو أى واحد منهم ، ولا يعنينا ذلك لأن القرآن لا يذكر فى أى عهد كانوا ، المهم أنهم كانوا بعد موسى عليه السلام . « إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله » .

لقد اجتمع أشراف بنى إسرائيل للتشاور ثم ذهبوا إلى النبى الذى كان معاصرا لهم وقالوا له : ابعث لنا ملكا . ونفهم من ذلك أنه لم يكن لهم ملك . وماذا نستفيد من ذكر وجود نبى لهم وعدم وجود ملك لهم ؟

نفهم من ذلك أن النبوة كانت تشرف على نفاذ الأعمال ولا تباشر الأعمال ، وأما الملك فهو الذى يباشر الأعمال . ولو كانت النبوة تباشر أعمالا لما طلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكا . وسبب ذلك أن الذى يباشر عرضة للكراهية من كثير من الناس وعرضة أن يفشل فى تصريف بعض الأمور ، فبدلا من أن يوجهوا الفشل للقمة العليا ، ينقلون ذلك لمن هو أقل وهو الملك . ولذلك طلبوا من النبى أن يأتى بملك يعيد تصريف الأمور فتكون النبوة مرجعا للحق ، ولا تكون موطنا للوم فى أى شيء .

الحق سبحانه وتعالى يبلغنا أنه قال لنبى بنى إسرائيل :

أنتم الذين طلبتم القتال وأنتم الملأ - أى أشراف القوم - وأتيتم بالعلة الموجبة للقتال وهى أنكم أخرجتم من دياركم وأبنائكم أى بلغ بكم الهوان أنه لم تعد لكم ديار ، وبلغ بكم الهوان أنه لم يعد لكم أبناء بعد أن أسرهم عدوكم . إذن علة طلب القتال موجودة ، ومع ذلك قال لهم النبى : « هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا » لقد أوضح لهم نبيهم الشرط وقال : إننى أخاف أن آتى لكم بملك كى تقاتلوا فى سبيل الله ، وبعد ذلك يفرض الله عليكم القتال ، وعندما نأتى للأمر الواقع لا نجد لكم عزما على القتال وتتخاذلون .

لكنهم قالوا : « وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا » . . انظر إلى الدقة فى قولهم : « فى سبيل الله » وتعليق ذلك السبيل على أنهم أخرجوا من ديارهم وأبنائهم ! لقد أرادوا أن يقلبوا المسألة وأن يقولوا : إن القتال فى سبيل الله بعد أن عضتهم التجربة فيما يحبون من الديار والأبناء ، إذن فالله هو الملجأ فى كل أمر ، وقبل سبحانه منهم قولهم ، واعتبر قتالهم فى سبيله .

وكان إخراجهم من ديارهم أمرا معقولا ، لكن كيف يخرجون من أبنائهم ؟ ربما كانوا قد تركوا أبناءهم للعدو ، وربما أخذهم العدو أسرى . لكنهم هم الذين أخرجوا من ديارهم ، وينطبق عليهم فى علاقتهم بالأبناء قول الشاعر :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحلون هم

وانظر إلى التمحيص ، إنهم ملأ من بنى إسرائيل وذهبوا إلى نبى وقالوا له : ابعث لنا ملكا حتى يجعلوها حربا مشروعة ليقاتلوا فى سبيل الله ، وقال لهم النبى ما قال وردوا عليه هم : « وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله » يعنى وكيف لا نقاتل فى سبيل الله ؟

وجاء لهم الأمر بالقتال فى قوله تعالى : « فلما كتب عليهم القتال تولوا » إن قوله : « كتب » لأنهم هم الذين طلبوا تشريع القتال فجعلهم الله داخلين فى العقد فجاء

التعبير بـ« كُتِبَ » ولم يأت بـ« كَتَبَ » ، ومع ذلك تولوا أى أعرضوا عن القتال .

لقد كان لنبيهم حق فى أن يتشكك فى قدرتهم على القتال ، ويقول لهم : « هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا » . ولكن هل أعرضوا جميعا عن القتال ؟ لا ؛ فقد كان فيهم من ينطبق عليه قول الشاعر :

إن الذى جعل الحقيقة علقماً   لم يخل من أهل الحقيقة جيلاً

لقد كان منهم من لم يعرض عن التكليف بالقتال لكنهم قلة ، وهذا تمهيد مطلوب ، حتى إذا انحسرت الجمهرة ، وانفض الجمع من حولك إياك أن تقول : « إنى قليل » ؛ لأن المقاييس ليست بكثرة الجمع ، ولكن بنصرة الحق سبحانه وتعالى .

وقد يكون عدوك كثيرا لكن ليس له رصيد من ألوهية عالية ، وقد تكون فى قلة من العدد ، لكنْ لك رصيد من ألوهية عالية ، وهذا ما يريد الحق أن يلفتنا إليه بقوله : « فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا » . كلمة « إلا قليلا » جاءت لتخدم قضية ، لذلك جاء فى آخر القصة قوله تعالى :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

أى أن الغلبة تأتى بإذن الله ، إذن فالشيء المرئى واحد ، لكن وجهة نظر الرائين فيه تختلف على قدر رصيدهم الإيمانى . أنت ترى زهرة جميلة ، والرؤية قدر مشترك عند الجميع ، ورآها غيرك ، أعجبتك أنت وحافظت عليها وتركتها زينة لك ولغيرك ، بينما رآها إنسان آخر فقطفها ولم يبال مِلْكُ مَن هى ، وهكذا تعرف أن العمل النزوعى يختلف من شخص لآخر ، فالعدو قد يكون كثيراً أمامنا ونحن قلة ، وكلنا رأى العدو كثيراً ورأى نفسه قليلاً ، لكن المواجيد تختلف . أنا سأحسب نفسى ومعى ربى ، وغيرى رآهم كثيرين وقال : لا نقدر عليهم ؛ لأنه أخرج ربه من الحساب .

« فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين » إذن فالتولى ظلم للنفس ؛ لأن الظلم فى أبسط معانيه أن تنقل الحق لغير صاحبه ، وأنت أخرجت من ديارك وظللت على هذا الحال ، إذن فقد ظلمت نفسك ، وظلمت أولادك الذين خرجوا منك ، ولم تستردهم ، وفوق ذلك كله ظلمت قضيتك الدينية .

إذن فالجماعة الذين تولوا كانوا ظالمين لأنفسهم ولأهليهم ولمجتمعهم وللقضية العقدية . وقوله الحق : « والله عليم بالظالمين » هو إشارة على أن الله مطلع على هؤلاء الذين تخاذلوا سرا ، وأرادوا أن يقتلوا الروح المعنوية للناس وهم الذين يطلق عليهم فى هذا العصر « الطابور الخامس » الذين يفتتون الروح المعنوية دون أن يراهم أحد ولكن الله يعرفهم .

لقد طلب هؤلاء القوم من بنى إسرائيل من نبيهم أن يبعث لهم ملكا ، وكان يكفى النبى المرسل إليهم أن يختار لهم الملك ليقاتلوا تحت رايته ، لكنهم يزيدون فى التلكؤ واللجاجة ويريدون أن ينقلوا الأمر نقلة ليست من قضايا الدين .

ويقول الحق بعد ذلك :

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ
مَلِكًا قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ
مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ
عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى
مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

هم الذين طلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكا . وكان يكفى - إذن - أن يختار نبيهم شخصا ويوليه الملك عليهم . لكن نبيهم أراد أن يغرس الاحترام منهم فى المبعوث كملك لهم . لقد قال لهم : « إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا » . والنبى القائل ذلك ينتمى إليهم ، وهو منهم ، وعندما طلبوا منه أن يبعث لهم ملكا كانوا يعلمون أنه مأمون على ذلك .

ويتجلى أدب النبوة فى التلقى ، فقال : « إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا » . إنه يريد أن يطمئنهم على أن مسألة اختيار طالوت كملك ليست منه ؛ لأنه بشر مثلهم ، وهو يريد أن ينحى قضيته البشرية عن هذا الموضوع ، فقال : « إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا » . فماذا كان ردهم ؟ « قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال » . وهذه بداية التلكؤ واللجاجة ونقل الأمر إلى مسألة ليست من قضايا الدين .

إنهم يريدون الوجاهة والغنى . وكان يجب عليهم أن يأخذوا المسألة على أن الملك جاء لصالحهم ، لأنهم هم الذين طلبوه ليقودهم فى الحرب . إذن فأمر اختيار الملك كان لهم ولصالحهم ، فلماذا يتصورون أن الاختيار كان ضدهم وليس لمصلحتهم ؟

شيء آخر نفهمه من قولهم : « أنّى يكون له الملك علينا » ، إن طالوت هذا لم يكن من الشخصيات المشار إليها ، فمن العادة حين يَحْزُب الأمر فى جماعة من الجماعات أن تفكر فيمن يقود ، فعادة ما يكون هناك عدد من الشخصيات اللامعة التى يدور التفكير حولها ، وتظن الجماعة أنه من الممكن أن يقع على واحد منهم الاختيار ، وكان اختيار السماء لطالوت على عكس ما توقعت تلك الجماعة . لقد جاء طالوت من غمار القوم بدليل أنهم قالوا : « أنّى يكون له الملك » أى لم يؤت الملك من قبل .

ولقد كانوا ينتمون إلى نسلين : نسل أخذ النبوة وهو نسل بنيامين ، ونسل أخذ الملوكية وهو نسل لاوى بن يعقوب . فلما قال لهم : « إن الله بعث لكم طالوت ملكا » ، بدأوا يبحثون عن صحيفة النسب الخاصة به فلم يجدوه منتميا لا لهذا ولا لذاك ، ولذلك قالوا : « أنّى يكونُ له الملك علينا » . وهذا يدلنا على أن الناس

حين يريدون وضعا من الأوضاع لا يريدون الرجل المناسب للموقف ، ولكن يريدون الرجل المناسب لنفوسهم ، بدليل قولهم : « أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه » .

وهل الملك يأتى غطرسة أو كبرياء ؟ ومادام طالوت رجلا من غمار الناس فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يضع قضية كل مؤمن وهى أنك حين تريد الاختيار فإياك أن يغشك حسب أو نسب أو جاه ، ولكن اختر الأصلح من أهل الخبرة لا من أهل الثقة . لقد تناسوا أن القضية التى طلبوها من نبيهم تحتاج إلى صفتين : رجل جسيم ورجل عليم ، والله اختار لهم طالوت رجلا جسيما وعليما معا .

وعندما نتأمل سياق الآيات فإننا نجد أن الله قال لهم فى البداية : « بعث لكم » حتى لا يحرج أحدا منهم فى أن طالوت أفضل منه ، ولكن عندما حدث لجاج قال لهم : « إن الله اصطفاه عليكم » وهو بهذا القول يؤكد إنه لا يوجد فيكم من أهل البسطة والجسامة من يتمتع بصفة العلم . وكذلك لا يوجد من أهل العلم فيكم من يتمتع بالبسطة والجسامة « إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم » . وكان يجب أن يستقبلوا اصطفاء الله طالوت للملك بالقبول والرضى فما بالك وقد زاده بسطة فى العلم والجسم ؟

والبسطة فى العلم والجسم هى المؤهلات التى تناسب المهمة التى أرادوا من أجلها ملكا لهم . ولذلك يقول الحق : « والله يؤتى ملكه من يشاء » وكأن الحق يقول لهم : لا تظنوا أنكم أنتم الذين ترشحون لنا الملك المناسب ، يكفيكم أنكم طلبتم أن أرسل لكم ملكا فاتركونى بمقاييسى أختر الملك المناسب .

ويختم الحق الآية بقوله : « والله واسع عليم » أى عنده لكل مقام مقال ، ولكل موقع رجل ، وهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذه المهمة . ومن يصلح لتلك ، لا عن ضيق أو قلة رجال ، ولكن عن سعة وعلم .

لقد استقبلوا هذا الاختيار الإلهى باللجاج ، واللجاج نوع من العناد ولا ينهيه

إلا الأمر المشهدى المرئى الذى يلزم بالحجة ، لذلك كان لا بد من مجىء معجزة .
لذلك يأتى قوله الحق :

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ
ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا
تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ ﴾

لقد أرسل الحق مع الملك طالوت آية تبرهن على أنه ملك من اختيار الله فقال لهم نبيهم : « إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت » أى إن العلامة الدالة على ملكه هى « أن يأتيكم التابوت » وهذا القول نستدل منه على أن التابوت كان غائبا ومفقودا ، وأنه أمر معروف لديهم وهناك تلهف منهم على مجيئه .

وما هو التابوت ؟ إن التابوت قد ورد فى القرآن فى موضعين : أحدهما فى الآية التى نحن بصددها الآن ، والموضع الآخر فى قوله تعالى :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ
فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ
عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة طه)

إذن فالتابوت نعرفه من أيام قصة موسى وهو رضيع ، عندما خافت عليه أمه ؛

فأوحى لها الله : « فإذا خفت عليه فألقيه في اليم » فهل هو التابوت نفسه الذى تتحدث عنه الآيات التى نحن بصددها ؟

غالب الظن أنه هو ؛ لأنه ما دام جاء به على إطلاقه فهو التابوت المعروف ، وكأن المسألة التى نجا بها موسى لها تاريخ مع موسى وفرعون ومع نبيهم ومع طالوت. وهذه عملية نأخذ منها أن الآثار التى ترتبط بالأحداث الجسيمة فى تاريخ العقيدة يجب أن نعنى بها ، ولا نقول إنها كفريات ووثنيات ؛ لأن لها ارتباطاً بأمر عقدى ، وبمسائل تاريخية ، وارتباطاً بالمقدسات . انظر إلى التابوت الذى فيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون وتحمله الملائكة . إن هذا دليل على أنه شيء كبير ومهم .

إذن، فالآثار التى لها مساس وارتباط بأحداث العقيدة وأحداث النبوة ، هذه الآثار مهمة للإيمان ، وكأنّ القرآن يقول : اتركوها كما هى ، وخذوا منها عظة وعبرة ؛ لأنها تذكركم بأشياء مقدسة . لقد كان التابوت مفقوداً ، وذلك دليل على أن عدواً غلب على البلاد التى سكنوها ، والعدو عندما يغير على بلاد يحاول أولاً طمس المقدسات التى تربط البلاد بالعقيدة . فإذا كان التابوت مقدساً عندهم بهذا الشكل ، كان لابد أن يأخذه الأعداء . وهؤلاء الأعداء هم الذين أخرجوهم من ديارهم وهم ألوف حذر الموت . وإذا كانوا قد أخرجوهم من ديارهم فمن باب أولى أنهم أجبروهم على ترك التابوت .

والله سبحانه وتعالى يطمئنهم بأن آية الملك لطالوت هى مجيء التابوت الذى تتلهفون عليه ، وترتبط به مقدساتكم . « أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم » فكأن الاستقرار النفسى سيأتيكم مع هذا التابوت ؛ لأن الإنسان حين يجد التابوت الذى نجا به نبى ، وفيه الأشياء التى سنعرفها فيما بعد ، إن الإنسان يستروح صلته بالسماء ، وهى صلة مادية تجعل النفس تستريح .

وعلى سبيل المثال تأمل مشاعرك عندما يقال لك : « هذا هو المصحف الذى كان يقرأ فيه سيدنا عثمان » . إنه مصحف مثل أى مصحف آخر ، ولكن ميزته أنه كان يقرأ فيه سيدنا عثمان ؛ إنك تستريح نفسياً عندما تراه . وأيضاً حين تذهب إلى دار

الخلافة فى تركيا ، ويقال لك : « هذا هو السيف الذى كان يحارب به الإمام على » . فتنظر إلى السيف ، وتجد أن وزنه وثقله يساوى عشرة سيوف ، وتتعجب كيف كان يحمله سيدنا على كرم الله وجهه وكيف كان يحارب به ؟

وكذلك عندما يقال لك : « هذه شعرة من شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم أو المكحلة التى كان يكتحل بها » ، لاشك أن مثل هذه المشاهد ستترك إشراقا وطمأنينة فى نفسك . وعندما يراها إنسان به بعض الشكوك والمخاوف فإن العقيدة تستقر فى نفسه .

ومن هذا كله أقول : إن ولاة الأمر يجب ألا يعتبروا مقدسات الأشياء ضربا من الشركيات والوثنيات ، بل يجب أن يولوها عناية ورعاية ويبرزوها للناس ؛ لتكون مصدر سكينة وأمن نفس للناس ، وعليهم أن ينصحوا الناس بألا يفتنوا بها ، ولكن عليهم أن يتركوها لتذكرنا بأمر يتصل بعقيدتنا وبنبينا .

وانظر إلى حديث القرآن عن التابوت . إن الحق سبحانه لم يقل : إن التابوت سيأتى كاملا ، ولم يقل كذلك إنه التابوت الذى وُضع فيه موسى ، وإنما قال : « فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون » كأن آل موسى وهارون قد حافظوا على آثار أنبيائهم ، وأيضا قوله تعالى : « تحمله الملائكة » يؤكد لنا أنه لاشك أن الأثر الذى تحمله الملائكة لابد أن يكون شيئا عظيما يوجب العناية الفائقة « إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت » .

ونلحظ فى قوله : « أن يأتيكم التابوت » أنه سبحانه قد نسب الإتيان إلى التابوت ، فهل كان من ضمن العلامة أن يأتيهم التابوت وهم جالسون ينتظرون ، ولأن التابوت تحمله الملائكة فلن يراهم القوم لأنهم كائنات غير مرئية ، فلن يراهم أحد وإنما سيرى القوم التابوت آتياً إليهم ، ولذلك أسند الحق أمر المجىء للتابوت .

وهذا المشهد يخلع القلوب ويجعل أصحاب أشد القلوب قساوة يخرون سجدا ويقولون « يا طالوت أنت الملك ، ولن نختلف عليك » . ونريد الآن أن نعرف

الأشياء التى يمكن لآل موسى أن يحافظوا عليها من آثار موسى عليه السلام ، والآثار التى يحافظ عليها آل هارون من هارون عليه السلام .

قال بعض الناس إنها عصا موسى ، وهى الأثر الذى تبقى من آل موسى ، وذلك أمر معقول ؛ لأنها أداة من أدوات معجزة موسى عليه السلام . ألم تكن هى المعجزة التى انقلبت حية تسعى وابتلعت بسرعة ما صنعه السحرة ؟ إن مثل هذه الأداة المعجزة لا يمكن أن يهملها موسى ، أو يهملها المؤمنون به بعد ما حدث منها . وليس من المعقول أن يفرط آل موسى فى عصا تكلم الله فيها وقال :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا ﴾

(الآية ١٧ ، من الآية ١٨ سورة طه)

إن هناك قصة طويلة استغرقها الحديث عن هذه العصا ، فكيف يفرط فيها موسى وقومه بسهولة ؟ لاشك أنهم حافظوا عليها ، وقدسوها ، وجعلوها من أمجادهم .

ويرينا الحق سبحانه وتعالى أن هؤلاء القوم أهل لجاج وأهل جدل وأهل تلكؤ ، فهم لا يؤمنون بالأمور إلا إذا كانت حسية كالتابوت الذى يأتيهم وحدهم ، صحيحا تحمله الملائكة ، لكنهم لا يرون الملائكة ؛ وإنما رأوا التابوت يسير إليهم ، « أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » وليس هناك آيات أعجب من مجىء التابوت حتى يثبت صدق النبى فى أن الله قد بعث طالوت ملكا ، فإن لم يؤمنوا بهذه المسألة فعليهم أن يراجعوا إيمانهم .

والسياق القرآنى يدل على أن الله بهتهم بالحجة ، وبهتهم بالآية ، وبهتهم بالقرآن ، بدليل أنه حذف ما كان يجب أن يقال وهو : فقبلوا طالوت ملكا . ونظم طالوت الحرب فقام وقسم الجنود ورتبهم ، وكل هذه التفاصيل لم تذكرها الآيات . والحق يقول بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم
بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ
مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا
مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا
لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ
يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ
غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) ﴾

الفصل هو أن تعزل شيئا عن شيء آخر، ومثل ذلك قوله تعالى:

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾

(من الآية ٩٤ سورة يوسف)

« فصلت العير » أي غادرت مصر وخرجت منه . ونحن نستخدم كلمة « فصل » في تبويب الكتب، ونقصد به قدرًا من المعلومات المترابطة التي تكون وحدة واحدة، وعندما تنضم الفصول مع بعضها في الكتب تصير أبواباً، وعندما تنظم الأبواب الموضوعة في مجال علم واحد مع بعضها نقول عنها: هذا « كتاب ».

ونحن نستخدم كلمة « فصل » في وصف مجموعة من التلاميذ المتقاربين في العمر والمستوى الدراسي ونقسمهم إلى فصل أول وثانٍ وثالث، على حسب سعة الفصول وعدد التلاميذ . وهكذا نفهم معنى قول الحق: « فلما فصل طالوت بالجنود » أي

فصلهم عن بقية غير المقاتلين ، وقسمهم إلى جماعات مرتبة ، وكل جماعة لها مهمة .

وكلمة « جنود » هى جمع « جند » وهى مفردة لكنها تدل على جماعة ، وأصل الكلمة من « جَنَد » وهى الأرض الغليظة الصلبة القوية ، ونظرا لأن الجنود مفروض فيهم الغلظة والقوة فقد أطلق عليهم لفظ : جُنْد . وبرغم أن كلمة « جند » مفرد ؛ إلا أنها تدل على القوم مثل « رهط » و «طائفة » ويسمونها اسم جمع . « فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر » أى عندما خرج إلى مكان إقامة الجيش بدأ فى مباشرة أولى مهماته كملك ، لقد أراد أن يختبرهم ، فهم قوم وقفوا ضد تعيينه ملكا ، لذلك أراد أن يدخل الحكم على أرض صلبة . فقال لهم عن الحق : « إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم » .

لقد أوضح لهم : أنتم مقبلون على مهمة لله فى سبيل الله ، وهو سبحانه الذى سيجرى عليكم الاختبار ، ولست أنا لأن الاختبار يكون على قدر المهمة ؛ أنا مشرف فقط على تنفيذ الأمر ، والله مبتليكم بنهر من يشرب منه فليس منا إلا من اغترف غرفة بيده .

وساعة تسمع كلمة « مبتليكم » فلا تفسرها على أنها مصيبة ، ولكن فسرها على أنها اختبار ، قد ينجح من يدخله وقد يفشل . والاختبار هنا بنهر . ومادام كان الاختبار بنهر فلا بد أن لهذه الكلمة موقعا وأثرا نفسيا عندهم ، لا بد أنهم كانوا عِطاشا ، وإلا لو لم يكونوا عِطاشا لما كان النهر ابتلاء . « إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى » .

إنهم عطاش ، وساعة يُرى الماء فسيقبلون عليه بنهم شربا ورياً ، ومع ذلك يختبر الحق صلابتهم فيطالبهم بأن يمتنعوا عن الشرب منه ، لقد جاء الاختبار فى منعهم مما تصبو إليه نفوسهم . « فمن شرب منه فليس منى » لماذا ؟

لأنهم ساعة يرون ما يحبونه ويشتهونه فسيندفعون إليه وينسون أمر الله . ومن ينس

أمر الله ويفضل نفسه ، فهو غير مأمون أن يكون فى جند الله . لكن الذى يرى الماء ويمتنع عنه وهو فى حاجة إليه ، فهو صابر قادر على نفسه ، وسيكون من جند الله ؛ لأنه آثر مطلوب الله على مطلوب بطنه ، وهو أهل لأن يُبتلى .

ومع ذلك لم يَقْسُ الله فى الابتلاء ، فأباح ما يفك العطش ولم يحرمهم منه نهائيا . « إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده » لقد سمح لهم بغرفة يد تسد الرمق وتستبقى الحياة ، أباح لهم ما تقتضيه الضرورة . لكن ما صلة هذا الابتلاء بالعملية التى سيقبلون عليها ؟

إن العملية الحربية التى سيدخلونها سيقابلون فيها الويل وسيعرضون لنفاد الزاد ، وهم أيضا عرضة لأن يحاصرهم عدوهم ، وعلى الإنسان المقاتل فى مثل هذه الأمور أن يقوى على شهوته ويأخذ من زاده ومائه على قدر ضرورة استبقاء الحياة ، لذلك تكفى غرفة واحدة لاستبقاء الحياة . كأن التدريب هنا ضرورة للمهمة . فهل فعلوا ذلك ؟

يأتينا الخبر من الحق « فشربوا منه إلا قليلا منهم » . وهكذا تتم التصفية ، ففى البداية سبق لهم أن تولوا وأعرضوا عن القتال إلا قليلا ، وهنا امتنع عن الشرب قليل من القليل ، وهذه غرابيل الاصطفاء أو مصافى الاختبار ، فقد يقوى واحد على نصف المشقة ، ويقوى آخر على ثلث المشقة ، ويقوى ثالث على ربعها . لقد بقى منهم القليل ، لكنه القليل الذى يصلح للمهمة ؛ إنه الذى ظل على الإيمان .

وانظر كيف تكون مصافى الابتلاء فى الجهاد فى سبيل الله ؟ حتى لا يحمل راية الجهاد إلا المأمون عليها الذى يعرف حقها . « فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » أى عندما عبروا النهر واجتازوا كل الاختبارات السابقة قال بعضهم : « لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » لقد خاف بعض منهم من الاختبار الأخير ، ولكن الذين آمنوا بالله لم يخافوا ، ويقول الحق : « قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » .

لقد اختلفت المواجيد وإن اتحدت المرائى . فالذين جاوزوا النهر انقسموا قسمين ، قسم رأى جالوت وجنوده ، والقسم الآخر رأوه أيضا ، ولم ينقسموا عند الرؤية لكنهم انقسموا عند المواجيد التابعة للرؤية ، فقسم خاف وقسم لم يخف ، والذين خافوا قالوا : « لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » لقد وجد الخوف من جالوت وجنوده فى نفوسهم فقالوا : « لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » ، لقد مروا بثلاث مراحل ؛ المرحلة الأولى : هى إدراك لجالوت وجنوده ، والثانية : هى وجدان متوجس من قوة جالوت وجنوده ، والأخيرة : هى نزوع إلى الخوف من جالوت وجنوده ، لكن القسم الذى لم يخف رأوا المشهد أيضا وجاء فيهم قول الله : « قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » .

كأنهم أدخلوا ربهم فى حسابهم فاستهانوا بعدوهم ، لكن الفئة السابقة عزلت نفسها عن ربها فرأوا أنفسهم قلة فخافوا . لقد كان مجرد ظن الفئة المؤمنة أنهم ملاقو الله قد جعل لهم هذه العقيدة ، وإذا كان هذا حال مجرد الظن فما بالك باليقين ؟ « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » . ونعرف أن هناك معارك يفوز فيها الأقدر على الصبر ، ودليلنا على ذلك قول الحق :

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(آل عمران)

هذا هو الوعد لكن إذا صبرتم كم يكون المدد ؟ يقول الحق :

﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

(آل عمران)

فكان البدء بثلاثة آلاف لمساندة أهل الإيمان ويزيد العدد فى المدد إلى خمسة آلاف إن صبروا واتقوا . إذن فالمدد يأتى على قدر الصبر ؛ لأن حنان القدرة الإلهية عليك

يزداد ساعة يجدك تتحمل المشقة فيحن عليك ويعطيك جزءا أكبر . فالله يريد من عبده أن يستنفد أسباب قوته الخاصة ، وحين تستنفد الأسباب برجولة وثبات ، تأتيك معونة الله ، ويقول الله لملائكته : هذا يستحق أن يعان فأعينوه . ولذلك جاء قوله الحق على ألسنة المؤمنين : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ ﴾

هذه هي الشحنة الإيمانية لمن يريد أن يواجه عدوه فهو ينادي قائلا : « ربنا » إنه لم يقل : يا الله ، بل يقول : « ربنا » ؛ لأن الرب هو الذي يتولى التربية والعطاء ، بينما مطلوب « الله » هو العبودية والتكاليف ؛ لذلك ينادي المؤمن ربه في الموقف الصعب « ياربنا » أي يا من خلقتنا وتتولانا وتمدنا بالأسباب ، قال المؤمنون مع طالوت : « ربنا أفرغ علينا صبرا » .

وعندما تتأمل كلمة « أفرغ علينا صبرا » تفيدنا أنهم طلبوا أن يملأ الله قلوبهم بالصبر ويكون أثر الصبر تثبيت الأقدام « وثبت أقدامنا » حتى يواجهوا العدو بإيمان ، وعند نهاية الصبر وتثبيت الأقدام يأتي نصر الله للمؤمنين على القوم الكافرين ، وتأتي النتيجة للعزم الإيماني والقتال في قوله الحق :

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ

اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا
دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ
وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)

إن الحق يبلغنا أنه قد نصر المؤمنين به . ويجيء الحق بكلمة « هزموهم » وهي تدل على فرار من كان يجب أن يكون مهاجما . والمحارب يجب أن يكون مهاجما كارا دائما ، فحين يلجأ إلى أن يفر ، هنا نتوقف لنتبين أمره ، هل هذا الفرار تحرفا لقتال وانعطافا وميلا إلى موقف آخر هو أصلح للقتال فيه ؟ لو كان الأمر كذلك فلا تكون الهزيمة ، لكن إذا كان الفرار لغير كَرٍّ ومخادعة للعدو بل كان للخوف هنا تكون الهزيمة .

وقول الله : « فهزموهم بإذن الله » يدل على أن جنود جالوت لم يُقتلوا كلهم ، ولكن الذين قُتلوا هم أئمة الكفر فيهم ، بدليل قوله بعد ذلك : « وقتل داود جالوت » . وجالوت هو زعيم جيش الكفار الذى هرب ، فطارده داود وقتله . ولأول مرة يظهر لنا اسم « داود » فى هذه القصة الطويلة ، وهو اسم لم يكن عندنا فكرة عنه من قبل ، وستأتى الفكرة عنه بعد هذه القصة فى قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) ﴾

(سورة سبأ)

إذن فبداية داود جاءت من هذه المعركة بعد قتل جالوت ، وكان « داود » أخاً لعشرة وهو أصغرهم ، وقال النبى للقوم : إن من يدخل المعركة ضد جالوت لا بد أن يأتى درع موسى على مقاسه ، وهنا استعرض والد « داود » الدرع على جميع أبنائه ، فلم يأت على مقاس أى واحد منهم إلا على أصغرهم ، وهو « داود » . جاء الدرع على مقاسه ، ودخل « داود » المعركة فقتل جالوت قائد المشركين ، وشاعت

حكمة الله أن يكون أصغر المؤمنين هو الذى يقتل كبير جيش المشركين .

كانت هذه المعركة بداية تاريخ داود ، وقد جاءت له هذه المعركة بالفتح العظيم ، ثم أنعم الله عليه بالملك والحكمة وجعل الجبال والطير تردد وترجع معه تسبيح الله وتنزيهه ، كل ذلك نتيجة قتل جالوت . وأحب داود الدرع وصار أمله أن يعلمه الله صناعة الدروع ، ولذلك لم يتخذ صنعة فى حياته إلا عمل الدروع . وجعل الله له الحديد ليناً ليصنع منه ما يشاء كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأنبياء)

وهذا دليل على أن الإنسان يحب الشيء الذى له صلة برفعة شأنه . ولقد كان قتل جالوت هو البداية لداود . « وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » إن الحق يأتى هنا بقضية كونية فى الوجود ، وهى أن الحرب ضرورة اجتماعية ، وأن الحق يدفع الناس بالناس . وأنه لولا وجود قوة أمام قوة لفسد العالم ؛ فلو سيطرت قوة واحدة فى الكون لفسد .

فالذى يعمر الكون هو أن توجد فيه قوى متكافئة ؛ قوة تقابلها قوة أخرى . ولذلك نجد العالم دائما محروسا بالقوتين العظمين ، ولو كانت قوة واحدة لعم الضلال . ولو تأملنا التاريخ منذ القدم لوجدنا هذه الثنائية فى القوى تحفظ الاستقرار فى العالم .

فى بداية الإسلام كانت الدولتان العظميان هما الفرس فى الشرق ، والروم فى الغرب . والآن سقطت قوة روسيا من كفة ميزان العالم ، وتتسابق ألمانيا واليابان ليوازنا قوة أمريكا .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .